



عمادة الدراسات العليا
جامعة القدس

شعر الفقهاء في الأندلس في عصري ملوك الطوائف والمرابطين:
دراسة موضوعية وفنية

أحمد محمد مصطفى خطيب

رسالة ماجستير

القدس - فلسطين

1432هـ - 2011م

"شعر الفقهاء في الأندلس في عصري ملوك الطوائف والمرابطين:
دراسة موضوعية وفنية"

إعداد الطالب:
أحمد محمد مصطفى خطيب

بكالوريوس في اللغة العربية وآدابها - جامعة مؤتة - الأردن

المُشرف
الدكتور: مشهور الحبازي

قُدِّمَتْ هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها
من دائرة اللغة العربية / عمادة الدراسات العليا / جامعة القدس.

1432هـ - 2011



جامعة القدس

عمادة الدراسات العليا

برنامج الماجستير / دائرة اللغة العربية

إجازة الرسالة

"شعر الفقهاء في الأندلس في عصري ملوك الطوائف والمرابطين:
دراسة موضوعية وفنية"

اسم الطالب: أحمد محمد مصطفى خطيب

الرقم الجامعي: 20714007

المُشرف الدكتور: مشهور الحبازي

نُوقِشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ 21 / 5 / 2011 م من لجنة المناقشة
المدرجة أسماؤهم وتواقيعهم:

التوقيع:	رئيس لجنة المناقشة	1- د. مشهور الحبازي
التوقيع:	ممتحنا داخليا	2- د. جمال غيطان
التوقيع:	ممتحنا خارجياً	3- د. حسن فليفل

القدس - فلسطين

1432هـ - 2011م

الإهداء

إلى من شاركوني المعاناة: زوجتي ربيع العمر، وصنو النفس، ورفيقة الدرب، وأولادي فلذات الكبد، ورمز الأمل، والحب، والحياة الذين شدّوا معي حيازيم الصبر والإرادة.

إلى الروح المتوضئة في الغياب، إلى روح أُمي المعطرة برائحة الطابون، إلى الزنبقة التي غزلت من ظلام الليل أشعة الفجر الآتي.

إلى أبي الذي علّمني أن أكون ينبوع ماء يروي الضامئين.

إلى إخوتي وأخواتي.

إلى كل من علّمني حرفاً.

إلى كل الذين يضيئون الحرف والكلمة من الكادر التعليمي في جامعة القدس، الذين شاركتهم إضاءة الطريق أمام الأجيال.

إلى أطفال فلسطين الذين لمّا يمارسوا طفولتهم بعد.

إلى كل غيور على اللغة العربية وآدابها.

أهدي أول الغيث.

أحمد محمد مصطفى خطيب

الإقرار

أُقرُّ أنا مُقدِّمُ الرسالة أنها قُدمتْ لجامعة القدس لنيل درجة الماجستير، وأنَّها نتيجة أبحاثي الخاصَّة، باستثناء ما تمَّ الإشارة له حيثما ورد، وأنَّ هذه الرسالة، أو أي جزء منها لم يُقدِّم لنيل أيَّة درجة عليا، لأيِّ جامعة أو معهد.

التوقيع:

أحمد محمد مصطفى خطيب

التاريخ: 21 / 5 / 2011م

شكر وعرّفان

الحمد لله رب العالمين، الذي قال في محكم تنزيله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد خير الأنام.

ثم أتوجّه بجزيل الشكر والعرّفان لأستاذي الدكتور مشهور الحباري الذي أشرف على هذه الرسالة، وقدم لي النصائح النافعة، والإرشادات القيمة، الذي عرفت فيه خلق العالم في جدية البحث، والصبر في معالجة الأمور، والتأني في إصدار الأحكام، إذ إنه رأى النبتة وقد اشتدّ عودها، واكتمل نموّها، فقلّم بعض أغصانها، وأزال الشاذّ منها، وأحسن تنسيقها، حتى ظهرت شجرة ناضرة حسنة المنظر جميلة الهيئة وارفة الظلال، فله مني خالص المحبة والتقدير.

وأقدم بالشكر الجزيل لأساتذتي الأعزاء في دائرة اللغة العربية، وكل العاملين في جامعة القدس.

كما وأتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذين الممتحنين: الدكتور حسن فليفل، والدكتور جمال غيطان على تكرمهما بقراءة هذا البحث ومناقشته، وإغنائه بآرائهما وإرشاداتهما القيمة، وجزاهما الله خيراً، فالكلمة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

الملخص:

تأتي هذه الدراسة لتركز على شعر الفقهاء في عصري ملوك الطوائف والمرابطين، وتميط اللثام عن أشعارهم، وتصحيح اعتقاداً خاطئاً أن شعرهم كان ضعيفاً.

ومما دفعني لدراسة هذا الموضوع، أنني لم أعثر على دراسة كاملة ومستقلة، تكشف عن الخصائص الموضوعية والفنية لشعر الفقهاء في الأندلس في حقبة الدراسة، كما أن معظم الباحثين والدارسين ركزوا على الأدب الأندلسي بشكل عام، دون التطرق إلى موضوع شعر الفقهاء ومكانة الفقيه، ودوره في الحياة الأدبية.

وتهدف هذه الدراسة إلى دراسة شعر الفقهاء في الأندلس في عصري ملوك الطوائف والمرابطين؛ دراسة موضوعية تظهر الموضوعات التي قال فيها الفقهاء الشعر؛ ودراسة فنية تبرز السمات الفنية لشعر الفقهاء.

أما المنهج الذي أفادت منه هذه الدراسة فهو المنهج التكاملي؛ حيث أفادت من المنهجين: الوصفي والتحليلي في جميع فصولها، والمنهج التاريخي في تتبع التاريخ السياسي لحقبة ملوك الطوائف والمرابطين، والمنهج الإحصائي في دراسة القوافي وموسيقى الشعر.

تناول الباحث الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية في حقبة الدراسة، ودور الفقهاء فيها. وموضوعات شعر الفقهاء، وهي: الحكمة والزهد، والمدح، والهجاء، والفخر، والثناء، والوصف، والغزل، وغيرها، والبناء اللغوي، والبناء الموسيقي، والصورة الفنية، والاقتباس والتضمين.

أما نتائج البحث وتوصياته، فأهمها: غزارة شعر الفقهاء في حقبة الدراسة، ومكانة الشعراء الفقهاء الاجتماعية، كما أظهرت الدراسة تنوع الموضوعات التي قال فيها الفقهاء. وكشفت عن كثير من الشعراء الذين لم ترد لهم دواوين شعرية، وأبرزت شعرهم الذي قالوه في أغراض مختلفة. وأبانت الدراسة أن تراكيب قصائد الفقهاء متينة وقوية وبمستوى شعر الأندلس في تلك الحقبة، أما المعاني والصور فقد جاءت متنوعة ومختلفة؛ لأن الموضوعات التي عالجها الشعراء الفقهاء متنوعة ومختلفة.

وأوصى الباحث بدراسة الموضوع نفسه في العصور الأندلسية الأخرى التي تعد امتداداً لما ورد في هذه الدراسة.

Abstract

This study came to focus on the poetry of Al –Fuqaha' in the era of molouk Al –Tawaef and Al- Murabiteen , and to reveal the hidden facts about it and negates a dominant belief stating that it was weak poetry

The intention behind this study is that I did not find any comprehensive and independent study around this topic that reveals the objective and artistic characteristics of Al-Fuqaha poetry in that era, Moreover, most researchers and students gave much focus and emphasis to the literature of Andalusia in general neglecting to reveal the religious, social and ideological role of this poetry and because of the link between the poetry of Al-Faqeeh, status and his role in the political, social and literary aspects of life .

It also aims to study the poetry of Al-Fuqahaa' in Al-Andalus in Molouk Al-Tawaef and Al-Murabiteen era, and to highlight the themes and topics dealt with by those poets. It also aims to study the artistic aspects of this type of poetry from all sides, and to complete or add to Husni Na'sah's study "The Poetry of Al-Fuqaha': the rise and development up to the end of the First Abbasi Era. This study is considered as a completion to what Husni Na'sa started.

The integrative methodology was adopted in this study which makes use of other methodologies; but with special focus on using the descriptive analytical one in most of its chapters. The Historical Methodology was also exploited so as to make a follow – up of the political history of Al-Tawaef and Al –Murabiteen Kings at that time . The statistical methodology was also used in studying the rhyme and music of poetry.

The researcher dealt with the political, social and ideological trends dominant at the era of the study, and the role of al-Fuqaha' in it. These were: Wisdom and asceticism, praise and satire, pride, elegy, description, flirting and others and the Linguistic structure , the musical structure, the imagery , and the effect of tradition .

With regard to the outcomes and recommendations ,they highlighted the exuberant flow of Al-Fuqaha' poetry during this era, and the social status of the poets.

The study also showed much of the works of many poets whose works didn't appear in a poetical collection, highlighting the different aspects that had been dealt with. The study also showed that the language of this poetry came as strong as the poetry of Al-Andalus at that era. The meanings and images were manifold in response to the variety of topics and themes dealt with by those poets.

With regard to recommendations, the study highly recommends conducting similar studies around the topic but dealing with different times of Al-Andalus era , seeing that such studies will be considered as an extension to what has been dealt with in this study.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، حمداً كثيراً يليق بجلال وجهه، وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على سيّد المرسلين وإمام المتقين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد؛

لقد حظي كثير من الفقهاء في المجتمع الإسلامي بعامة والمجتمع الأندلسي بخاصة بمكانة مرموقة، عند الأمراء والحكام، بل إن بعضهم كان يتقرّب منهم إذا ما طبقوا الشرع، ما جعل كلمتهم مسموعة ومطاعة لدى العامة والخاصة على حد سواء، وزاد من مكانة هؤلاء الفقهاء تمكّن عدد غير قليل منهم من نظم الشعر في موضوعات شتّى، حتى نافس بعضهم في أشعاره أشعار كثير من معاصريهم من الشعراء، ومن خلال دراستي لتراجم عدد من الفقهاء في عصري ملوك الطوائف والمرابطين وجدت أن شعرهم توزع على موضوعات قول الشعر كلها، كما أن شعرهم حمل معاني جديدة؛ ولذلك وشّحت هذه الدّراسة بعنوان: " شعر الفقهاء في الأندلس في عصري ملوك الطوائف والمرابطين: دراسة موضوعية وفنية".

وقد دفعني لدراسة هذا الموضوع أسباب عديدة تتمثل في أنه لم يدرس هذا الموضوع أحد -فيما أعلم- دراسة مستقلة، كما أن من درس هذا الموضوع جاءت دراسته جزئية لا تفي بالغرض المطلوب، كما أن شعر الفقهاء في حقبة الدراسة شاع بكثرة؛ للمكانة التي كانوا يتمتعون بها، وقد أدرك أستاذي الدكتور مشهور الحبازي ذلك، ونبهنى إليه، وعبّد لي طريق النجاح بالنصح والإرشاد والتوجيه المستمر إلى أمانات المصادر والمراجع التي بدأت منها رحلة البحث.

وتكمن أهميّة الدراسة في أنها تركز على شعر هذه الطائفة من الفقهاء، وتبين أهمية شعرهم وموضوعاته وأهم مزاياه الموضوعية والفنية. أمّا قيمتها فإنها تعدّ من الدّراسات الأولى في موضوعها، إذ لم تنفرد دراسات سابقة -فيما أعلم- بتناول هذا الموضوع بشكل متكامل، فجاءت هذه الدراسة لتكون حلقة مكملة للدراسات الأدبية التي وضعت.

أما المنهج الذي أفادت منه هذه الدراسة فهو المنهج التكاملي؛ حيث أفادت من المناهج: المنهج التاريخي في تتبع التاريخ السياسي لحقبة ملوك الطوائف والمرابطين، والتحليلي الوصفي في جميع فصولها، والمنهج الإحصائي في دراسة القوافي وموسيقى الشعر.

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة، ففي التمهيد تحدثت عن الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية في حقبة الدراسة.

أما الفصل الأول فدرست فيه موضوعات شعر الفقهاء، وهي: الحكمة والزهد، والمدح، والهجاء، والفخر، والرتاء، والوصف، والغزل، وغيرها.

أما الفصل الثاني "شعر الفقهاء دراسة فنية" فيشتمل على أربعة مباحث:

الأول: خصصته للغة والأسلوب، وفيه تحدثتُ عن سهولة الشعر، والطباق، والمقابلة، والأساليب الإنشائية: كالأمر، والنهي، والتمني، والاستفهام، والنداء، أما الثاني فكان عن البناء الموسيقي وتركز الحديث فيه على الموسيقى الداخلية والخارجية، وقد تمثلت في سبعة محاور رئيسة وهي: الجناس، والتكرار، والتدوير، والتصريع، وحسن التقسيم، والوزن، والقافية. والثالث كان عن الصورة الفنية، وفيه تناولت ثلاثة محاور، هي: التشبيه، والاستعارة، والكناية. والرابع خصصته للحديث عن الاقتباس والتضمين، وتناولت فيه خمسة محاور، هي: ألفاظ القرآن الكريم، والقصص القرآني، والاستشهاد بمعاني القرآن الكريم، والتأثر بالحديث الشريف، والتأثر بالشعراء السابقين.

أما الخاتمة فقد أودعتها ما خلصت إليه من نتائج وتوصيات.

واستعنت بعدد كبير من المصادر والمراجع، أهمها في الدراسة الموضوعية: ديوان الإليبري، وديوان ابن حزم الأندلسي، وطوق الحمامة، ورسائل ابن حزم، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام، وخريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني، والمطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية الكلبي، والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي، والإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب وأزهار الرياض في أخبار القاضي عياض للمقري التلمساني. وهذه أفادتني في معرفة أشعار الفقهاء. وفي الدراسة الفنية اعتمدت عدداً من المصادر والمراجع، ومن أهمها: الإيضاح للقزويني، والبلاغة فنونها وأفنانها لفضل عباس، وموسيقى الشعر لإبراهيم أنيس، وعلم المعاني وعلم البديع لعبد العزيز عتيق. كما اعتمدت لسان العرب لابن منظور مصدراً رئيساً لتوضيح المعاني وتفسيرها.

وتعدّ قلة الدواوين في مكتبات الوطن هي الصعوبة الأبرز التي واجهتني، وكذلك صعوبة الحصول على بعضها الآخر واقتنائها للعودة إليها عند الحاجة.

وفي الختام أسأل الله العليّ القدير أن أكون قد وفّقت في سدّ ثغرة في هذه الحقبة الزمنية في مجال شعر الفقهاء، وأن يغفر لي زلتي وتقصيري في عملي، لأنّ التقصير ملازم للإنسان، وأن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، فهذا جهد المقلّ، يصدق فيه قول العماد الأصفهاني: "إني رأيت أنه لا

يكتب أحد كتاباً إلا قال في غده: لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو قُدِّمَ هذا لكان أفضل، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العِبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر، فإني اجتهدت، فإن أصبت فلي أجزان، وإن لم أصب فلي أجر المحاولة.

عليه توكلت وإليه أنيب

والله من وراء القصد.

تمهيد

أولاً- الحياة السياسية

ثانياً- الحياة الاجتماعية

ثالثاً- الحياة الأدبية

تناولتُ في هذا التمهيد ثلاثة موضوعات مهمة في حياة الأندلس في حقبة الدراسة، وهي: الحياة السياسية، والحياة الاجتماعية، والحياة الأدبية.

أولاً- الحياة السياسية

درست الحياة السياسية في الأندلس في حقبة دويلات ملوك الطوائف، ودولة المرابطين، وذلك على النحو الآتي:

أ عصر ملوك الطوائف: (422-484هـ)

بدأ حكم ملوك الطوائف سنة (422هـ)، عندما خلع أهالي قرطبة الخليفة هشام الثالث الملقب بالمعتمد بالله، وأسندوا أمرهم إلى شيخهم ووزيرهم أبي الحزم بن جهور الذي ألغى الخلافة الأموية، وانتهى سنة (484هـ) عندما دخل يوسف بن تاشفين الأندلس، وصار المعتمد بن عباد كبير ملوك الأندلس في قبضته أسيراً، ونقله إلى أغمات قرب مراكش سنة (484هـ).⁽¹⁾

وخير ما يمثل الحياة السياسية في عصر ملوك الطوائف بيتان من الشعر لابن رشيق القيرواني يقول فيهما:⁽²⁾

مِمَّا يُزْهِدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ سَمَاعُ مُقْتَدِرٍ فِيهَا وَمُعْتَضِدِ
أَلْقَابُ مَمْلُوكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالْهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاحاً صَوْلَةَ الْأَسَدِ

بعد انتهاء الخلافة الأموية سادت الفرقة والتنافس بين أمراء الأقاليم المختلفة، فيما حاول بعض الأمراء المخلصين استمرار وحدة الأندلس، وإعادة الخلافة دون جدوى؛ إذ أعلن أهل قرطبة سنة 422هـ خلع الخليفة، وإسناد أمرهم إلى شيخهم أبي الحزم بن جهور، الذي ألغى الخلافة فيما بعد.⁽³⁾

بعد ذلك قامت في عدد من مناطق الأندلس ممالك أو دويلات مستقلة يحكم كلاً منها أميرٌ مستقلٌّ، تفاوتت في المساحة والقوة، كما تفاوتت مدة استمرار كل منها، وحكم كلاً منها في الأغلب- أسرةٌ توارث أبناؤها الحكم فيها، وكان لكل حاكم وزراؤه وكتّابه، وقضاته وقوادته، ولكل

(1) ينظر: المقرئ، نفح الطيب، 439/1.

(2) المقرئ، م.ن، 214/2؛ ونسب البيتان لابن عمار بروايات عديدة.

(3) المقرئ، م.ن، 438/1.

مملكة عاصمة، وتتبعها مناطق أخرى حولها من المدن والقرى والحصون، وبعض الممالك توالى على حكمها أسرتان ، كما حدث لبلنسية التي حكمها بنو عامر ثم بنو ذي النون ، وبعضها خلع أهلها حاكمهم، وولوا أمرهم غيره، كما حدث في طليطلة حين خلع أعيانها القادر، واستدعوا المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس، وقد قُسمت الأندلس إلى إمارات بلغ عددها أحياناً عشرين إمارة، وأشهرها عشر إمارات هي:⁽¹⁾

- 1 -الدولة العامرية، وهي عربية ، مؤسسها خيران العامري، حكمت في المرية وبلنسية ومرسية ودانية ما بين (412 و478هـ).
- 2 -الدولة الزيرية، وهي بربرية، مؤسسها حبوس بن ماكسن، حكمت غرناطة ومالقة ما بين (403 و483هـ).
- 3 -دولة بني ذي النون، وهي بربرية، مؤسسها إسماعيل بن ذي النون الملقب بالظافر، حكمت طليطلة وبلنسية ما بين (427 و487هـ).
- 4 -دولة بني الأفطس، وهي بربرية، مؤسسها محمد بن الأفطس الملقب بالمظفر، حكمت بطليوس ما بين (421 و487هـ).
- 5 -دولة بني رزين، وهي بربرية، مؤسسها هذيل بن عبد الملك، حكمت أصحاب السهلة ما بين (402 و497هـ)..
- 6 -الدولة الجهورية، وهي عربية، مؤسسها أبو الحزم بن جهور، حكمت قرطبة وجيان وبياسة وأبدة ما بين (422 و461هـ).
- 7 -الدولة العبّادية، وهي عربية، مؤسسها القاضي إسماعيل بن عبّاد، حكمت إشبيلية ما بين (414 و484هـ).
- 8 -الدولة الهودية، وهي عربية، مؤسسها سليمان بن هود، حكمت سرقسطة ما بين (410 و536هـ).
- 9 -الدولة الحمودية، وهي عربية، مؤسسها علي بن حمود الملقب بالناصر، حكمت قرطبة ومالقة والجزيرة الخضراء ما بين (407 و450هـ).
- 10 -دولة بني القاسم، وهي عربية، مؤسسها عبد الله بن القاسم، حكموا البوننت ما بين(421 و497هـ).

(1) ينظر: المقري، نفح الطيب، 1/438-442؛ عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص59؛ إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، ص12-19؛ محمد الداية: في الأدب الأندلسي، ص35؛ ياسر الملاح، من الفجر إلى الغروب: قصة الأدب العربي في الأندلس، ص133؛ محمد أسعد: الاستعطاف في الشعر الأندلسي، رسالة ماجستير، ص3.

وقد كانت هذه الدول في صراع دائم، فقامت بينها حروب طاحنة، واستعان بعضها بالأجنبي من ملوك الفرنجة، ما مزق كل الدولة إلى دويلات هزيلة، وصار جل هم الحكام فيها المحافظة على عروشهم، وذلك عن طريق بناء الحصون والقلاع وتجيش الجيوش بعضهم ضد بعض، واستبد كل رئيس منهم بتدبير ما تغلب عليه من الجهات، وانقطعت الدعوة للخلافة وذكر اسمها على المنابر؛ فلم يذكر خليفة أموي ولا هاشمي بقطر من أقطار الأندلس، خلا أيام يسيرة دعي فيها لهشام المؤيد بن الحكم المستنصر بمدينة إشبيلية وأعمالها، حسبما اقتضته الحيلة واضطر إليه التدبير، وكان أكثرهم يتقاتلون ويصطرون، ويثيرونها حرباً شعواء في سبيل إمارات ضعيفة؛ ما جعلهم يفتضحون أمام عدوهم، الذي قام بغزوهم، فاستسلموا له، ودفعوا له الجزية.⁽¹⁾

وقد كان الخلاف بين ملوك الطوائف ظاهراً، إذ خطب بعضهم لبني أمية على الرغم من زوال خلافة الأمويين، وكان فيهم من خطب للخلفاء المروانيين وإن لم يبق لهم خلافة، ومنهم من خطب للخلفاء العباسيين المجمع على إمامتهم، وصار ملوك الطوائف يتباهون في أحوال الملك، حتى في الألقاب، فال أمرهم إلى أن تلقبوا بنعوت الخلفاء، فكان عبّاد بن محمد بن عبّاد قد تلقب بالمعتضد، واقتفى سيرة المعتضد العباسي أمير المؤمنين، وتلقّب ابنه محمد بن عبّاد بالمعتمد وترفعوا إلى طبقات السلطنة العظمى، وذلك بما في جزيرتهم من أسباب الترفه والضخامة التي تتوزع على ملوك شتى فتكفيهم، وتهض بهم للمباهاة.⁽²⁾

وعلى الرغم من جهود كل من الفقيه أبي الوليد الباجي، والمتوكل ابن الأفطس، وأبي الحزم جهور بن محمد بن جهور، والفقيه ابن حزم الأندلسي، والشاعر الفقيه ابن العسال الطليطلي، والشاعر أبي إسحق الإلبيري في الدعوة إلى التوحد، إلا أنها لم تسفر عن نتائج تذكر، وبقي أغلب ملوك الطوائف في غيهم، وفوتوا فرصة التوحد، ووقعت الكارثة، وسقطت طليطلة سقوط أول حجر من الصرح، وفي ذلك قال الشاعر ابن العسال: ⁽³⁾

{ البسيط }

يا أهل أندلسِ حثّوا رواحلكم فما المقامُ بها إلا من الغَلَطِ

(1) ينظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص71؛ جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، ص24؛ سامي الكيالي، في الربوع الأندلسية،

ص20-23؛ مجدي السيد، تاريخ الإسلام والمسلمين في بلاد الأندلس الدرة المفقودة، ص136.

(2) المقرئ، نفح الطيب، 1/214-215؛ فيليب حتي، العرب تاريخ موجز، ص100.

(3) المقرئ، م.ن، 4/352.

الثوبُ ينسلُّ من أطرافه وأرى ثوبَ الجزيرة منسولاً من الوسطِ
مَنْ جاورَ الشرَّ لا يأمنُ بوائقه كيفَ الحياةُ معَ الحياتِ في سَفَطِ

وعلى الرغم مما يستشفّ من قول الشاعر من جبن وأنانية، إلا أنّ الشاعر حاول تصوير عِظَم المصيبة التي حلّت بالمسلمين، وحذّر من السكوت عن ذلك.

وقد حصل في عهد ملوك الطوائف ثلاثة أحداث عظيمة كان لها صدى عظيم في تلك الحقبة، وهي: استيلاء النورمانديين على بربشتر سنة 456هـ؛ إذ حاصر النورمانديون بربشتر سنة 456هـ، وقد كانت الجيوش المحاصرة أربعين ألفاً أو يزيدون، واستمرّ حصارها أربعين يوماً، ولما قلّت الأقوات، واشتدّ الضيق بالمدينة، استطاع النورمانديون -بعد قتال عنيف- اقتحام المدينة الخارجية، ثمّ قاموا بقطع المياه عنها؛ ما ضيقّ الحال بالمدافعين، فعرضوا على النورمانديين التسليم بشروط؛ فرفضوا، ثمّ دخلوا المدينة، واستباحوها بكلّ ما فيها ومن فيها، وقُدّر عدد القتلى والأسرى بين أربعين إلى مئة ألف، ثمّ أعطى قائد الحملة الأمان لأهلها، لكنه غدر بهم، فأمر جنده أن تقلّل من أعدادهم حصاداً بالسيف، فقتل ستة آلاف شخص، ثمّ انتُهبت المدينة، واحتلّت دورها، وهُتكت أعراضها، وفي ذلك يقول ابن بسام: "إلى أن طرق الناعي بها قرطبتنا فجأة، صدر شهر رمضان من العام، فصكّ الأسماع وأطار الأفئدة وزلزل الأرض الأندلسية قاطبة، وصير للكل شغلا تسكع الناس في التحدث به والتسأل عنه والتصور لحلول مثله أياما لم يفارقوا فيها عاداتهم من استبعاد الوجل، والاعتزاز بالأمل، والإسناد إلى أمراء الفرقة الهمل، الذين هم منهم ما بين فشل ووكل، يصدونهم عن سواء السبيل، ويلبسون عليهم وضوح الدليل"،⁽¹⁾ وقد أدى ذلك إلى الدعوة إلى الجهاد، فلبى الدعوة كثير من الناس، وسار المتطوعون من جميع الأندلس إلى الثغر جهاداً في سبيل الله تعالى، إلى أن استردت بربشتر سنة 457هـ، بقيادة المقتدر أحمد بن عباد، واستشهد في المعركة خمسين شهيداً، وقتل من النورمانديين ألف وخمسمئة فارس.⁽²⁾

والحدث الثاني هو استيلاء الأذفونش (ألفونسو السادس) على طليطلة سنة 478هـ، والعجيب في الأمر أنّ حكام الممالك الأخرى لم يتحرك لهم ساكن لنصرة إخوانهم في طليطلة، كانوا يهتمون بالترف والقصور، غرّتهم أنانيتهم وحبّ الكرسيّ أن يرتمي بعضهم في حضن

(1) ابن بسام، الذخيرة، 180/5.

(2) ينظر: ابن بسام، م، 5/179-181، المقرئ، نفح الطيب، 4/449-450.

الأذفونش مظهرًا للولاء والطاعة، وتتأسوا أن الأذفونش لا يفرّق بين أيّة مدينة أندلسية وأخرى. وعلى الرغم من ذلك فإنّ عمر بن محمد بن الأفضس حاكم بطليوس حاول تقديم المساعدة لطليطة، لكنّ إمكانياته لم تكن تكفي لصدّ الأذفونش، وإنقاذ المدينة؛ فحاصرها الأذفونش، وضيق عليها الخناق حتى سقطت، وقد فعل بأهلها الأفاعيل بعد أن أعطاهم الأمان؛ إذ نقض العهد، وحولّ مسجد طليطة إلى كنيسة، ولم يكتفِ بذلك، بل اتجه إلى جميع أعمال طليطة التي سقطت بيده؛ ما جعل ملك قشتالة يتصور أنّ أمراء الطوائف كافة أصبحوا رهن إشارته، وأنه سيقضي عليهم واحداً واحداً، لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن؛ إذ طلب المسلمون، وعلى رأسهم المعتمد بن عبّاد النجدة من إخوتهم ملوك المرابطين في المغرب، ومن ملوك مدائن الأندلس الآخرين؛ فلبّى يوسف بن تاشفين النداء، وهزمهم في معركة الزلاقة سنة 479هـ، التي جرح فيها المعتمد في بدنه ووجهه.⁽¹⁾

وأخيراً ما جرى لبلنسية في عهد القنبيطور (الكمبيادور)، حيث عاث قائده رذريق فيها فساداً سنة 488هـ، ونكّل بأهلها، وحولّ مسجدها الجامع إلى كنيسة، وتسلمّ أموال القادر من القاضي ابن جحاف، الذي أعدم حرقاً في ساحة المدينة، في الموضع المعروف (رحبة القاضي)؛ بسبب ذخيرة نفيسة من ذخائر ابن ذي النون، كان رذريق لأول دخوله قد سأله عنها، واستحلفه بمحضر جماعة من أهل الملتين على البراءة منها، فأقسم بالله أنه لا يملكها، فلم يلبث رذريق أن عثر على الذخيرة المذكورة لديه. وعندما وصلت أخبارها إلى يوسف بن تاشفين حرّك الجيوش وحاصرها، وتمكن من تحريرها، سنة 495هـ بقيادة الأمير أبي محمد مزدلي.⁽²⁾

ب- دولة المرابطين: (484 - 539هـ).⁽³⁾

أصل هؤلاء القوم من حمير بن سبأ، وهم أصحاب خيل وإبل وشاء، ويسكنون الصحارى الجنوبية وينتقلون من ماء إلى ماء كالعرب، وبيوتهم من الشعر والوبر، وأول من جمعهم وحرصهم على القتال وأطعمهم في تملك البلاد عبد الله بن ياسين الفقيه، الذي قتل في حرب جرت مع برغواطية، وقام مقامه أبو بكر ابن عمر الصنهاجي الصحراوي الذي مات في حرب السودان،

(1) ينظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص20.

(2) ينظر: ابن بسلام، الذخيرة، 98/5؛ المقرئ، نفح الطيب، 455/4.

(3) ينظر: ابن بسلام، م، ن، 98/5؛ المقرئ، م، ن، 455/4.

ويوسف بن تاشفين هو الذي سمي أصحابه المرابطين، وهم قوم يتلثمون ولا يكشفون وجوههم، فلذلك سموهم الملتئمين، وذلك سنة لهم يتوارثونها خلفاً عن سلف، وسبب ذلك أن حمير كانت تتلثم لشدة الحر والبرد يفعلها الخواص منهم، فكثر ذلك حتى صار يفعلها عامتهم. وقيل: كان سببه أن قوماً من أعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم إذا غابوا عن بيوتهم، فيطرقون الحي، فيأخذون المال والحريم، فأشار عليهم بعض مشايخهم أن يبعثوا النساء في زي الرجال إلى ناحية ويقعدوا هم في البيوت ملتئمين في زي النساء، فإذا أتاهم العدو ظنهم النساء فيخرجون عليهم، ففعلوا ذلك، وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوه، فلزموا اللثام تبركاً بما حصل لهم من الظفر بالعدو.⁽¹⁾

وما أن استقر الأمر بالمغرب ليوسف بن تاشفين أحد أشهر قادة المرابطين، حتى ظهرت أطماع النصارى في بلاد الأندلس بوضوح، وبعد أن بلغ الضعف بالمسلمين حدّه أجمعوا على استنفار يوسف بن تاشفين، فكتب إليه المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية يعلمه بحال الأندلس، ويسأله النصر والإعانة. وبعد أن جاءت الاستغاثة من أمراء الأندلس وفقهائها، يستجدون بالمرابطين وزعيمهم يوسف بن تاشفين بدأت طلائع المرابطين بالتوجه إلى الجزيرة الخضراء، وعسكروا فيها سنة (477هـ)، ثم بدأت القوات المحتشدة من الجزيرة الخضراء تتحرك إلى إشبيلية بقيادة أبي سليمان داود بن عائشة، وهناك قابل الجموع الأندلسية المسلمة التي دفعها الحماس للانضمام إلى جيش المرابطين، واجتمعت إليه جيوش الأندلس من إشبيلية والمرية وقرطبة، ثم بدأ يوسف بن تاشفين ينظّمها، فجعل معسكرين: معسكراً للأندلسيين، ومعسكراً للمرابطين. ثم قاد معركة الزلاقة سنة (479هـ)، التي حدثت بين المسلمين والنصارى، وكان من أهم نتائجها أن حرر المسلمون مدينة بلنسية، ورفعوا الحصار عن سرقسطة، وقتلوا خمسة وعشرين ألفاً من خيرة جنود النصارى، وبدلاً من أن يدفع المسلمون الجزية للنصارى صار المسلمون آمنين من الاعتداءات النصرانية، ومنذ ذلك اليوم تلقّب يوسف بلقب أمير المسلمين، وهو أول من تلقب بذلك من ملوك الأندلس والمغرب⁽²⁾، وأتاه تقليد الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله، ولقبه (ناصر الدولة).⁽³⁾

عاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب بعد أن حقّق النصر على الأعداء، ونشر الأمن في ربوع الأندلس، وترك جيشاً مرابطياً بقيادة سيرين بن أبي بكر، لكنّ الجزء الشرقيّ من الأندلس ظلّ

(1) ينظر: محمود السيد، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص 23.

(2) ينظر: حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص 298.

(3) ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، 116/7-117؛ الحميري، الروض المعطار، 287/1-291.

مكشوفاً للأعداء؛ مما أغرى ألفونسو السادس ملك قشتالة أن ينتهز فرصة عودة ابن تاشفين لتهديد إشبيلية من جديد.⁽¹⁾

وظهر شرقي الأندلس القمبياطور، الذي استبدّ بالمنطقة في لاردة وبلنسية وشاطبة ودانية ومرسيّة، وعاث فيها فساداً. أما الجيش المرابطيّ الذي تركه ابن تاشفين غرب الأندلس فقد شغله جهاد النصاري، وكان أمراء الأندلس في لهو عن العدو، حتى ضجّ قائد المرابطين من سوء موقف ملوك الطوائف في الأندلس، وبعث إلى قائده يوسف بن تاشفين يشكو له سوء الأحوال، وخطورة الموقف، فاستجاب ابن تاشفين لنداء الأندلس، وعبر إلى الأندلس ثانية في عام 481هـ.⁽²⁾

وفي عام ثلاثة وثمانين وأربعمئة، تحرّك أمير المسلمين، يوسف بن تاشفين، لخلع رؤساء الأندلس، بعد أن أدرك أنّ ملوك الطوائف لا يمكن جمع كلمتهم، وتوحيد صفوفهم لملاقاة العدو؛ فخلعهم من مناصبهم وعزلهم، وأسند حكم الأندلس لابنه علي، وعاد إلى عاصمة ملكه مراكش في المغرب، حيث توفي عام 500هـ.⁽³⁾

تولى علي بن يوسف حكم الأندلس (500-537هـ)، وحصلت في عهده معركة إقليش سنة 501هـ، حيث قاد جيوش المرابطين ابنه تميم، وجيوش النصاري الأمير سانشو بن ألفونسو السادس، وتمكن المسلمون من إلحاق الهزيمة بالنصاري، وقتل ملكهم ألفونسو السادس.⁽⁴⁾

وفي عام 537هـ توفي علي بن يوسف بن تاشفين، وأخذ ابنه تاشفين البيعة، فحكم الأندلس (537-539هـ)، علماً أنّه لم يتمكن من الذهاب إلى الأندلس لظروف الحرب مع الموحدين، التي استمرت حتى وفاته عام 539هـ.⁽⁵⁾

(1) ينظر: محمود السيد، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص35.

(2) ينظر: محمود السيد، م. ن، ص36.

(3) ينظر: ابن الخطيب، الإحاطة، 290/3؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، 123/7.

(4) ينظر: محمود السيد، م. س، ص40.

(5) ابن بسام، الذخيرة، 532/5.

ثانياً - الحياة الاجتماعية:

أ - عصر ملوك الطوائف:

تميز المجتمع الأندلسي في عصر ملوك الطوائف بظهور نظام اجتماعي قائم على التناقض والتباين، فقد برزت فئتان تشكلتا بفعل العوامل السياسية والاقتصادية هما:

أ - طبقة الخاصة: وتضم الأمراء، والوزراء، وكبار التجار، والموظفين، والقضاة، وبعض الفقهاء، وكانت تتميز بالثراء الفاحش، والإسراف في الإنفاق على أنواع اللهو والملذات المختلفة، وبناء القصور الفخمة، مثل: قصر المعتمد بن عباد، وقصر المأمون بن ذي النون حاكم طليطلة، وقصر دار السرور الذي بناه المقتدر بن هود.

ب طبقة العامة: وتضم غالبية السكان من المجتمع الأندلسي، وشملت صغار الموظفين، وصغار التجار، والصناع، والحرفيين، والفلاحين، والعبيد.⁽¹⁾

وتمزق المجتمع الأندلسي في حقبة ملوك الطوائف متأثر بالتمزق السياسي، والشرذمة التي آلت إليها البلاد، وعلى الرغم من أن الدولة ترفع راية الإسلام، إلا أن هذا العصر قد تميز بميزتين فاضحتين، هما:

1 - التشرذم والنزوح وانعدام الأمن والاستقرار، إذ أصيب المجتمع الأندلسي بتموجات عنيفة، كانت تخل من توازنه أحياناً، وتترك فيه آثاراً نفسية عميقة، وقد بدا ذلك في أثناء الفتنة البربرية، وما تبعها من تشرد كثير من أهل قرطبة فراراً بأرواحهم في نواحي الأندلس المختلفة، وتزايدت حركة التشرد إثر سقوط بقية المدن الأندلسية بيد العدو النصراني.⁽²⁾ ولم يكن التشرد عائداً إلى الحروب فقط، بل كان من أجل طلب الرزق أحياناً، والصراع العنصري أحياناً أخرى، فعندما تغلب البربر بعد الفتنة على مناطق واسعة خرج أهل تلك المناطق منها، كما أن استبداد الجند بالأمور وإطلاق أيديهم بالتصرف جعلهم يتجاوزون كل الحدود.

وفي هذا الجو المتقلب المتموج برزت شخصية الرجل القلق المغامر الذي يتجول من بلد إلى بلد عارضاً مهارته على من يقدرها، سواء أكان جندياً، أم شاعراً، أم كاتباً، وعندما سقطت طليطلة بيد النصارى حلق الفقيه أبو القاسم بن الخياط وسط رأسه وشدّ الزنار، وعمل كاتباً عند الأذفونش،

(1) ينظر: رحاب عوض الله، دور الفقهاء في الحياة العامة في عصر الطوائف، رسالة ماجستير، ص 67-69 .

(2) ينظر: ياسر الملاح، من الفجر إلى الغروب: قصة الأدب العربي في الأندلس، ص 134.

ومثله فعل الشاعر ابن عمار، الذي لم يسلم من لسانه السليط أمير بلنسية عبد العزيز بن أبي عامر، والمعتصم بن صمادح أمير دانية من أجل إرضاء الأذفونش وتحقيق مآربه.⁽¹⁾

2 - الإغراق في اللهو والملذات وشرب الخمر، حتى قيل: إن بعض الحكام ما كان يعرف الصحو أبداً، وقد فرض الحكام على الناس ضرائب باهظة، كانت تتفق في بناء القصور والدور واقتناء فاخر الأثاث ورفيع الرياش، وسائر صنوف الترف، ولم يقتصر الغنى على الملوك والأمراء، بل كان يشمل طبقة التجار، وبخاصة تجار الرقيق، والمقربين من الحكام، وبعض الفقهاء في حين كان يعاني بقية أفراد المجتمع من الحرمان والفقر المدقع.

وهذا الجانب المترف القائم على الإبداع في شؤون القصور والحدائق هو الجانب الحضاري، ويحفل الشعر الأندلسي بوصف قصور الأمراء، مثل: قصر المعتمد، وقصور بني ذي النون.⁽²⁾ كما برز الغناء، فظهرت مجموعة من المغنين والمغنيات، فكان الحكيم النديم أبو بكشستر ابن الإشبيلي مغنياً بقصر الرشيد ابن المعتمد، وكان محمد بن الحمامي مغنياً عند بني حمود. وكان اقتناء القيان أمراً متصلاً بطبيعة الترف في قصور الأمراء ودور الأثرياء، وكانوا يغالون في أثمانهن، وبخاصة إذا أتقنت الجارية فنوناً متنوعة من علم وخط وشعر، فقد حرص المعتضد على شراء قينة عبد الرحيم الوزير من قرطبة إثر وفاته لما وصفت له بالحدق في صنعتها، وأهدى مجاهد العامري من دانية إلى المعتضد جارية عرفت باسم العبادية، وكانت ظريفة أديبة شاعرة، ودفع هذيل بن رزين في جارية ثلاثة آلاف دينار؛ لما وصفت به من الجمال وطيب الغناء وجودة الكتابة والمعرفة بالعلوم.⁽³⁾

وقد دفعت حياة البذخ والمجون التي سادت العصر عدداً من الفقهاء إلى الزهد والانعزال، وترك الحاجات الدنيوية، والتفرغ للعبادة، والنهي عن السير في ركب الحكام، الذين يتصفون بضعف الوازع الديني تجاه بلادهم، ومن أشهر الفقهاء الزهاد: أبو إسحاق الإلبيري، وأبو القاسم بن فتح الريولي.⁽⁴⁾

ب- دولة المرابطين:

لا يمكن الحديث عن المجتمع الأندلسي في هذا العصر بمعزل عن عصر ملوك الطوائف الذي كان عصر فرقة وتناحر وفقر، لقد أعاد المرابطون للأندلس عزّها في الجهاد، وتأمين الحدود، وبدأ العدو يهاب دولة المرابطين، ويخشاهما، ولكن ما لبث هذا الاستقرار أن شابه خروج

(1) ينظر: إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، ص 34.

(2) ينظر: إحسان عباس، م.ن، ص 42.

(3) ينظر: إحسان عباس، م.ن، ص 50-55.

(4) ينظر: رحاب عوض الله، دور الفقهاء في الحياة العامة في عصر الطوائف، رسالة ماجستير، ص 69-72.

المرابطين، فعادت الأندلس إلى ما كانت عليه في زمن ملوك الطوائف من تفكك، وتمزق، ونكبات، فانعكس ذلك كله على نفوس الشعب مرارة وألماً وتحسراً وشوقاً إلى الخلاص مما هم فيه.⁽¹⁾

ولقد وصل المجتمع الأندلسي في أواخر عهد المرابطين إلى أسوأ حال؛ فرجال الجيش وخلفاء يوسف بن تاشفين الأتقياء المجاهدون ذوو النفوس الأبية والنقية فقدوا هذه الصفات، عندما أثروا بفضل الأموال الكثيرة التي ورثوها عن ملوك الطوائف، كما أن قيام دولة المرابطين على قاعدة الجهاد كان يجعل تكاليف الحروب أمراً لا تقي به إلا كثرة الضرائب والمكوس، إضافة إلى أن أمراء المرابطين بالأندلس لم يكونوا مثل أمير المسلمين في تعفّفهم عن أموال الناس، وأنهم انغمسوا بعد مدة وجيزة في التزديد من الثروة والمكاسب، وأخذوا يفكرون في التمتع ومالوا إلى الراحة والدعة والنساء، ولذلك لم يحس الرجل العادي في المدن والقرى الأندلسية بتحسّن مستوى دخله أيام المرابطين، وإنما الذي أحس بذلك هم بعض الفقهاء الذين شاركوا في السلطة نفسها وفي جمع الثروات، ثم إن قدوم المرابطين خلق تنافساً شديداً على الوظائف، كما خلق شيئاً من افتتات طبقة المثلثين على مصالح الرعية، إذ كان يجب أن يكون المثلث صنهاجياً، أو لمتونياً، أو لمطياً، أما ما عداهم من الحشم والعبيد فإنهم حين يلثمون يهيّبون على الناس، ويأتون أبواباً كثيرة من الفجور بسبب اللثام، والسبب في ذلك أن اللثام -وهو شارة المرابطين- يوجب على الناس إكرامهم، فإذا تلثم عبيدهم ظنهم الناس من المرابطين أنفسهم، فسعوا إلى برهم، هذا إلى جانب أن المثلثين كانوا يستغلون اللثام في ضروب الإساءة والتعدي.⁽²⁾

ولهذا انتشر الفساد في الدولة، فأصبحت الإدارة عاجزة عن توفير الأمن، وانتشر اللصوص وقطاع الطرق في كل مكان، وأصاب الشلل ميادين الإنتاج الزراعي والصناعي، واشتدت الحاجة إلى الأرزاق، وكثرت الغزوات المتتالية على المدن الأندلسية، ويروي المقرئ أن عدد من سبي من أ بكر المرية وحدها في غارة واحدة أربعة عشر ألف فتاة، وبناء على ذلك أخذ الناس يفقدون ثقتهم بالمرابطين، وعدّوهم محتلين ظالمين، وأخذت المدن تتورّ عليهم، وساد القلق النفسي نفوس الناس خوفاً على أموالهم وأعراضهم وأنفسهم.⁽³⁾

(1) ينظر: ياسر الملاح، من الفجر إلى الغروب: قصة الأدب العربي في الأندلس، ص 165-167.

(2) ينظر: ياسر الملاح، م.ن، ص 165-167.

(3) المقرئ، نفح الطيب، 4/463.

ثالثاً - الحياة الأدبية:

أ - عصر ملوك الطوائف:

قال ابن بسام عن الأندلس: "لا يكاد بلد منها يخلو من كاتب ماهر، وشاعر قاهر؛ إن مدح ما كثير عنده بكثير، وإن هجا أجزّر لسان جرير، وعدا عدياً عن مدح ذويه، وأنسى جرولاً العواء في أثر قوافيه، وإن تغزل أربى على الساحرات فنوناً، وأزرى بالغانيات مجوناً".⁽¹⁾ وفي ذلك إعلان صريح عن تفوقهم في مجال الأدب والشعر، حتى غدا بلاط ملوك المسلمين في كل من طليطلة وبلنسية ودانية والمرية وغرناطة بعامّة، وفي إشبيلية بخاصة أماكن لاجتماعات أدبية يتخلّق فيها الشعراء والأدباء والفنانون والعلماء والفلاسفة والأطباء، وصاروا يعملون في ظروف مادية ميسرة، حول أمراء حماة للأدب، مستثيرين بالعلم، وجدوا في صحبتهم خير عزاء لمشاغلتهم اليومية في إدارة الحكم؛ وتنافست الممالك في اجتذاب الأدباء وتشجيعهم على إذكاء شعلة الأدب، وكان كل ملك من ملوك الطوائف يتخذ له بطانة من الشعراء والكتاب والفقهاء يسامرونه وينادمونهم ويتبارون في فنون القول⁽²⁾.

استطاعت الطوائف المتناحرة - رغم الفوضى التي سادت أرجاء الأندلس - أن تعيد بهاء الحضارة الأندلسية في قصورها ومنشآتها ومجتمعاتها، وسطعت شمس الأدب والفكر، وعرفت الأندلس في تلك الحقبة أشهر العلماء والمفكرين والأدباء، كما كان بعض ملوك الطوائف أنفسهم من العلماء والأدباء، مثل: العالم عمر بن الأفطس، والمعتمد والمعتضد صاحب إشبيلية، الذي قال عنه ابن بسام: "كان متمسكاً من الأدب بسبب، وضارباً في العلم بسهم، وله شعر كما انشق الكمام عن الزهر، لو صدر مثله عن جعل الشعر صناعة، واتخذ بضاعاً، لكان رائعاً معجباً، ونادراً مستغرباً".⁽³⁾

وقد اهتم بعض الحكام ببناء القصور والمساجد، فبنيت على أرض الأندلس كثير من المباني العريقة التي تسحر الزائرين، مثل: مسجد قرطبة، وقصر الكازار في إشبيلية، والجامع الكبير بالدوارة، وقصر الحمراء في غرناطة.⁽⁴⁾

(1) ابن بسام، الذخيرة، 33/1-34.

(2) ينظر: حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص 315.

(3) ابن بسام، م، ص، 41/3.

(4) ينظر: محمد الداية، في الأدب الأندلسي، ص 42.

وقد حرص كل أمير أندلسي على أن يكون على مستوى يليق من العلم والثقافة الدينية، ما يسمح له الجلوس مع العلماء والفقهاء، إذ يعدّون زينة مجالس الأمراء ومستشاريهم، وكان هؤلاء الأمراء يحترمون العلماء ويجلّونهم، ويقدمونهم على غيرهم. وإذا كان بعض الأمراء لا يحترمون العلماء فإن العلماء كانوا ينتزعون احترامهم لهم انتزاعاً باحترامهم لعلمهم، ومعرفة مكانة أنفسهم من السلطان؛ لذلك أصبح العالم يوجّه إلى الأمير النصيح والزجر.⁽¹⁾

وممن كان يجلس الفقهاء علي بن يوسف بن تاشفين، الذي قال عنه المراكشي: "واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين، وكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء؛ فكان إذا ولى أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ولا يبيت حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء. فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس. ولم يزل الفقهاء على ذلك، وأمور المسلمين راجعة إليهم، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم، طول مدته، فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا. وانصرفت وجوه الناس إليهم، فكثر لذلك أموالهم، واتسعت مكاسبهم، وفي ذلك يقول أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البني: (2)

الكامل

أهل الرياء لبستم ناموسكم	كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فملكتمو الدنيا بمذهب مالك	وقسمتمو الأموال بابن القاسم
وركيتمو شهب الدواب بأشهب	وبأصبغ صبغت لكم في العالم

وقد اهتم الأمراء بالعلم فقد كان محمد بن معن الملقب (المعتصم بالله) أمير بني صمادح يعقد مجالس العلم في قصره، وخصص يوماً من كل أسبوع يجلس فيه مع الفقهاء والخواص يتناظرون أمامه في كتب التفسير والحديث، ولزمه جملة من فحول شعراء الوقت كأبي عبد الله بن الحداد، وأبي الفضل ابن شرف، وابن عبادة، وابن الشهيد.⁽³⁾

وما يهمننا هنا أن الشعر أخذ نصيب الأسد من حيث التشجيع والعناية، فقد كان بلاط بني عباد في إشبيلية مقصداً للشعراء؛ إذ كان المعتضد شاعراً في عصره، وكان ابنه المعتمد أكبر شاعر

(1) ينظر: مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي: موضوعاته وفنونه، ص 97-98.

(2) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 130.

(3) ابن بسام، الذخيرة، 733/2.

في عصره، ومن حولهما تجمع أعظم شعراء العصر، من أمثال: ابن زيدون، وابن عمار، وابن اللبانة، وابن حمديس، هذا بالإضافة إلى جوانب أخرى من تشجيع الأدب، فللمعتضد ألف الأعلام الشنتمري (شرح الأشعار الستة) و(شرح الحماسة)، وباسمه ألف ابن شرف (أبكار الأفكار)، وبعث به إليه دون أن يلتحق ببلاطه.⁽¹⁾

لقد بلغ تشجيعهم للأدب مرحلة جديدة، وفي ذلك يقول المقرئ: "كان في تفرقهم اجتماع على النعم لفضلاء العباد، إذ نفقوا سوق العلوم، وتباروا في المثوبة على المنثور والمنظوم، فما كان أعظم مباهاتهم إلا قول: العالم الفلاني عند الملك الفلاني، والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني، وليس منهم إلا من بذل وسعه في المكارم، ونهت الأمداح من مآثره ما ليس طول الدهر بنائم، وقد سمعت ما كان من الفتيان العامرية مجاهد ومنذر وخيران، وسمعت عن الملوك العربية: بنو عباد وبنو صمادح وبنو الأفطس وبنو ذي النون وبنو هود، كل منهم قد خلد فيه من الأمداح، ما لو مدح به الليل لصار أضوأ من الصباح، ولم تزل الشعراء تتهادى بينهم تهادي النواسم بين الرياض...، حتى إن أحد شعرائهم بلغ به ما رآه من منافستهم في أمداحه أن حلف أن لا يمدح أحداً منهم بقصيدة إلا بمئة دينار، وأن المعتضد بن عباد - على ما اشتهر من سطوته وإفراط هيئته - كلفه أن يمدحه بقصيدة فأبى حتى يعطيه ما شرطه في قسمه."⁽²⁾

وقد انقسم الشعراء في عصر ملوك الطوائف إلى ثلاث طبقات: الأولى: طبقة الشعراء الذين بلغوا مناصب عليا في الدولة، ومنهم ابن زيدون، وابن عمار، وابن عبدون، وكانوا يحصلون على رواتب عالية. إذ كان الشعر الأداة التي تمنح صاحبها حق الوصول إلى المناصب العليا، ويظهر ذلك من خلال سيرة المعتمد بن عباد، الذي قال فيه المراكشي: "وكان لا يستوزر وزيراً إلا أن يكون أديباً شاعراً حسن الأدوات، فاجتمع له من الوزراء الشعراء ما لم يجتمع لأحد قبله."⁽³⁾

والثانية: طبقة الشعراء الذين لزموا بلاط أحد الأمراء، وكانوا يأخذون راتباً شهرياً أو سنوياً أو منحا غير موقوتة بوقت، وإنما هي منح تعطى على القصيدة الواحدة، فالمعتمد بن عباد أعطى عبد المجيد بن وهبون ألف مثقال حين قال:⁽⁴⁾

{البسيط}

(1) ينظر: إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر ملوك الطوائف والمرابطيين)، 75-77.

(2) المقرئ، نفح الطيب، 190/3.

(3) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص28.

(4) المقرئ، م.س، 235/3.

غاضَ الوفاءُ فما تلقاهُ في رجلٍ ولا يمرُّ لمخلوقٍ على بالٍ
 قد صارَ عندهمُ عَنقَاءَ مُغْرَبَةٍ أو مثل ما حَدَّثُوا عن ألفٍ مُثقالٍ

أما الثالثة فهم الشعراء الجوالون: وهم الذين يتجولون على الأمراء من أجل التكسب بالشعر، ومن هؤلاء الجوالين الشاعر أبو عامر بن الأصيلي، الذي قال عنه ابن بسام: "وكان أبو عامر جوابة آفاق، وناظما وناثرا باتفاق، وله شرف، وسابقة سلف"⁽¹⁾، ومنهم الأسعد بن بليطة، الذي قال عنه ابن بسام: "تردد على ملوك الطوائف بالأندلس"⁽²⁾، ومنهم الجلماني، الذي قال عنه ابن بسام: "وكان شاعراً متجولاً على الأقطار مستجدياً بالأشعار"⁽³⁾، وقد يتجول بعضهم من دون أن يتكسب بشعره، ومنهم عمر بن أحمد بن عطيون التجيني الطليطي، الذي: "لم يشرح قط بحب الشعر صدراً، ولا أبلى في طلبه عذراً، وإنما قاله متحبيلاً لا متكسباً، وألم به متمرناً لا متزيئاً"⁽⁴⁾، وقد يتحول الجوال إلى شاعر مستقر ملحق ببلاط أمير من الأمراء، كما حصل مع ابن شرف القيرواني، الذي طاف على ملوك الأندلس، ثم استقر عند المأمون بن ذي النون.⁽⁵⁾

ب- عصر المرابطين:

أنشأ المرابطون الدواوين، ما سهّل على الأمير يوسف بن تاشفين بناء الدولة، حيث وجد من الفقهاء والكتاب والأدباء والشعراء والفلاسفة من يستخدمهم في إنشاء الدواوين من أولئك الذين خدموا في دويلات ملوك الطوائف؛ فحينما انهارت دويلات ملوك الطوائف تحولت غالبية العلماء إلى دولة المرابطين تعرض عليهم خدماتها؛ إذ كان الأمراء بحاجة إلى طائفة متقنة تفهم لغة الوفود، وتجيد فن القول، وكان كتاب الأندلس يعرفون لغات النصارى، ويستطيعون أن يتفاهموا معهم، وأن يترجموا عنهم⁽⁶⁾.

وفي عهد ابن تاشفين صار الفقهاء هم أصحاب الكلمة النافذة في تصريف شؤون الدولة، فقد كان ما اتصف به ملوك الدولة من تقوى وورع وإقبال على التفقه في الدين سبباً في تقريب الفقهاء والعلماء.⁽⁷⁾ وما جعل المرابطين يعتمدون على الفقهاء هو توسعهم في تطبيق مبدأ الشورى وجعله

(1) ابن بسام، الذخيرة، 857/6.

(2) ابن بسام، م.ن، 791/2.

(3) ابن سعيد، المغرب، 378/1.

(4) ابن بسام، م.س، 774/6.

(5) ينظر: إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر ملوك الطوائف والمرابطين)، ص 82-87.

(6) ينظر: حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص 315.

(7) ينظر: حسن محمود، م.ن، ص 315.

أساساً لحكمهم في المغرب والأندلس، وقد بلغ الفقهاء مستوى من التقدير والاحترام إلى درجة أن لجأ أصحاب الحاجات إليهم للشفاعة عند ذوي النفوذ في الدولة، وقضاء حوائجهم؛ لما لهم من نفوذ بين جماعات كبار رجال الدولة. وبلغ من اهتمام ابن تاشفين بالفقهاء والعلماء أن خصَّص لهم أعطيات تُصرف من بيت المال، وكان علي بن يوسف أكثر من أبيه انصرافاً إلى مخالطة الفقهاء ومجالستهم، فقد كان أميراً ورعاً متبحراً في الدين، فاتَّخذ لنفسه لقب (ولي الدين)، ونقشه على السكة، وأصبح الفقهاء في عهده أصحاب الكلمة الأولى في البلاد.⁽¹⁾

وقد حفل عصر المرابطين بالعلم والثقافة، وفاض بالعلماء الثقات الدارسين لفروع الثقافة العربية الإسلامية، التي قدّمت للدولة المرابطية المعونة والمؤازرة، حتى صار علماء المغرب والأندلس في مستوى علماء المشرق العربي، وقدموا من العلوم والآداب والفنون الشيء الكثير.⁽²⁾

نشأ بين المغرب والأندلس علاقات أدبية، وبخاصة في شعر الموشحات والأزجال، ومن هؤلاء الشعراء: الحصري القيرواني الذي هاجر إلى الأندلس عام 450هـ، فوصف شجاعة المرابطين في الحرب؛ فقال:⁽³⁾

{الطويل}

بنو الحَرْبِ غَذَّتْهُمْ لَبَانٌ ثَدِيهَا	وَمَا اسْتَعَذَبُوا مِنْهُمْ إِلَّا الْعَلَقِمَا
يَحْتَوُونَ لِلْهَيْجَاءِ جُرْداً مَلَاهِيَا	وَيَنْضُونَ فِي الْبَيْدَاءِ بُزْلاً صَلَادِمَا ⁽⁴⁾
إِذَا طَعَنُوا بِالسَّمْهَرِيَّةِ خَلَّتْهُمْ	ضَرَاغِمٌ تَقْرِي بِالْقُلُوبِ أَرَاقِمَا ⁽⁵⁾
وَإِنْ كَرَّ مِنْهُمْ ذُو لِثَامٍ مُصَمَّمٌ	غَدَا لِفِمِّ الْهَيْجَاءِ بِالسَّيْفِ لَاقِمَا

وكان كثير من شعراء الموشحات يهدون موشحاتهم إلى الأمراء المرابطين، مثل: ابن باجة الذي مدح أبا بكر بن تينفلويت والي سرقسطة.⁽⁶⁾

(1) ينظر: محمود السيد، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص 97-112.

(2) ينظر: محمود السيد، م.ن، ص 116.

(3) المقري، نفح الطيب، 205/3

(4) جردا: الفرس الأنثى الجرداء إذا رُقَّ شعرها وقصر، وهي صفة تمدح عليها؛ بزلا: البعير إذا طلع نابه عندما يصل سن الثامنة؛ ابن منظور، لسان العرب، مادتا: جرد، بزل.

(5) السمهريّة: رماح صلبة منسوبة إلى سمهر، ابن منظور، م.ن، مادة سمهر.

(6) ينظر: محمود السيد، م.س، ص 117.

لكنّ منزلة الشاعر في هذا العصر لم تصل إلى منزلته في عصر ملوك الطوائف؛ لأنّ الشاعر لم يعد بمقدوره منافسة رجل السيف والفقيه والكاتب، وقد أرجع إحسان عباس ذلك إلى ثلاثة عوامل، هي: الاضطراب السياسي في عصر ملوك الطوائف نفسه، والالتفات إلى الجهاد في عصر يوسف ابن تاشفين، واعتباره الغاية الأولى في الدولة، واصطباغ دولة المرابطين بالصبغة الدينية، فكان ابن تاشفين متديناً، متمسكاً بمذهب مالك، ويفضله على غيره من المذاهب؛ ما جعله يجالس الفقهاء المالكيين، ويبتعد عن الشعر والشعراء، فضعفت الرابطة بين الممدوح الذي لا يحسن تذوق الشعر البليغ، ولا يجيد اللغة العربية، ولا يتذوقها، فكان من الطبيعي ألاّ يقدر الشعراء، وألاّ يثيبهم؛ فخبأ نجم عدد من الشعراء⁽¹⁾. يقول ابن بسام في ترجمة ابن حاتم الحجّاري: "لما انقرضت أيام ملوك الطوائف في الجزيرة، وتسلط الكساد على أعلاق الشعر الخطيرة، خلع أبو حاتم بردته... يأخذ الصحة من المرض، ويتكلم على الجوهر والغرض."⁽²⁾

ويقول أيضاً: "فلما صمت ذكر ملوك الطوائف بالأندلس، طوى الشعر على غره، وبرئ من حلوه ومره، إلاّ نفثة مصدور، أو النفثة مذعور."⁽³⁾

وما يخلصنا في هذا البحث أنّ مكانة الفقهاء قد ارتفعت في أيام دولة المرابطين، فكثرت أموالهم، وعلا شأنهم، وعظم سلطانهم، والتف الناس حولهم متزلفين متقربين، وقصدهم أصحاب الحاجات يلتمسون الوساطة والشفاعة، وحسدهم كثيرون بسبب هذا الجاه العريض، وهذه الأموال التي حازوها، يتبين ذلك من قول الشاعر أبي جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البني، وهو من مدينة جيان في الأندلس:⁽⁴⁾

أهل الرِّياء لبستمو ناموسكم	كالذئب أولج في الزمان العاتم
فملكتم الدنيا بمذهب مالك	وقبضتم الأموال بابن القاسم
وركبتم شهب الدواب بأشهب	وبأصبغ صُبغت لكم في العالم

(1) ينظر: إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر ملوك الطوائف والمرابطين)، ص 91.

(2) ابن بسام، الذخيرة، 6/653.

(3) ابن بسام، م، ن، 4/669.

(4) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 23.

فأقبل الشعراء على ذمّ الفقهاء، واتهامهم بالرياء؛ لأنهم أصبحوا يجرون إليهم الدنيا،
متسترين وراء المظهر الديني⁽¹⁾، ومن شعر ابن خفاجة في نقد الفقهاء:⁽²⁾ {الكامل}

دَرَسُوا الْعُلُومَ لِيَمْلِكُوا بَجْدَالِهِمْ فِيهَا صُدُورَ مَرَاتِبٍ وَمَجَالِسِ
وَتَرَهَّدُوا حَتَّى أَصَابُوا فُرْصَةً فِي أَخْذِ مَالِ مَسَاجِدٍ وَكَنَائِسِ

شعر الفقهاء في عصري ملوك الطوائف والمرابطين:

بعد أن قررت الكتابة في موضوع شعر الفقهاء رحلت أفتش عن الفقهاء، وعمن نظم الشعر منهم، وتوجهت إلى المكتبات، وبدأت أتصفح أمانات المصادر في الأدب الأندلسي، مثل الذخيرة، والإحاطة، والمغرب، والمطرب، ونفح الطيب، والخريدة، فوجدت العبارات الآتية التي من خلالها حدّدت إن كان الشاعر فقيهاً أم لا: كان فقيهاً، وفارس الفقه، وانتفع به الفقهاء وتفقهوا عليه، ومن كبار الفقهاء، وأحد فقهاء عصره، وذاكراً للفقه والحديث، وقال الفقيه، وفقهه مدرس، وفقهه عالم بالتفسير والفقه، وفقهه محدث، وفقهه الزاهد، وعالمًا بعلوم الحديث وفقهه؛ بل إن الذخيرة كان يذكر قبل الترجمة كلمة (الفقيه)، ومثله الخريدة.

جمعت أشعاراً لثلاثة وعشرين شاعراً، ستة منهم عاشوا في عصر ملوك الطوائف، وهم على الترتيب حسب تاريخ الوفاة: ابن حزم الظاهري (ت456هـ)، وابن موهب القبري (ت456هـ)، أبو إسحاق الإلبيري (ت459هـ)، وأبو حفص الهوزني (ت460هـ)، وابن غانم الأشوني (ت470هـ)، وابن العسال (ت487هـ)، وأبو الوليد الوقشي (ت489هـ).

وسبعة عشر شاعراً عاشوا في عصر المرابطين، وهم على الترتيب حسب تاريخ الوفاة: أبو بكر بن الملح (ت500هـ)، وأبو الحسين بن سراج (ت508هـ)، وأبو عبد الله بن حمدين (ت508هـ)، وأبو القاسم بن الجد (ت515هـ)، وأبو أمية إبراهيم بن عصام (ت516هـ)، وأبو بكر بن عطية المحاربي (ت518هـ)، وأبو محمد المعافري (ت518هـ)، وأبو بكر الطرطوشي (ت520هـ)، وأبو أيوب بن أبي أمية (ت522هـ)، وأبو العلاء بن زهر (ت525هـ)، وأبو عبد

(1) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر ملوك الطوائف والمرابطين)، ص143.

(2) ابن خفاجة، الديوان، ص183.

الله جعفر بن مكي (ت535هـ)، وعبد الله بن أبي الخصال (ت540هـ)، وأبو محمد بن عطية المحاربي (ت541هـ)، وأبو بكر بن العربي (ت543هـ)، والقاضي عياض (ت544هـ)، وأبو الحسن بن لبّال (ت583هـ).

وقد تراوحو في غزارة أشعارهم، فمنهم من كان أكثرًا مثل: ابن حزم، والإلبيري، وابن العربي، ومنهم من وجدت له عدة قصائد، مثل: أبي الحسين بن سراج، وأبي بكر بن عطية المحاربي، وأبي بكر الطرطوشي، وأبي محمد بن عطية المحاربي، وأبي الحسن بن لبّال، ومنهم من كان مقلًا لم أجد له إلا مقطوعات ومنتف شعرية، مثل: ابن الجدي، وابن الملح، وأبي أيوب بن أبي أمية، وأبي أمية إبراهيم بن عصام، ولم أجد دواوين شعرية إلا لابن حزم والإلبيري، كما ألف ابن حزم أيضًا طوق الحمامة في الألفة والألاف، وهو عبارة عن رسالة فيها ثلاثون بابًا حول ماهية الحب، وجمع رسائله إحسان عباس في كتاب سماه رسائل ابن حزم.

وقد جمعت (3020) بيتًا شعريًا، تنوعت على مختلف أغراض الشعر، كالحكمة والزهد، والمدح، والغزل والوصف، والثناء، والهجاء، والفخر، وموضوعات أخرى كالاستجداء، والاعتذار والتهنئة وغيرها، وسأتناولها في الفصل الأول من الدراسة، أما في الفصل الثاني فسأتناولها من حيث الدراسة الفنية.

الفصل الأول

شعر الفقهاء دراسة موضوعية

- المبحث الأول: الحكمة والزهد
- المبحث الثاني: المدح
- المبحث الثالث: الهجاء
- المبحث الرابع: الفخر
- المبحث الخامس: الرثاء
- المبحث السادس: الوصف
- المبحث السابع: الغزل
- المبحث الثامن: موضوعات أخرى

شهد الشعر في عصر الطوائف تطوراً واسعاً من مختلف النواحي، حتى إنه يمكننا القول: إن الشعر الأندلسي قد اكتمل أو كاد، وبلغ مرحلة جديدة من التطور، فقد اتسع الإطار المكاني لهذا الشعر، وبعد أن كانت قرطبة بلاط الشعراء تكاثرت المجالس الشعرية، وكثر الأمراء الممدوحون وحماة الشعر ورعاته، وتعدد الوزراء الكتاب الشعراء، وأصبحت المنافسة بين الشعراء أشد وأقوى.⁽¹⁾

وقد ظهر فقهاء شعراء كثر، قالوا الشعر في أغراض الشعر التقليدية التي طرقها غيرهم من الشعراء غير الفقهاء من: مديح، وهجاء، ورناء، وفخر، وغزل، وغيرها، كما قالوا الشعر في أغراض جديدة، وتوسعوا في أغراض ثانية، وتميزوا في أغراض ثالثة عن غيرهم من الشعراء، فقالوا شعراً فلسفياً تناولوا فيه الروح وعالمها، والوجود والموت، والأخلاق والآداب، وتوسعوا في الشعر الذي نظم قصص بعض الأنبياء؛ ما جعل شعرهم هذا أقرب إلى السيرة منه إلى أي غرض شعري معروف، كما قالوا شعرهم في أغراض أخرى، مثل: الألغاز، والنكت، والحياة السياسية والعلمية، وجاء معظم ما قالوه فيها في أبيات مفردة، أو نتف.⁽²⁾

وقد رتبت هذه الأغراض في الدراسة الموضوعية وفق كثرة ما وجدته فيها، فبدأت بدراسة الغرض الأكثر، فالأقل، وهكذا.

(1) ينظر: إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، ص 107.

(2) ينظر: عبد الله كنون، أدب الفقهاء، ص 15 .

المبحث الأول: الحكمة والزهد:

أولاً: الحكمة:

قال الشعراء الفقهاء في عصري ملوك الطوائف والمرابطين في غرض الحكمة، وتنوعت محاور قولهم فيه، ومنها: الإيمان والعقيدة، والتأمل في النفس والحياة، وتقلب الزمان وتغير الأحوال، والدعوة إلى العبادة، والدعوة إلى التوبة، وطلب المغفرة، والتذكير بالموت، ووصفه، وعذاب القبر، والزهد في الحياة الدنيا، وطلب المعالي، وحكم عامة بأمور مختلفة.

وقد تناولت كل محور من محاور الحكمة على حدة:

1 شعر الإيمان والعقيدة:

أبرز الفقيه أبو حفص الهوزني⁽¹⁾ كثيراً من عناصر الإيمان بالله، والعقيدة الإسلامية، وعلل كثيراً من الحوادث الدنيوية استناداً إلى تلك العناصر، فقد قال: (2)

تَبَارَكَ مَنْ تَفَرَّدَ بِالْبَقَاءِ	وَأَسْأَلَكَ خَلْقَهُ سُبُلَ الْفَنَاءِ
وَشَتَّتْ شَمْلَهُمْ بَعْدَ انْتِظَامٍ	وَكَدَّرَ وَرْدَهُمْ إِثْرَ الصَّفَاءِ
وَلَمْ يُجْرِ الْأُمُورَ عَلَى قِيَاسٍ	فَلَيْسَتْ دَارُنَا دَارَ الْجَزَاءِ
فَتُبْصِرُ مُحَسَّنًا يُجْزَى بِقُبْحٍ	وَذَا ضَاعَةٍ يُقَادُ إِلَى السَّنَاءِ
وَمَنْ يَجْهَدُ لِدُنْيَاهُ حَرِيصًا	فَلَيْسَ بِحَائِزٍ غَيْرَ الْعَنَاءِ
وَمَنْ يَثِقُ الزَّمَانَ يَجِدُهُ خَبًّا	وَيَصْرَعُهُ عَلَى حَيْنِ الرَّجَاءِ
إِذَا كَانَ الدَّوَاءُ بِهِ اعْتَلَالِي	فَأَيُّ الْخَلْقِ أَرْجُو لِلشِّفَاءِ

(1) عمر بن الحسن بن عبد الرحمن بن عمر بن عبد الله، أبو حفص، (392-460هـ)، شاعر أندلسي، من رجال السياسة، عالم بالحديث، عندما حج روى كتاب الترمذي، وعنه أخذ أهل المغرب، من أهل إشبيلية، وكان زعيمها قبل رئاسة المعتضد، عاصر سقوط بربرشت، وقال فيها شعراً حُرِّضَ فيه المعتضد على الجهاد، قُتِلَ المعتضد سنة 460هـ، ودفنه داخل القصر بتيابه وقلنسوته من غير غسل ولا صلاة. ترجمته في ابن بسام، الذخيرة، 81/3-94؛ ابن سعيد، المغرب، 239/1؛ المقرئ، نفح الطيب، 93/2-94؛ الزركلي، الأعلام، 44/5.

(2) ابن بسام، م، 93/3.

فهو يشير إلى أن الله، تبارك وتعالى، قد تفرّد وحده بالبقاء، بينما قدّر لغيره الفناء، وشتّت شملهم بعد انتظامهم في أسر، وعكّر صفاءهم بالموت، ولم يُجرِ أمور الحياة على قياس واحد، فلا تنتظم انتظام الساعة؛ لأنها ليست دار الجزاء، بل هي الحياة الدنيا، فتريّ مُحسناً يجازي بقبح، ومسيئاً يرتفع إلى العلياء، فهو يشير إلى عدم الانتظام في الحياة.

2 - التأمل في النفس والكون:

أبرز عدد من الفقهاء في شعرهم كثيراً من عناصر التأمل في النفس، حيث إن الإنسان إذا تأمل في نفسه فإنه يشكر ربه على النعم الكثيرة التي خصه بها، ويعتبر من إتقان صنعه، قال الإلبيري⁽¹⁾:⁽²⁾

أَنْتَ الْمُخَاطَبُ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ	فَأَصِيحُ إِلَيَّ يَلْحَ لَكَ الْبُرْهَانُ
أُودِعْتَ مَا لَوْ قُلْتُهُ لَكَ قُلْتَ لِي	هَذَا لَعَمْرُكَ كُلُّهُ هَذِيانُ
فَانْظُرْ بِعَقْلِكَ مِنْ بَنَانِكَ وَاعْتَبِرْ	إِتْقَانَ صَنَعَتِهِ فَتَمَّ الشَّانُ

الإلبيري يدعو الإنسان إلى التأمل في نفسه، ففيه ما يدعو إلى التفكر، ويدعوه إلى أن يعتبر بإتقان صنعه.

ويدعو ابن حزم الأندلسي⁽³⁾ الإنسان إلى تدبّر الكون، وما فيه من سماء، وأرض، وصحار، ويتساءل: من أمسك الأجرام في السماء بلا عمد، وخلق النباتات الملونة الجميلة، وفجر العيون بالمياه، وحفر الأنهار، وخلق الشمس، وخلق الأفلاك، وشق لموسى البحر، ونجّى الخليل من النار،

(1) إبراهيم بن مسعود بن سعيد التجيبي الإلبيري، أبو إسحاق، (ت460هـ)، شاعر فقيه، أصله من حصن العقاب، اشتهر بغرناطة، وأنكر على ملكها استوزاره ابن نغرلة اليهودي، فنفى إلى البيرة، له ديوان شعر مطبوع بتحقيق محمد رضوان الداية، وشعره كله حكم ومواعظ. ترجمته في ابن سعيد، المغرب، 132/2؛ المقرئ، نفح الطيب، 491/3، 317/4؛ الزركلي، الأعلام، 74/1.

(2) الإلبيري، الديوان، 61 .

(3) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، أبو محمد، (384-456هـ)، عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام، كان فقيهاً حافظاً يستنبط الأحكام من الكتاب والسنة، روي عن ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو 400 مجلد، تشمل على ما يقارب ثمانين ألف ورقة، من أشهر مصنفاته: الفصل في الملل والأهواء والنحل، والمحلّى، وجمهرة الأنساب، وديوان شعر، ورسائل ابن حزم، وطوق الحمامة. ترجمته في ابن بسام، الذخيرة، 167/1؛ الضبي، بغية الملتبس، 415/1؛ الزركلي، م، س، 254/4.

ونجى نوحاً من الطوفان، ومكن داود بقوة، وفضل أمة محمد بالقرآن، إشارة إلى معجزة شق الصخرة، فهو يدعو الإنسان إلى التأمل في خلق الكون ومعجزات الرسل طريقاً للإيمان، فقال: (1)

{الطويل}

تدبر من الباني على الأرض سقفا
ومن يمسك الأجرام والأرض أمره
ومن قدر التدبير فيها بحكمة
ومن صير الألوان في نور نبتها
فمنهن مخضر يروق بصيصه
ومن حفر الأنهار دون تكلف
ومن رتب الشمس المنير ابيضاضها
ومن خلق الأفلاك فامتد جريها
- وشق لموسى البحر دون تكلف
وسلم من نار الأنو⁽²⁾ خليله
ونجى من الطوفان نوحاً وقد هدت
ومكن داوداً بأيدي وإبنه
- وفضل بالقرآن أمة أحمد
وشق له بدر السماء وخصه

وفي علمها معمورها وقفارها
بلا عمد يبنى عليه قرارها
فصح لديها ليها ونهارها
فأشرق فيها وردها وبهارها
ومنهن ما يغشى اللحاظ احمرارها
فثار من الصم الصلاب انفجارها
غدواً ويبدو بالعشي اصفرارها
وأحكمها حتى استقام مدارها
وبان من الأمواج فيه انحسارها
فلم يؤذ إحراقها واحتزارها
به أمة أبدى الفسوق شرارها
فتعشيرها ملقى له وبزارها
ومكن في أقصى البلاد مغارها
بآيات حق لا يحل مغارها⁽³⁾

3 - تقلب الزمان:

يشير الإليبري إلى أن دوام الحال من المحال، فالغنى سيتحول إلى فقر، لذلك يدعو الإنسان إلى عدم الثقة بالغنى، والاكتفاء بالكفاف، قال: (4)

{المنسرح}

فَلا تَتَّقُ بِالْغِنَى فَافْتُهِ الـ
فَقَرٌ وَصَرَفُ الزَّمانِ ذُو دُولِ

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 305.

(2) الأنو: النار عندما تبلغ غاية الحرارة، ابن منظور، لسان العرب، مادة أنو .

(3) مغار: مطلب، ابن منظور، م،ن، مادة غور.

(4) الإليبري الديوان، ص 118 .

كَفَى بَنِيْلِ الْكَفَافِ مِنْهُ غَنَى عَنْهُ فَكُنْ فِيهِ غَيْرَ مُحْتَفَلِ

ويوجه الإلبيري خطابه لمن يُعَمِّر الدنيا ليسكنها، فيقول له: إن الدنيا لا يبقى بها سكان، وإنك ستفنى، وتبقى الأرض بعدك، كما يبقى مناخ الإبل بعد رحيلها، ثم يدعوهُ إلى عدم الاغترار بالدنيا، قال: (1)

يَا عَامِرَ الدُّنْيَا لَيْسَ كُنْهَا وَمَا هِيَ بِأَلَّتِي يَبْقَى بِهَا سُكَّانُ
تَفْنَى وَتَبْقَى الْأَرْضُ بَعْدَكَ مِثْلَمَا يَبْقَى الْمُنَاخُ وَتَرْحَلُ الرُّكْبَانُ
أَوْسَرُ فِي الدُّنْيَا بِكُلِّ زِيَادَةٍ وَزِيَادَتِي فِيهَا هِيَ النُّقْصَانُ

وقد رأى ابن حزم أن فعل الزمان بأهله مثل فعل النار في الحطب، وكم من طالب شيئاً حرمه الموت منه، قال: (2)

فَقَدْ رَأَيْنَا فِعْلَ الزَّمَانِ بِأَهْلِهِ لِيهِ كَفَعَلَ الشُّوَاطِظُ فِي حَطْبِهِ
وَطَالِبٍ بِاجْتِهَادِهِ زَهْرَةَ الدِّ دُنْيَا عَدَاهُ الْمَنُونُ عَنْ طَلْبِهِ

ويعود ابن حزم ليشير إلى أن الدهر تبقى فجائعه وتفنى لذاته، وأن ساعة السرور تمر سريعة، وتُخَلَّف وراءها حزناً، فنحن إلى ما ولى، ونشغل أنفسنا بما أتى، ونغتم بما نرجوه، فيصبح ما سرنا لفظاً بلا معنى، قال: (3)

هَلِ الدَّهْرُ إِلَّا مَا عَرَفْنَا وَأَدْرَكْنَا فَجَائِعُهُ تَبْقَى وَلَذَاتُهُ تَفْنَى
إِذَا أُمْكَنْتَ فِيهِ مَسْرَّةً سَاعَةً تَوَلَّتْ كَمَرُ الطَّرْفِ وَاسْتَخْلَفَتْ حُزْنًا
حَصَلْنَا عَلَى هَمٍّ وَإِثْمٍ وَحَسْرَةٍ وَقَاتَ الَّذِي كُنَّا نَلْذُبُهُ عَنَّا
حَنِينٌ لِمَا وَلَّى وَشُغْلٌ بِمَا أَتَى وَغَمٌّ لِمَا يُرْجَى فَعِيشُكَ لَا يَهْنَا
كَأَنَّ الَّذِي كُنَّا نَسْرُ بِكَوْنِهِ إِذَا حَقَّقَتْهُ النَّفْسُ لَفْظٌ بِلَا مَعْنَى

(1) الإلبيري، الديوان، ص 119 .

(2) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 302.

(3) الحميدي، جذوة المقتبس، 491/2؛ ابن بشكوال، الصلة، 606/2؛ ابن الجوزي، المدهش، 167/1؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 1653/4؛ عبد الواحد المراكشي، المعجب، 44؛ ابن الخطيب، الإحاطة، 89/4 .

ويأتي الفقيه ابن لبال⁽¹⁾ على الزمان وتقلب أيامه، فعندما تقوَّس ظهره، وابيضَّ شعره، صار يمشي مثل نصف دائرة تمشي على الأرض، ، قال: (2) {البسيط}

لَمَّا تَقَوَّسَ مِنِّي الْجِسْمُ عَنْ كِبَرٍ فَاَبْيَضَّ مَا كَانَ مُسْوَدًّا مِنَ الشَّعْرِ
جَعَلْتُ أَمْشِي كَأَنِّي نَصْفُ دَائِرَةٍ تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ أَوْ قَوْسٌ بَلَا وَتَرٍ

ثم أشار إلى أن المشيب قد قوس ظهره، وعندما يحمل العصا يصبح مثل قوس بلا وتر، قال: {المنسرح}

قَوْسٌ ظَهَرِي الْمَشِيبُ وَالْكِبَرُ وَالذَّهْرُ يَا عَمْرُو كُلُّهُ عَيْرُ
كَأَنَّني وَالْعَصَا تَدْبُ مَعِي قَوْسٌ لَهَا وَهِيَ فِي يَدِي وَتَرُ

4 - العبادة

دعا الإلبيري الإنسان المغترّ بالله أن يفر من الله إلى الله، وأن يلجأ إليه ويسأله من فضله، فمَن اعتصم بالله نجا، ثم يدعو إلى قيام الليل، وتلاوة القرآن، والسجود لله، فإنَّ الوجه الذي يذلَّ الله سيعزّه الله، وليس هناك نعيم مثل مناجاة قانت مخلص لله، قال: (3) {السريع}

يَا أَيُّهَا الْمُغْتَرُّ بِاللَّهِ فَرَّ مِنَ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ
وَلَذِّبِهِ وَاسْأَلْهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ نَجَا مَنْ لَازَ بِاللَّهِ
وَقُمْ لَهُ وَاللَّيْلُ فِي جُنْحِهِ فَحَبِّذَا مَنْ قَامَ لِلَّهِ
وَاتْلُ مِنَ الْوَحْيِ وَلَوْ آيَةً تُكْسِي بِهَا نُورًا مِنَ اللَّهِ
وَعَفِّرِ الْوَجْهَ لَهُ سَاجِدًا فَعَزَّ وَجْهٌ ذَلَّ لِلَّهِ

(1) علي بن أحمد بن علي بن فتح، أبو الحسن ابن لبال، (508 - 583 هـ) من بني أمية: قاض، قال عنه ابن دحية: وأنشدني الفقيه الأجل العالم الحسيب أبو الحسن علي بن أحمد بن علي ابن فتح، وهو لبال بن أمية بن إسحاق القرشي الأموي، بمنزله بمدينة شريش شذونة، وهو عين ذلك المصر، وفارسه في الفقه والنظم والنثر؛ ولي القضاء به فحمدت في ذات الله مآثره وآثاره، وسارت في العدل أخباره. ترجمته في ابن دحية، المطرب، 26/1؛ ابن سعيد، المغرب، 303/1؛ الأعلام، 256/4.

(2) ابن الأبار، تحفة القادِم، 100/1.

(3) الإلبيري، الديوان، ص 65 .

فَمَا نَعِيْمٌ كَمُنَاجَاتِهِ لِقَانِتٍ يُخْلِصُ لِّلْهِ

وقد دعا أبو بكر الطرطوشي⁽¹⁾ إلى العمل للآخرة، وأن يذخر هذا الزاد للحياة الآخرة، بينما قد رحل غيره دون زاد، قال: ⁽²⁾

{المحدث}

فاعملْ لمعادِكَ يَا رَجُلُ فالقومُ لِذُنْيَاهُمْ عَمِلُوا
واذخرْ لمسيرِكَ مِنْ زَادٍ فالقومُ بِلا زادٍ رَحَلُوا

التوبة:

يشير الإلبيري إلى كثرة خطاياها وذنوبه، فهي مثل نجوم السماء في كثرتها، وقد طمست عقله، وأبعدته عن الهداية، وأعمت عينه عن الصواب، ثم يوكل أمره الله بهذا الأمر، الذي أظلمت حياته به، قال: ⁽³⁾

{السريع}

أَيُّ خَطِيئَاتِي أَبْكِي دَمًا وَهِيَ كَثِيرٌ كَنُجُومِ السَّمَاءِ
قَدْ طَمَسَتْ عَقْلِي فَمَا أَهْتَدِي وَأُورِثْتُ عَيْنَ فُؤَادِي الْعَمَى
إِنَّا إِلَى اللَّهِ لَقَدْ حَلَّ بِي خَطْبٌ غَدَا صُبْحِي بِهِ مُظْلِمًا

كما يُظهر الإلبيري ضعفه، ويعتذر عن ذنوبه التي لا يُبرئ نفسه منها، ثم يخاطب ربَّ العزة بقوله: إن تعاقب فأنت أهل للعقاب، وإن تغفر فإنني آمل وأنتظر عفوك، لأنه إذا لم يعفُ العظيم فمن يعفو إذن؟ قال: ⁽⁴⁾

{البسيط}

لَا قُوَّةَ لِي يَا رَبِّي فَأَنْتَصِرُ وَلَا بَرَاءَةَ مِنْ ذَنْبِي فَأَعْتَذِرُ
فَإِنْ تَعَاقَبَ فَأَهْلٌ لِلْعِقَابِ وَإِنْ تَغْفِرَ فَعَفْوُكَ مَأْمُولٌ وَمُنْتَظَرُ

(1) محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري الطرطوشي، (451 - 520 هـ)، من أهل طرطوشة بشارقي الأندلس، يكنى: أبا بكر، ويعرف: بابن أبي رندقة. أديب، من فقهاء المالكية، الحفاظ. تفقه ببلاده، ورحل إلى المشرق سنة 476هـ، فحج وزار العراق ومصر وفلسطين ولبنان، وأقام مدة في الشام. وسكن الإسكندرية، فتولى التدريس. من كتبه (سراج الملوك) (والتعليقة)، (بر الوالدين) و(الفتن) و(الحوادث والبدع) و(مختصر تفسير الثعلبي) و(المجالس). وتوفي الإمام الزاهد أبو بكر بالإسكندرية في شهر شعبان سنة عشرين وخمسمئة. ترجمته في ابن بشكوال، الصلاة، 545/1؛ ابن سعيد، المغرب، 424/2؛ الصفي، الوافي بالوفيات، 5/115؛ الزركلي، الأعلام، 7/133.

(2) المقرئ، نفح الطيب، 90/2.

(3) الإلبيري، الديوان، ص 71.

(4) الإلبيري، م. ن، ص 117.

إِنَّ الْعَظِيمَ إِذَا لَمْ يَعْفُ مُقْتَدِرًا عَنِ الْعَظِيمِ فَمَنْ يَعْفُو وَيَقْتَدِرُ

ثم يبين الإلبيري عواقب المعاصي والذنوب، حيث إنها لا تدخل منزلاً حتى تدمره على
بكرة أبيه، ولو أنه دأى معاصيه بالتقوى لشفيت، وقد دعا الله، سبحانه وتعالى، ليجيره، ويطلب من
الله ألا يرده خائباً، قال: (1)

إِنَّ الْمَعَاصِيَ لَا تُقِيمُ بِمَنْزِلٍ إِلَّا لِتَجْعَلَ مِنْهُ قَاعاً صَفْصَفاً
وَلَوْ أَنَّني دَاوَيْتُ مَعْطَبَ دَائِهَا بِمَرَاهِمِ التَّقْوَى لَوَافَقَتِ الشِّفا
إِنِّي دَعَوْتُكَ مُلْحِفاً لِتُجِيرَنِي مِمَّا أَخَافُ فَلَا تَرُدُّ الْمُلْحِفاً

ثم يشير الإلبيري إلى مَنْ لا يسعى لتخليص نفسه من الذنوب، فإنه يعمل ضدها لا لها،
ويختم بأن الذنوب تُحى بالتوبة، مثلما يمحو سجود السهو غفلة من سها في صلاته، قال: (2)

مَنْ لَيْسَ يَسْعَى فِي الْخَالَصِ لِنَفْسِهِ كَانَتْ سَعَايُتُهُ عَلَيْهَا لَا لَهَا
إِنَّ الذُّنُوبَ بِتُوبَةٍ تُحْيَى كَمَا يَمْحُو سُجُودُ السَّهْوِ غَفْلَةً مِّنْ سَهَا

فالشاعر هنا يستخدم المنطق بوضوح، فهو يفترض فرضية، ثم يأتي عليها بدليل شرعي
من السنة المطهرة.

وقد طلب ابن حزم من الإنسان المغرور أن يبادر ويعود إلى الله، فعند الله دار لا تخمد
نارها (نار جهنم)، قال له: لا تختار الحياة الفانية وتترك الحياة الباقية، كيف تسلك سبلاً عوجاء،
وتترك الطرق المستقيمة، وتفني الليالي في المسرات واقتراف الذنوب؟ ثم يطلب منه أن يعجل إلى
رضوان الله، وأن يجتنب نواهيه، قال: (3)

فِيَا أَيُّهَا الْمَغْرُورُ بَادِرْ بِرَجْعَةٍ فَلِلَّهِ دَارٌ لَيْسَ تُخْمَدُ نَارُهَا
وَلَا تَتَخَيَّرُ فَانِيَاً دُونَ خَالِدٍ دَلِيلٌ عَلَى مُحَضِّ الْعُقُولِ اخْتِيَارُهَا

(1) الإلبيري، الديوان، ص 45 .

(2) الإلبيري، م.ن، ص 49 .

(3) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 303.

أَتَعْلَمُ أَنَّ الْحَقَّ فِيمَا تَرَكْتَهُ
وَتَتْرَكَ بِيضَاءَ الْمَنَاهِجِ ضِلَّةً
تُسَرِّرَ بِلَهْوٍ مُعَقَّبٍ بِنَدَامَةٍ
وَتَفْنِي اللَّيَالِي بِالْمَسَرَّاتِ كُلِّهَا
فَعَجَّلْ إِلَى رِضْوَانِ رَبِّكَ وَاجْتَنِبْ
وَتَسْلُكَ سُبُلًا لَيْسَ يَخْفَى عَوَارُهَا
لِبَهْمَاءَ يُوْذِي الرَّجُلَ فِيهَا عَتَارُهَا⁽¹⁾
إِذَا مَا انْقَضَى لَا يَنْقُضِي مَسْتَنَارُهَا
وَتَبْقَى تَبَاعَاتُ الذُّنُوبِ وَعَارُهَا
نَوَاهِيهِ إِذْ قَدْ تَجَلَّى مَنَارُهَا

وقال الإلبيري مبتهلاً إلى مولاه: إنه قد أتاه راجياً منه أن يُفَرِّجَ عنه سوء حاله، ثم يقرّ ويعترف أنه قد عصاه عن جهل منه، لكنه لم يكن بخاطره عيب الذنب، ثم يستقهم والغرض منه التقرير: إلى مَنْ يشتكي المملوك إلا إلى مولاه، وأنت يا رب مولى الموالى، ثم يتمنى لو أن أمه لم تلده، ولم يغضب ربه، ويبين أنه عبده الفقير إلى رحمته، ويرجو من الله أن يقبل سؤاله، ويعفو عنه، قال: (2)

أَتَيْتُكَ رَاجِئاً يَا ذَا الْجَلَالِ
عَصَايُكَ سَيِّدِي وَيَلِيَّ بَجْهَلِي
إِلَى مَنْ يَشْتَكِي الْمَمْلُوكُ إِلَّا
لِعَمْرِي لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي
فَهَا أَنَا عَبْدُكَ الْعَاصِي فَقِيرٌ
فَفَرَّجْ مَا تَرَى مِنْ سَوْءِ حَالِي
وَعَيْبُ الذَّنْبِ لَمْ يَخْطُرْ بِيَالِي
إِلَى مَوْلَاهُ يَا مَوْلَى الْمَوَالِي
وَلَمْ أُغْضِبْكَ فِي ظُلْمِ اللَّيَالِي
إِلَى رُحْمَاكَ فَاقْبَلْ لِي سُؤَالِي

5 - التذكير بالموت:

ذكر الشعراء الفقهاء عامة الناس وخاصتهم بالموت مستخدمين التاريخ وحوادثه، ومراحل العمر من الشباب والشيخوخة، وما تضمه الأرض في باطنها.

فدعا الإلبيري إلى الاتعاض بزوال الملوك السابقين وما جمعوهم، وهكذا سيكون حال كل مخلوق، قال: (3)

أَيْنَ الْمُلُوكُ وَأَيْنَ مَا جَمَعُوا وَمَا
ذَخَرُوهُ مِنْ ذَهَبِ الْمَتَاعِ الذَّاهِبِ

(1) بهماء: مظلمة، غير واضحة، عتار: مكان خشن قفر يصعب السير فيه، ابن منظور، لسان العرب، مادتا بهم، وعتر.

(2) الإلبيري، الديوان، 119 .

(3) الإلبيري، م، ن، ص 115 .

قَصَفَتْهُمْ رِيحُ الرَّدَى وَرَمَتْهُمْ كَفَّ الْمَنُونُ بِكُلِّ سَهْمٍ صَائِبٍ

ثم يشير إلى أن هناك كثيراً من اللاهين الذين ينسون الموت، فإذا ما داهمهم الموت لا يستطيعون دفعه أو تأجيله، فإذا ما ماتوا بكاهم أقاربهم، ووضعوهم في اللحد، وهالوا عليهم التراب بسرعة، ثم انتهبوا ما تركوه من أموال وميراث. ثم ينصح الإنسان أن يكون مستعداً لمثل هذا الموقف كما يستعد الهداة، وأن ينتظر الموت في كل لحظة، فهو حتمي يداهم الصغير والكبير، قال: (1)

كَمَ آمِنٍ لِلْمَنُونِ لَاهٍ	عَنِ الرَّدَى بَاتَ مُطْمَئِنًّا
صَبَّحَهُ وَأَفْدُ الْمَنَايَا	فَعَايِنَ الْمَوْتَ حِينَ عَنَّا
حَتَّى إِذَا مَا قَضَى بَكَاهٍ	حَمِيمُهُ مُعْوِلاً مُرِنًّا
وَارَوْهُ فِي لَحْدِهِ وَسَنَّوَا	عَلَيْهِ قَيْدَ التُّرَابِ سَنًّا
وَأَنْتَهَبُوا مَالَهُ وَشَنَّوَا	غَارَاتٍ فِيمَا حَوَاهُ شَنًّا
لِمِثْلِ هَذَا فَكُنْ مُعِدًّا	مَا قَدْ أَعَدَّ الْهُدَاةُ مِنَّا
وَارْتَقِبِ الْمَوْتَ فَهُوَ حَاتِمٌ	يَخْتَرِمُ ⁽²⁾ الطِّفْلَ وَالْمُسِنََّا

ويلاحظ هنا أن الشاعر يتسلسل في شعره تسلسلاً منطقياً، فينظم معلومات معروفة لعامة المسلمين وخاصتهم على حد سواء، لكنهم لاهون عنها، وهو يمارس دور الفقيه، فيقوم بتوظيف شاعريته ليعظهم بهذا الشعر الذي يسهل حفظه وتداوله.

ثم يخاطب الإلبيري إنساناً، ويقول له إنك قد بلغت الستين من العمر، فانتظر ما بعدها، وإذا ما انقضى عمرك جاءك الحساب، ثم شبه الإنسان بالسجل الذي يعرض حيناً ثم يطوى ويختتم حيناً آخر، ثم يتساءل كيف يعقل أن يستلذ بالحياة إنسان، وسهام الموت تحوم فوقه، فلا يدري متى سيفاجئه منها سهم يقصم ظهره، ثم يشير إلى أننا في حياة مؤقتة، وهي طريق إلى الحياة الباقية،

(1) الإلبيري، الديوان، ص 120 .

(2) يخترم: يأخذ، مادة خرم .

وشبه الموت بالطاحونة التي ستأتي على الجميع فتطحنه، وهو موقن بذلك لكن أعماله كمن لا يعلم ذلك، ثم يختم الأبيات برجاء الله أن يغفر له ويرحمه، ويعافيه من جهنم، يقول: (1) {الخفيف}

قَدْ بَلَغْتَ السَّيِّئَاتِ وَيَحَاكَ فَاَعْلَمْ	أَنَّ مَا بَعْدَهَا عَلَيْكَ تَلَوَّمٌ
فَإِذَا مَا انْقَضَتْ سِنُوكَ وَوَلَّيْتَ	فَصَلَ الْحَاكِمُ الْقَضَاءَ فَأَبْرَمَ
أَنْتَ مِثْلُ السَّجْلِ يُنْشَرُ حِينًا	ثُمَّ يُطَوَّى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَيُخْتَمَ
كَيْفَ يَلْتَذُّ بِالْحَيَاةِ لَبِيبٌ	فَوَقَّتْ نَحْوَهُ الْمَنِيَّةُ أَسْهُمٌ
لَيْسَ يَدْرِي مَتَى يُفَاجِيهِ مِنْهَا	صَائِبٌ يَقْصِفُ الظُّهُورَ وَيَقْصِمُ
نَحْنُ فِي مَنْزِلِ الْفَنَاءِ وَلَكِنْ	هُوَ بَابٌ إِلَى الْبَقَاءِ وَسَلَّمٌ
وَرَحَى الْمَوْتِ تَسْتَدِيرُ عَلَيْنَا	أَبَدًا تَطْحَنُ الْجَمِيعَ وَتَهْشِمُ
وَأَنَا مَوْقِنٌ بِذَلِكَ عَلِيمٌ	وَفِعَالِي فِعَالٌ مَنْ لَيْسَ يَعْلَمُ
وَكَذَا أَمْتَطِي الْهُوَيْنَى إِلَى أَنْ	أُتَوَفَّى فَعِنْدَ ذَلِكَ أَنْدَمٌ
فَعَسَى مَنْ لَهُ أُعْقَرُ وَجْهِي	سَيْرِي فَاقْتَنِي إِلَيْهِ فَيَرْحَمُ
فَشَفِيعِي إِلَيْهِ حُسْنُ ظُنُونِي	عَدَدَ الْفَطْرِ مَا الْحَمَامُ تَرْنَمُ
وَلَهُ الْحَمْدُ أَنْ هَدَانِي لِهَذَا	وَرَجَائِي لَهُ وَأَنْنِي مُسْلِمٌ
وَالِيهِ ضَرَا عَتِي وَابْتِهَالِي	فِي مُعَافَاةٍ شَيْبَتِي مِنْ جَهَنَّمَ

ثم يلوم الإلبيري نفسه على عصيانها، ومما طلتها في التوبة وغدرها، فقد ولى الشباب وجاء المشيب، وليس بعدهما إلا الموت والقبر والحساب، يقول: (2) {المتقارب}

أَلِفْتُ الْعُقَابَ حِذَا رَ الْعُقَابِ	وَعَفْتُ الْمَوَارِدَ خَوْفَ الذُّبَابِ
وَأَبْغَضْتُ نَفْسِي لِعَصِيَانِهَا	وَعَاتَبْتُهَا بِأَشَدِّ الْعِتَابِ
وَقُلْتُ لَهَا بَانَ عَنْكَ الصَّبَا	وَجَرَّدَكَ الشَّيْبُ ثَوْبَ الشَّبَابِ
وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا الْبَلَى	وَسُكْنَى الْقُبُورِ وَهَوْلُ الْحِسَابِ

(1) الإلبيري، الديوان ، ص.50

(2) الإلبيري، م.ن ، ص.64.

ويشير الإليبري إلى أنه لاحظ أن الشيب قد بدأ يشق طريقه إلى رأسه، فقد لاحظ شيبه تعلق مقدمة رأسه، فقال لنفسه: تأهبي للرحيل، واستعدي للموت، ثم يهول من الأمر، ويقول: إن أول الشيب واحدة، فكثيراً ما تبصر غيوماً بيضاً، ثم تنهال عليك أمطارها سريعاً، وينهي الأبيات بحكمة مهمة، وهي أنه يجب ألا تطلب المستحيل، بل عليك أن تكون واقعياً، ويجب عليك أن تتوجه إلى الله دائماً، فمن يخلص أعماله لله فإنه سيقبل منه ذلك حتماً، يقول: (1) {الوافر}

بَصُرْتُ بِشَيْبَةٍ وَخَطَّتْ نَصِيلِي (2)	فَقُلْتُ لَهُ: تَأَهَّبِ لِلرَّحِيلِ
وَلَا يَهْنِ الْقَلِيلُ عَلَيْكَ مِنْهَا	فَمَا فِي الشَّيْبِ وَيَحَاكَ مِنْ قَلِيلٍ
وَكَمْ قَدْ أَبْصَرْتُ عَيْنَاكَ مُزْنًا (3)	أَصَابَكَ طَلْهَا قَبْلَ الْهُمُولِ
وَكَمْ عَايَنْتَ خَيْطَ الصُّبْحِ يَجْلُو	سَوَادَ اللَّيْلِ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ
وَلَا تَحْقِرْ بِنُذْرِ الشَّيْبِ وَأَعْلَمَ	بِأَنَّ الْقَطَرَ يَبْعَثُ بِالسُّيُولِ
فَكَمْ مِمَّنْ مَفَارِقُهُ ثَغَامٌ	وَأَنْجُمُهُ عَلَى فَلَاكِ الْأَفُولِ (4)

ويجري الإليبري حواراً رائعاً بينه وبين الأرض، إذ تقول له: كم أسد عفرتة في عرينه، كم فتكتُ بكثير من الناس الطغاة المتجبرين؟، فأجابها متعجباً واصفاً إياها بالغدر: لقد أجزيت من حبك بالبغضاء، وكل من عليك هم أسراك أو جرحاك أو صرعاك، ثم شبه ما عليها من القتل بالذباب لكثرتهم، ثم يعاتبها فيسألها: كيف تكونين أمماً تأكلين أولادك بعد الولادة؟!، في حين أن الأم الحقيقية تعطف على أبنائها، يقول: (5) {الكامل}

كَمْ ضَيَّعَ عَفْرَتُهُ بَعْرِيْنِهِ	وَلَكَمْ فَتَكَتْ بِأَفْتَاكِ الْفُتَّاكِ
فَأَجَبْتُهَا مُتَعَجِّبًا مِنْ غَدْرِهَا	أَجْزَيْتِ بِالْبَغْضَاءِ مَنْ يَهْوَاكِ
لَأَجَلْتُ عَيْنِي فِي بَنِيكِ فَكَأَهُمْ	أَسْرَاكِ أَوْ جَرَحَاكِ أَوْ صَرَعَاكِ
فَكَأَنَّهُمْ مِثْلُ الذُّبَابِ تَسَاقَطَتْ	فِي الْأَرِي حَتَّى اسْتَوْصِلُوا بِهَلَاكِ (6)

(1) الإليبري، الديوان، ص 94 .

(2) النصيل: أعلى الرأس، ابن منظور، لسان العرب، مادة نصل.

(3) المزن: السحاب الأبيض، ابن منظور، م. ن، مادة مزن.

(4) ثغام: بيض، الأفول: المغيب، ابن منظور، م. ن، مادتا ثغم، وأفل.

(5) الإليبري، م. س، ص 34-35 .

(6) الأري: العسل، ابن منظور، م. س، مادة أري .

لَا كُنْتُ مِنْ أُمَّ لَنَا أَكَّالَةً بَعْدَ الْوِلَادَةِ مَا أَقْلَ حَيَاكِ
وَلَقَدْ عَهَدْنَا الْأُمَّ تَلْطُفُ بِابْنِهَا عَطْفًا عَلَيْهِ وَأَنْتِ مَا أَقْسَاكِ

ويختم قصيدته بأن عيشة الملوك لا صفاء فيها، ولكن الصفاء في عيشة النساك، قال: (1)

{الكامل}

لَا عَيْشَ يَصِفُو لِلْمُلُوكِ وَإِنَّمَا تَصِفُو وَتَحْمَدُ عَيْشَةَ النَّسَاكِ

وفي قصيدة أخرى يصور المنية فتاة تغازلها، وأنها تنشر له كتاباً، فيه صحيفة أعماله، مكتوبة بخط الدهر، أسطره من المشيب، هذا الكتاب في معانيه غموض، يعرفه كل منيب لله، ثم يشير إلى أن الشيب قد أدال شبابه، وعوضه البغيض بدلاً من الحبيب، ثم يشير إلى الموت الذي يداهم الطبيب والمطبيب، ثم يتحسر على اغتراره بالحياة، ويترحم من هول يوم القيامة، قال: (2)

{الوافر}

تُغَاذِلُنِي الْمَنِيَّةُ مِنْ قَرِيبِ وَتَلَحُّظُنِي مُلَاحَظَةُ الرَّقِيبِ
وَتَنْشُرُ لِي كِتَاباً فِيهِ طَيِّبِ بِخَطِّ الدَّهْرِ أَسْطُرُهُ مَشِيبِي
كِتَابٌ فِي مَعَانِيهِ غُمُوضٌ يَلُوحُ لِكُلِّ أَوَّابٍ مُنِيبِ
أَدَالِ الشَّيْبُ يَا صَاحِبَ شَبَابِي فَعَوَّضْتُ الْبَغِيضَ مِنَ الْحَبِيبِ
هِيَ الْأَقْدَارُ وَالْأَجَالُ تَأْتِي فَتَنْزِلُ بِالْمُطَبِّبِ وَالطَّبِيبِ
فِيَا لَهْفِي عَلَى طَوْلِ اغْتِرَارِي وَيَا وَيْحِي مِنَ الْيَوْمِ الْعَصِيبِ

وقد اشترك ابن حزم مع الإلبيري في ذلك، حيث قال: إنه عندما رأى الشيب غزا مفارقه، منذرا برحيل الشباب، رجع إلى نفسه، وقال لها: انظري إلى ما جاء، هذه بداية الحقائق، دعي اللهو واللذات، واستعدي وسابقي للآخرة، يقول: (3)

وَلَمَّا رَأَيْتُ الشَّيْبَ حُلَّ مَفَارِقِي نَذِيرًا بِتَرْحَالِ الشَّبَابِ الْمُفَارِقِ
رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي فَقُلْتُ لَهَا انْظُرِي إِلَى مَا أَتَى، هَذَا ابْتِدَاءُ الْحَقَائِقِ

(1) الإلبيري، الديوان، ص 37 .

(2) الإلبيري، م. ن، ص 31 .

(3) المقرئ، نفح الطيب، 67/3.

دَعِيَ دَعَوَاتِ اللَّهِ وَقَدْ فَاتَ وَقْتُهَا كَمَا قَدْ أَفَاتَ اللَّيْلَ نَوْرُ الْمَشَارِقِ
دَعِيَ مَنْزِلَ اللَّذَاتِ يَنْزِلُ أَهْلُهُ وَجِدِّي لِمَا نَدَعِيَ إِلَيْهِ وَسَابِقِي

وما يلاحظ على شعر التذكير بالموت أنه اهتم بالمنطق، واستخدم أسلوب الوعظ والمساءلة، إذ بيّن الشعراء أن دوام الحال من المحال، وأن كل شيء إلى زوال، وقدموا أشعارهم على شاكلة نصائح ووصايا.

6 - وصف وحشة القبر:

وصف الإلبيري تشييع جنازته إلى مثواه، فلما أن يلقي فيه العذاب أو الرحمة، وصار فيه ملتحفاً التراب بعد أن كان يلبس الثياب الفاخرة، ولم تنفعه كثرة أنصاره وجنوده، وما أقلقه كثرة ذنوبه، فانهمرت دموعه، ثم يشير إلى أن الإنسان لا يعرف أين وفاته، آخذاً المعنى من الآية ﴿وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾⁽¹⁾، ثم يطلب من أصحابه إذا شهدوا جنازته أن يدعوا له بالنجاة من عذاب القبر، يقول: ⁽²⁾

إِلَى مَنْزِلٍ فِيهِ عَذَابٌ وَرَحْمَةٌ وَكَمْ فِيهِ مِنْ زَجَرٍ لَنَا وَعِظَاتٍ
وَصَارَ بِبَطْنِ الْأَرْضِ يَلْتَجِفُ الثَّرَى وَكَانَ يَجُرُّ الْوَشْيَ وَالْحَبَرَاتِ⁽³⁾
وَلَمْ تُغْنِهِ أَنْصَارُهُ وَجُنُودُهُ وَلَمْ تَحْمِهِ بِالْبَيْضِ وَالْأَسَلَاتِ⁽⁴⁾

7 - عذاب جهنم:

يصور الإلبيري عذاب النار تصويراً دقيقاً، فيرسم صورة منفرة لمن يلقى في النار، حيث تغلي به مثلما تغلي المياه في القدر، يهوي الأشقى في النار على رأسه، تارة يطفو فوق الجمر، وتارة يغوص فيها، وكلما أراد الفرار، فرّ منها إليها، يهرب من أفعى إلى ذكر الأفعى، وسم الأفعى أقوى من النار، تلسع كل من يسحب فيها، لا راحة فيها، ولا استراحة، يقول: ⁽⁵⁾ {السريع}

(1) لقمان، 31/34 .

(2) الإلبيري، الديوان، ص 52 .

(3) الحبرات: ثوب من القطن أو الكتان، مخطط، كان يصنع باليمن، ابن منظور، لسان العرب، مادة حبر .

(4) الأسلات: الرماح، والنبال، ابن منظور، م، ن، مادة أسل .

(5) الإلبيري، م.س، ص 90 .

وَيْلٌ لِّأَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ
تَتَقَدُّ مِنْ غَیْظٍ فَتَغْلِي بِهِمْ
يَهْوِي بِهَا الْأَشْقَى عَلَى رَأْسِهِ
فَتَّارَةٌ يَطْفُو عَلَى جَمْرِهَا
وَكَلَّمَا رَامَ فِرَاراً بِهَا
يَطُوفُ مِنْ أَفْعَى إِلَى أَرْقَمِ

مَاذَا يُقَاسُونَ مِنَ النَّارِ
كَمَرَجَلٍ⁽¹⁾ يَغْلِي عَلَى النَّارِ
فَالْوَيْلُ لِلْأَشْقَى مِنَ النَّارِ
وَتَّارَةٌ يَرُسُّبُ فِي النَّارِ
فَرًّا مِنَ النَّارِ إِلَى النَّارِ
وَسُوءُهَا أَقْوَى مِنَ النَّارِ

8 طلب المعالي:

دعا ابن حزم الأندلسي الإنسان إلى عدم اليأس في الحصول على حاجاته التي تُنال بحيلة مهما بعدت، ورأى أن الذل الذي يقود إلى العز أفضل من العز الذي يقود إلى الذل، يقول: (2)

{الطويل}

فَذَلٌّ يَسُوقُ الْعِزَّ أَجْوَدُ لِلْفَتَى
وَلَا تَيَاسُنْ مِمَّا يُنَالُ بِحِيلَةٍ

وَإِنْ بَعُدَتْ فَلْأَمْرُ يَنَأَى وَيَصْعُبُ
مِنْ الْعِزِّ يَتْلُوهُ مِنَ الذَّلِّ مَرْكَبُ

9 حِكْمُ عَامَةٍ:

لقد قدّم ابن حزم مجموعة من الأخلاق والقيم المهمة، فجعل العقل أساساً، والأخلاق سوراً يحيط به، وإذا لم يتحلّ العقل بالعلم فهو بور؛ لأنّ الجاهل ليس ببعيد النظر، وإذا لم يتم العلم بالعدل فهو زور، ولن يتمّ العدل إلا بالجدود وإلا فإنه يجور، وتمايم الجدود بالشجاعة، ثم دعا إلى العفة؛ لأنّ مَنْ يغار على محارمه لن يقدم على الزنا، وكماي الأخلاق بالتقوى، وقول الحق نور، يقول: (3)

{مجزوء الرمل}

إِنَّمَا الْعَقْلُ أُسَاسٌ
فَتْحَلَّ الْعَقْلُ بِالْعِلْمِ

فَوْقَهُ الْأَخْلَاقُ سُورٌ
م وَإِلَّا فَهُوَ بَوْرٌ

(1) مرَجَلٌ: قدر من نحاس، ابن منظور، لسان العرب، مادة رَجَل.

(2) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 192.

(3) ابن حزم، رسائل ابن حزم، 380/1.

جاهلُ الأشياءِ أعمى	لا يرى حيثُ يدورُ
وتمامُ العلمِ بالعدوِّ	لِ وإلا فهو زورُ
وتمامُ العدلِ بالجو	د وإلا فيجـورُ
وملاكُ الجودِ بالنجـو	دة والجبنُ غرورُ
عِفَّ إن كنتَ غيوراً	ما زنى قطُّ غيورُ
وكمالُ الكلِّ بالنقـو	وى وقولُ الحقِّ نورُ

أ - التحذير من غدر الناس:

قال الفقيه أبو محمد غانم بن وليد⁽¹⁾: (2)

{الكامل}

واخصُّ بودِّك مَنْ خَبَرْتَ وفاءهُ	لا تتخذُ إلا الوفيَّ خليلاً
فلقد خَبَرْتُ النَّاسَ مِنْذُ عَرَفْتُهُمْ	فوجدتُ جنسَ الأوفياءِ قليلاً

حيث يدعو إلى اتخاذ الوفيِّ صديقاً، وهو يرى أنَّ الأوفياء قليلون.

وقال أبو بكر بن عطية المحاربي⁽³⁾ يحذر من مخالطة الناس: (4)

{الطويل}

فلا تعذلوني في انقباضي فإنني	رأيتُ جميعَ الشرِّ في خلطة الناس
------------------------------	----------------------------------

(1) غانم بن وليد بن عمر المالقي القرشي المخزومي الأشنوني، أبو محمد: (ت470هـ) أديب مالقة في عصره، له شعر وعلم بالفقه والحديث والطب والكلام، أورد ابن بسام نماذج من شعره ونثره، نسبته إلى أشونة، قال ابن بسام في حقه: وكان أبو محمد غانم بن وليد متفنناً جرى في ميدان السبق، وفقهاً قرطس أغراض الحق. ترجمته في ابن بسام، الذخيرة، 853/2؛ ابن سعيد، المغرب، 317/1؛ السيوطي، بغية الوعاة، 241/2؛ الزركلي، الأعلام، 116/5.

(2) ابن بسام، م، ن، 854/2.

(3) غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تمام بن عطية المحاربي من أهل غرناطة؛ يكنى أبا بكر، الفقيه الإمام حافظ حديث النبي صلى الله عليه وسلم، روى عن أبيه عبد الرحمن بن غالب، وأبي علي الحسن بن عبيد الله الحضرمي المقرئ، ورحل إلى المشرق سنة تسع وستين وأربع مئة. وكان أديباً، شاعراً، لغوياً، ديناً، فاضلاً أخذ الناس عنه كثيراً، وتوفي بغرناطة سنة ثمان مئة وخمسة. ومولده سنة إحدى وأربعين وأربع مئة. ترجمته في ابن خاقان، قلاند العقيان، 205/1؛ ابن بشكوال، الصلة، 432/1؛ المقرئ، أزهار الرياض، 99/3.

(4) ابن دحية، المطرب، 213؛ ابن الخطيب، الإحاطة، 322/4؛ المقرئ، نفح الطيب، 525/2.

ب - عمل الخير والإحسان إلى الآخرين:

دعا أبو الحسين بن سراج⁽¹⁾ إلى الإكثار من عمل الخير والمعروف، وعدم الاهتمام كثيراً بالنتيجة، فالغيث لا يهتم هل ينزل على الحجر أو التراب، يقول:⁽²⁾
{البسيط}

بُثَّ الصَّنَائِعُ لَا تَحْفَلُ بِمَوْقِعِهَا مِنْ آمَلِ شَكَرَ الْإِحْسَانَ أَوْ كَفَّرَا
فَالْغَيْثُ لَيْسَ بِبَالِيٍّ أَيْنَ مَا انْسَكَبَتْ مِنْهُ الْغَمَائِمُ تَرْبَاءُ كَانَ أَوْ حَجَّرَا

ج - البحث عن الوطن المريح:

قال الفقيه أبو محمد غانم بن وليد: إذا صعبت عليك الإقامة في ديار معينة، فاتركها واهجرها، فليس عليك واجب أن تقيم في بلدة تذلل الأعزّة، يقول:⁽³⁾
{الكامل}

وَإِذَا الدِّيَارُ تَتَكَرَّرَتْ حَالَاتُهَا فَدَعْ الدِّيَارَ وَأَسْرِعِ التَّخَوُّيلَا
لَيْسَ الْمَقَامُ عَلَيْكَ حَتْمًا وَاجِبًا فِي بَلَدَةٍ تَدْعُ الْعَزِيزَ ذَلِيلَا

وقال الفقيه القاضي عياض⁽⁴⁾: إنه لا يعمر الأرض إلا رجالها، وإلا فلا فرق بين تراب وآخر، يقول:⁽⁵⁾
{الطويل}

(1) سراج بن عبد الملك بن سراج أبو الحسين (439-508هـ) من أهل قرطبة، وكان حسن الخلق، كامل المروءة، من بيت علم ونباهة وفضل وجلالة، خلف أباه في مكانه وسودده ورحل الناس إليه وأخذوا عنه في حياة أبيه، روى عن أبيه كثيراً، وحاز الإمامة بعده علماً وحفظاً وإتقاناً مع التقدم في علم الأدب، كانت له عناية كاملة بكتب الآداب واللغات والتقييد لها، والضبط لمشكلها مع الحفظ والإتقان لما جمعه منها، وتوفي سنة ثمان وخمسة. ودفن بالربض. ترجمته في ابن بسام، الذخيرة، 812/2؛ ابن بشكوال، الصلة، 222/1؛ اليعمري، الديباج المذهب، 126/1.

(2) القاضي عياض، ترتيب المدارك، 142/8؛ الأصفهاني، خريدة القصر، 486/3؛ ياقوت الحموي، معجم الأدياء، 1342/3؛ ابن دحية، المطرب، 131؛ اليعمري، م، ن، 126/1؛ السيوطي، بغية الوعاة، 576/1؛ اليوسي، زهر الأكم، 124/3 .
(3) ابن سعيد، المغرب، 318/1.

(4) عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن اليحصبي السبتي، أبو الفضل (476 - 544 هـ) عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم، ولي قضاء سبتة، ومولده فيها، ثم قضاء غرناطة. وتوفي بمراكش مسموماً، قيل: سمّه يهودي. من تصانيفه "الشفاء بتعريف حقوق المصطفى" و"الغنية" في ذكر مشيخته، و"ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك، وشرح صحيح مسلم ومشارك الأنوار، والإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقبيد السماع وجمع المقرئ سيرته وأخباره في كتاب "أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض - قال في ترجمته: كان لا يبلغ شأوه، ويدرك مداه، في العناية بصناعة الحديث، ومهارته في الفقه. ترجمته في ابن بشكوال، م، س، 429/1، المقرئ، أزهار الرياض، 20/3؛ الزركلي، الأعلام، 99/5.

(5) الأصفهاني، خريدة القصر، 302/3.

وَمَا شَرَّقَ الْبِلْدَانَ إِلَّا رَجَالُهَا وَإِلَّا فَلَا فَضْلَ لَتَرْبٍ عَلَى تَرْبٍ

د - الاختيار الصحيح للرسول:

أعطى الفقيه أبو بكر الطرطوشي حكمة رائعة تنمُّ عن خبرة كبيرة في الحياة، إذ قال: إذا كنت تريد إرسال رسول في أمر ما، فأرسل إنساناً أعمى أصمَّ أبكم (كناية عن بُعده عن الفلسفة، والتدخل في الأمر)، ويبدو أن أبا بكر الطرطوشي قد أخذ الشطر الأول من طرفة بن العبد⁽¹⁾، الذي سبقه، يقول أبو بكر الطرطوشي: (2)

إذا كنتَ في حاجةٍ مُرسِلاً وأنتَ بإنجازها مغرماً
فأرسلْ بأكمه جلابيةً به صممٌ أعطشٌ أبكمُ

ه - الصبر:

قال الفقيه أبو محمد غانم بن وليد: إنَّ الصبر أفضل من القلق، ومنَّ كان صابراً تغلَّب على مصاعبه وأيامه، يقول: (3)

الصبرُ أولى بوقارِ الفتى من قلق يهتك سترَ الوقارِ
من لزم الصبرَ على حالةٍ كان على أيامه بالخيارِ

و - ضرورات الحياة:

بيَّن الفقيه أبو محمد غانم بن وليد أن هناك ثلاثة أشياء مهمة للإنسان: الأمن، والصحة، والقوت، يقول: (4)

ثلاثةٌ يُجهل مقدارُها الأمنُ والصحةُ والقوتُ

ز - تقلب الحياة:

(1) البيت هو: إذا كنتَ في حاجةٍ مُرسِلاً // فأرسلُ حكيماً ولا توصيه، طرفة بن العبد، الديوان، ص 51.
(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 263/4، اليعمرى، الديباج المذهب، 278/1، المقرئ: نفح الطيب، 86/2، أزهار الرياض، 164/3.
(3) الحميدي، جذوة المقتبس، 518/2؛ ابن بشكوال، الصلة، 669/2؛ المقرئ، م، ن، 398/3.
(4) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 2152/5؛ السيوطي، بغية الوعاة، 241/2؛ العباسي، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، 219/1؛ المقرئ، م، ن، 330/4.

قال أبو محمد غانم بن وليد أيضاً: إن الحياة يوم مسرة يعقبها يوم حزن، بمعنى لا تدوم على حال، قال: (1)

{الكامل}

هَوْنٌ عليك فقد مضى مَنْ يعقلُ
فلقمّا تأتي عليك مسرةٌ
والبسُّ من الأخلاق ما هو أفضلُ
إلا تتابع بعدها ما يثكلُ

ثانياً: الزهد:

كان الإلبيري مريضاً فجاءه ابن أبي رجاء يعوده، وهو على فراش الموت، فعذله على رداءة مسكنه، فأجابه قائلاً: إنهم قد حنّوه على بناء بيت جميل يفوق جميع البيوت في جماله، فقال لهم: ليس هذا صواباً، بل إن بيتاً صغيراً كثير على من يموت، ولولا برد الشتاء وحر الصيف، والخوف من اللصوص، وستر الحريم لبنى بيتا من خيوط العنكبوت، ثم أشار إلى أن القبر أكبر واعظ صامت، قال: (2)

{مُخلَع البسيط}

قالوا ألا تستجد بيتاً
فقلت ما ذلّكم صواباً
لولا شتاءٌ ولفح قيظٍ
ونسوةٌ يبتغيْن سِتْراً
وأَيُّ معنى لحسنِ معنى
ما أوعظ القبرَ لو قباناً
تعجبُ من حُسنِ البيوتِ
حفشٌ⁽³⁾ كثيرٌ لمن يموتُ
وخوفٌ لصٍّ وحفظٌ قوتِ
بنيتُ بُنيانَ عَنكَ بـوتِ
ليسَ لأربابِهِ ثبوتِ
موعظةُ الناطقِ الصموتِ

{الكامل}

وقال أيضاً زاهداً بما في الحياة: (4)

مَنْ جاوزَ السَّتينَ لَمْ يَجْمُلْ بِهِ
بَلْ شُغْلُهُ فِي زَادِهِ لِمَعَادِهِ
وَالشَّيْخُ لَيْسَ قُصَارُهُ إِلَّا التَّقَى
لَا أَنْ يَهَيِّمَ صَابِئَةً بِجَاذِرِ
شُغْلٍ بِجُمْلٍ وَالرَّبَابِ وَغَادِرِ
فَالزَّادُ أَكْدُ شُغْلٍ كُلِّ مُسَافِرِ

(1) ابن بسام، الذخيرة، 2/869.

(2) الإلبيري، الديوان، ص 62 .

(3) حفش: بيت قريب السمك قليل الارتفاع، ابن منظور، لسان العرب، مادة حَفَشَ.

(4) الإلبيري، م.س، ص 78 .

يشير إلى أن من بلغ الستين من العمر لا يجمل به أن يشغل نفسه في حب الفتيات، بل يجب أن يشغل نفسه في التزود للآخرة، فالشيخ يجب أن يهتم بالتقوى، لا أن يتغزل بالعيون الجميلة.

أما الفقيه الزاهد أبو بكر الطرطوشي، فقد صور الزهاد بأنهم أذكاء، طلقوا الدنيا وملذاتها، وخافوا فتنتها، وقد فكروا ملياً فيها، فلما علموا أنها ليست دار بقاء جعلوها بحراً، واتخذوا صالح أعمالهم سفناً، يقول: (1)

إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا فُطِنَا	طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا
فَكَّرُوا فِيهَا، فَلَمَّا عِلِمُوا	أَنَّهَا لَيْسَتْ لَحْيً وَطْنَا
جَعَلُوهَا لُجَّةً (2)	وَاتَّخَذُوا صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سَفِينَا

كما قال أبو محمد غانم في الزهد: اقض بقايا عمرك أيها الإنسان في طاعة الله، ولا تكن مغروراً، وارحل إلى الدار الآخرة متزوداً بالتقوى، فالدنيا متاع الغرور، يقول: (3) { السريع }

صَرَفَ بَقَايَا الْعُمُرِ فِي طَاعَةِ	وَلَا يَغَرَّنَّكَ كَيْدُ الْغُرُورِ
وَارْحَلْ إِلَى الْأُخْرَى بِزَادِ التَّقَى	فَإِنَّمَا الدُّنْيَا مَتَاعُ الْغُرُورِ

وقد وافقه في ذلك أبو بكر بن عطية المحاربي، فقال في الزهد: (4) { الرمل }

قُمْ إِذَا اللَّيْلُ دَجَّتْ ظُلُمَتُهُ	وَاسْتَلْذِ الْجَفْنَ أَنْ يَغْتَمِضَا
فَضَعْ الْخَدَّ عَلَى الْأَرْضِ وَنُحْ	وَاقْرَعْ السِّنَّ عَلَى مَا قَدْ مَضَى

فهو يوجه الإنسان ويرشده لما عليه عمله إذا أظلم الليل، وطاب النوم للعين، بأن يضع خده على الأرض، وأن ينوح، ويصك أسنانه ندماً على ما مضى من عمره.

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 262/4، ابن سعيد، المغرب، 424/2، المقرئ، نفح الطيب، 86/2، المقرئ، أزهار الرياض، 164/3.

(2) لجة: بحر، ابن منظور، لسان العرب، مادة ليج .

(3) ابن بسام، الذخيرة، 858 / 1 .

(4) المقرئ، نفح الطيب، 524/2 .

وحذر أبو بكر بن عطية المحاربي من عدم استغلال أوقات العبادات، وبخاصة شهر رمضان، فعلى الإنسان صيامه احتساباً لله، وعدم إضاعته في اللهو، قال: (1)

{الكامل}

لا تجعلن رمضان شهراً فكاهةً تلهيك فيه من القبيح فنونهُ
واعلم بأنك لا تتألف قبولهُ حتى تكون تصومهُ وتصونهُ

وهو هنا متأثر بقول الرسول، صلى الله عليه وسلم: "مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ" (2)، يقول: (3)

{الطويل}

إذا لم يكن في السَّمْعِ منِّي تصاونٌ وفي بصري غضٌّ وفي مقولي صمتٌ
فحظي إذا من صومي الجوع والظَّمَا وإن قلتُ إنِّي صُمتُ يوماً فما صُمتُ

(1) المقرئ، نفح الطيب ، 525/2.

(2) البخاري، الصحيح، 26/3، حديث رقم 6057.

(3) السلفي، أخبار وتراجم أندلسية، 31/1؛ المقرئ: م.س، 525/2؛ أزهار الرياض، 100/3.

نلاحظ مما سبق أن الحكمة والزهد في شعر الفقهاء في هذه الحقبة اتسما بما يأتي:

- 1 سهولة الألفاظ والمعاني، حيث استخدم الشعراء ألفاظاً سهلة، حتى تكون مفهومة للعامة والخاصة من الناس، خاصة عندما تحدثوا عن الموت والقبر، حتى تكون مؤثرة ومفهومة.
- 2 كثرة المعاني الدينية، ولا غرو في ذلك، فهم الفقهاء، وهم أحفظ الناس للقرآن الكريم، وأعرفهم بسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم.
- 3 كثرة الألفاظ الفقهية، وخاصة التي تتعلق بالحلال والحرام، مثل: احرص، القضاء، الذنوب، الخيار، كفر، شكر، زنى، كمال، الحق، زور، يجور.
- 4 استخدام أسلوب الأمر والنهي، لأن الفقيه يقوم بدور الواعظ للآخرين، مثل: اتق الله، اعلم، قم، ضع الخد، صرّف، ارحل، انظر، اسل، احرص، اقنع، خذ، لا توقدن، لا تك تاركاً، لا يغرنك، لا تجعل.
- 5 استخدام أسلوب الخطاب المباشر والتفريع، مثل: فانتظر السقم عن قريب، فالكل كلب مؤسد، ولا يبقى مع البخل القليل، عفّ إن كنت غيوراً، تبت يداه وما له من وال، ويل لأهل النار، والشيخ أقبح ما يكون إذا لها.

المبحث الثاني: المدح

لم يكن الشعراء الفقهاء يمدحون من أجل المال، ولم يتقربوا إلى الحكّام من أجل الحصول على هباتهم وأعطياتهم، فهذا شأن الشعراء الذين تكسبوا بالشعر، وكان الشعر عندهم وسيلة لا غاية، بل إن الفقهاء قد احتفظوا للشعر بمكانته العالية، التي جعلت الرسول صلى الله عليه وسلم يستمع إلى إنشاده، وحببت عمر بن الخطاب إلى ترديده، وليس غريباً أن نجد بعض الأمراء يمدحون الفقهاء، ويتقربون منهم؛ وذلك لمكانتهم العالية عند الناس، ولإدراكهم أهميتهم في تقديم النصيح والإرشاد لهم، فقد كان للفقهاء حق القيام بدور الرقابة على سياسة الأمراء، بموجب تصديهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولذلك كان الناس لا يحترمون العالم الذي يحشر نفسه في حاشية السلطان.⁽¹⁾ ولم يبالغوا فيه؛ وذلك لأنّ الدين الإسلامي نهى عن المبالغة في المدح؛ فقد قال الرسول، صلى الله عليه وسلم، عندما سمع رجلاً يبالغ في الثناء على رجل ويطريه في المدح: "أهلكم الرجل، أو قطعتم ظهر الرجل"⁽²⁾، كما نهى عمر بن الخطاب عن مدح الرجل إلا بما فيه. وقد كان مدح الفقهاء -على قلته- في مدح الرسول، صلى الله عليه وسلم، كما مدحوا الأمراء، والقادة، والعلماء، والأصدقاء.

ويُعدّ شعر المدح عند الفقهاء مصدراً غنياً بالقيم الإيجابية، والمبادئ والأخلاق المستمدة من القرآن والسنة، فتحدثوا عن الصفات الحميدة: الكرم والفروسية والحلم والأمانة والصبر، وصفات الرجولة والشجاعة التي ظهرت في المعارك والفتوحات، وابتعدوا في مدائحهم عن الصفات التي تدعو إلى الافتتان والاعتزاز والعظمة.

(1) ينظر: عبد الله كنون، أدب الفقهاء، ص 143-144 .

(2) مسلم، الصحيح، 2297/4، رقم الحديث 3001.

المديح النبوي:

مدح ابن لبال الرسول، صلى الله عليه وسلم، وصوّره بأنه قمر، زاد نوره على نور الشمس، وقد تشرف تراب طيبة بجثمان الرسول، صلى الله عليه وسلم، ودعا بالخير لمن يُمرّغ خده بتربة قبر الرسول، ثم يشير إلى أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، ذو مجد كبير فهو من قبيلة قريش، ومن بني هاشم، وينهي الأبيات بالتسليم على الرسول تسليماً دائماً ما دام الحمام يغني، وما دام المسك يفوح من الجنة، وما أنشد المشتاقون لرؤية الرسول، يقول: (1)

سلامٌ ولا أقرّ سلاماً على هند	صرفتُ إذا مسرايَ عن مسلكِ الرُّشدِ
على قمرٍ لو أطلعتَه يدُ الثَّرى	لقصّر عن لألائه قمرُ السَّعدِ
وأربى على نور الغزالة نوره	كما يفضلُ الحرُّ الكريمُ على العبدِ
فطاب به تُربُ الضريح بطيبه	فيعبّق عن مسك نديٍّ وعن نَدِّ
ويضحكُ عن روضٍ تُداني يدُ الصَّبا	به صفحة السَّوسان من صفحة الوردِ
فطوبى لمن أضحى يمرّغ لوعةً	بتربة ذاك القبرِ خدّاً إلى خدِّ
نبيٍّ عليه من تلالؤ نوره	تألؤ برق أسرجته يدُ الرّعدِ
نما من قريش في ذُؤابة هاشم	فما شئتَ من فضلٍ عميمٍ ومن مجدٍ
سلامٍ عليه ما تغنّت حمامةٌ	وفاح ذكيُّ المسك من جنة الخلدِ
وما أنشد المشتاقُ إن هبّت الصَّبا	"ألا يا صبا نجد متى هجّت من نجد"

(1) ابن دحية، المطرب، 97 .

مدح الملوك والقادة والإخوان والرجال والقضاة:

مدح ابن لبّال القائد أبا عمرو عثمان بن يحيى بن إبراهيم، فصوره بالبدر في تمامه؛ وذلك لكثرة محاسنه، فيبدو هو البدر وغيره الشهب، كما صورته بقطرات الطل التي تتساقط على البستان فتزيده نضارة، وبالفضة التي شيبت بعقيان، يقول: ⁽¹⁾

{البسيط}

بدرُ السَّيَّادة يبدو في مطالعِهِ	من المحاسن محفوفاً بشهبانِ
لَهُ التِّمَامُ وما بالأفق من قَمَرٍ	مُتَمِّمٌ دُونَ أن يُرمى بنقصانِ
به الشَّيْبَةُ تُرْهِى من نضارتِها	كما تساقطَ طَلٌّ فوق بُسْتانِ
مُعَصَّرُ الحُسْنِ للأبصارِ ناصعُهُ	كَأَنَّهُ فضَّةٌ شَيَّبَتْ بِعَقِيانِ

ثم مدح ابنه عبيد الله، الذي زاد من جماله، مثلما تزيد الشمس نور الفجر وضوحاً، فقال: ⁽²⁾

{البسيط}

قَدْ زادَها ابنُ عبيدِ اللهِ مِنْ وَضَحٍ	ما زادتِ الشَّمْسُ نورَ الفجرِ للرَّاني
بِاللهِ بَلَّغُهُ تسليمي إذا بَلَغَتْ	تلكَ الرِّكَّابَ وَعَجَّلَ غيرَ لَيانِ

ثم ينتقل إلى مدحهما معاً، فقد شبههما بالبحر في الجود والكرم، وإن كان عثمان فارساً شجاعاً، فإن عبيد الله أديب فصيح، قال: ⁽³⁾

{البسيط}

كلاكما البحرُ في جودٍ وفي كَرَمٍ	أو الغمامةُ تسقي كلَ ظمآنِ
إن كان فارسَ هيجاءٍ ومعتركِ	فأنت فارسُ إفصاحٍ وتبيانِ

ومدح أبو مروان بن سراج ⁽¹⁾ وزير قرطبة ابن جهور، وبيّن مكانته في قلبه، وأنه يطعم الحروب من لحوم الأعداء كما ترضع الأم أطفالها، وهو تكفل حماية نساء بلده مثلما تحمي الأسود الظبيات والفرسان، قال: ⁽²⁾

{الكامل}

(1) المقرّي، نفح الطيب 233/4 .

(2) المقرّي، م.ن، 234/4 .

(3) المقرّي، م.ن، 234/4 .

أَمَّا هَوَاكَ فَفِي أَعَزِّ مَكَانٍ كَمْ صَارِمٍ مِنْ دُونِهِ وَسَنَانٍ⁽³⁾
وَبَنِي حُرُوبٍ لَمْ تَزَلْ تَغْذُوهُمْ حَتَّى الْفَطَامِ تُثَدِّبُهَا بِلَبَّانٍ

ثم ذكر قصة حصلت معه، حيث قام بالتسلل ليلاً إلى خدور نساء، وبعد أن أيقظ إحدى الفتيات سألته: كيف تجرأت على هذا وأنت ترى من حولنا من الرجال النائمين أو اليقظين، فأجابها أن ابن جهور منع الخوف أن ينزل في قلبه، يقول:⁽⁴⁾ {الكامل}

وَلَقَدْ سَرَيْتَ وَمَا صَحَبْتَ عَلَى السَّرَى غَيْرَ النُّجُومِ إِرَادَةَ الْكِتْمَانِ
فِي لَيْلَةٍ نَظَرْتُ إِلَيَّ نَجُومُهَا وَمُقَحَّمِ الْغُمَرَاتِ غَيْرِ جَبَانٍ⁽⁵⁾
قَالَتْ فَتَاتُهُمْ وَقَدْ نَبَّهْتُهَا وَاللَّيْلُ مُلْقِي كَلْكَلٍ وَجِرَانٍ⁽⁶⁾
كَيْفَ اجْتَرَأْتَ عَلَى تَجَاوُزٍ مِنْ تَرَى مِنْ نَائِمٍ حَوْلِي وَمَنْ يَقْظَانِ
أَوْ لَسْتُ إِنْسَانًا وَمَا أَنْ تَنْتَهِيَ هَذَا نَهَايَةَ جَرَاةِ الْإِنْسَانِ
فَأَجَبْتُهَا: أَنَّ ابْنَ جَهْوَرٍ الرِّضَى مَنَعَ الْمَخَافَ أَنْ تَحُلَّ جَنَانِي

ومدح أبو محمد بن عطية المحاربي⁽⁷⁾ المثلثين ملوك المغرب المرابطين، فقال:⁽⁸⁾

{الطويل}

إِذَا لُثِّمُوا بِالرِّيطِ⁽¹⁾ خَلَّتْ وَجُوهُهُمْ أَزَاهِرَ تَبْدُو مِنْ فَتُوقِ كَمَائِمِ

(1) عبد الملك بن سراج بن عبد الله بن محمد بن سراج مولى بني أمية، أبو مروان (400 - 489 هـ): وزير، فقيه، أديب، من بيت علم ووقار في قرطبة. وكان حسن البنية، ممتعا بحواسه وتوقد ذهنه وسرعة خاطره، يقرأ دقيق الخط، ويثابر على المطالعة ويدأب عليها، وكانت وفاته سنة تسع وثمانين وأربعمائة، ودفن وصلى عليه ابنه الوزير الفقيه أبو الحسين سراج بن عبد الملك. ترجمته في ابن خاقان، قلاند العقيان، 188/1؛ ابن بسام، الذخيرة، 808/2؛ ابن سعيد، المغرب، 115/1، الزركلي، الأعلام، 159/4.

(2) ابن سعيد، م، ن، 116/1.

(3) وسنان: فاطر الطرف، نعلان، ابن منظور، لسان العرب، مادة وسن.

(4) ابن سعيد، م، س، 116/1.

(5) مقحم: متوغل به، مدخل، الغمرات: الشدائد والمكاره، ابن منظور، م، س، مادتا قحم، وغمر.

(6) كلكل: صدر، جران: العنق، كناية عن استقراره واكتماله، ابن منظور، مادتا كلكل، وجرن.

(7) عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، من أهل غرناطة، يكنى أبا محمد، أحد القضاة بالبلاد الأندلسية، وصدور رجالها. وبيته بيت علم، وفضل، وكرم، ونبيل. وكان هذا القاضي رحمه الله فقيها، نبيا، عارفا بالأحكام والحديث والتفسير، أديبا بارعا، شاعرا، لغويا ضابطا، مقيدا. ولي القضاء بمدينة المرية في شهر المحرم عام 529 هـ. وألف كتابه المسمى (الوجيز في التفسير)؛ مولده سنة 481. وتوفي في الخامس والعشرين لرمضان سنة 541 بمدينة لورقة. ترجمته في النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص 109؛ الضبي، بغية الملتبس، 389/1؛ الزركلي، م، س، 282/3.

(8) ابن دحية، المطرب، ص 91.

وإن لثُمُوا بالسابرية⁽²⁾ أظهرُوا عيونَ الأفاعي من جلود الأراقم

حيث أشار إلى أنهم إذا لثُمُوا بملاءة كبيرة خلت وجوههم زهوراً، وإذا لثُمُوا بقطعة قماش رقيقة برزت عيونهم من تحتها مثلما تبرز عيون الأفاعي، وهذا كناية عن شدة انتباههم وحسن استعدادهم.

ولأبي محمد بن عطية المحاربي في الأمير عبد الله بن مزدلي أمير تلمسان، الذي فتح الله على يديه تلمسان سنة 495هـ، وقد قفل منصوراً في بعض غزواته:⁽³⁾
{الكامل}

ضاءتْ بنورِ إِيَابِكَ الأيَّامُ فاعتزَّتْ تحتَ لوائِكَ الإسلامُ
أَمَّا الجَمِيعُ ففي أعمِّ مسرةٍ لَمَّا انجلى بظهورِكَ الإِظلامُ

حيث بين أن الأيام قد أضيئت بنوره، وزاد به الإسلام عزاً، وقد سُرَّ الجميع بذهاب الظلام.

ومنها:⁽⁴⁾ {الكامل}

كَمْ صدمةٍ لكَ في العِدَى مشهورةٍ غَصَّ العراقُ بذكرِها والشَّامُ
في مَأزقٍ فيهِ الأسنَّةُ والطُّبَا برقٌ ونقَعُ العاديَاتِ غَمَامُ
والضَّرْبُ قد صَبَغَ النَّصُولَ كأنَّمَا يجري على ماءِ الحديدِ ضرامُ⁽⁵⁾
والطَّعْنُ يبتعثُ النَّجِيعَ كأنَّمَا ينشقُّ عن زهرِ الشقيقِ كِمَامُ⁽⁶⁾

فهو يشيد بشجاعته في المعركة، فقد أبلى بلاء حسناً في معارك كثيرة، طار ذكرها في العراق والشام، ويشير إلى كثرة الدم وفي ذلك إشارة إلى كثرة ما يقتل من الأعداء.

(1) الرِيط: ملاءة قطعة واحدة، الزيبيدي، تاج العروس، مادة ريط .

(2) السابرية: قطعة قماش رقيقة، ابن منظور، لسان العرب، مادة سبر.

(3) الأصفهاني، خريدة القصر، 492/2.

(4) الأصفهاني، م.ن، 492/2.

(5) ضرام: اشتعال النار، ابن منظور، م.س، مادة ضرم.

(6) النجيع: دم الجوف، الزيبيدي، تاج العروس، مادة نجع . كمام: وعاء الطلع، الجوهرى، الصحاح، مادة كم.

ومدح الفقيه أبو محمد غانم بن وليد العالي بن إدريس بن يحيى بن علي بن حمود، فأشار إلى أنه قد تسلم الحكم سنة (434هـ)، وعمره (25) عاماً، ثم تمنى له أن يحكم الناس ثمانين سنة، ودعا على من لم يقل له آمين عند دعائه لباديس، فقال: (1)

{السريع}

واسْتَقْبَلَ الْمُلْكَ إِمَامُ الْهُدَى	فِي أَرْبَعِ بَعْدَ ثَلَاثِينَ
خَلَافَةُ الْعَالِي سَمَتْ نَحْوَهُ	وَهُوَ ابْنُ خَمْسٍ بَعْدَ عَشْرِينَ
إِنِّي لأَرْجُو يَا إِمَامَ الْهُدَى	أَنْ تَمْلِكَ الْمُلْكَ ثَمَانِينَ
لَا رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا لَمْ يَقُلْ	عِنْدَ دَعَائِي لَكَ آمِينَ

ومدح أحد إخوانه بغرناطة بقصيدة أخرى، فجعله متمكناً في الناس، ثم طلب من الأعلام التي تُلَوِّح من بعيد أن تحيي باديس؛ لأنّ عليه أيادي بيضاء أحيته، ثم ينتقل إلى الإشادة به وبصفاته وأخلاقه وعلمه، فيقول: (2)

{البسيط}

مَقْرُؤُكَ الرَّئِيسَ الْمُسْتَجَارَ بِهِ	بَادِيسُ فَازَ بِتَمَكِّينٍ وَإِمَكانِ
يَا لَائِحَ الْبَرْقِ مِنْ أَعْلَامِهَا غَسَقًا	جُدَّ بِالتَّحِيَّةِ مَنْ حَيًّا فَأَحْيَانِي
طَوْدٌ مِنَ الْعِلْمِ وَالْآدَابِ رَاسِيَّةٌ	أَصُولُهُ وَذُرَاهُ فَوْقَ كَيَّوانِ (3)
حَرُّ الْفَضَائِلِ مَعْسُولٌ شَمَائِلُهُ	يُخَصُّ مِنْ زِنَةِ الْعَلِيَا بِرُجْجَانِ
أَحْيَا أَبُو الْحَسَنِ الْمَشْهُورِ مَنْصِبُهُ	مَحَاسِنَ الدَّهْرِ مِنْ حُسْنٍ وَإِحْسَانِ
قَدْ كَانَ عُتْبِي مَوْصُولًا عَلَى زَمَنِي	حَتَّى طَلَعْتَ بِهِ بَدْرًا فَأَرْضَانِي

ومدح أبو محمد غانم بن وليد إدريس بن يحيى بن حمود، ملك الدولة الحمدونية في مالقة بقصيدة قال فيها: إن إدريس ماجد، توارث المجد عن أبيه وجدّه، بل إنه مطلع المجد ومغربه، كريم السجايا، قال: (4)

{مجزوء الخفيف}

إِنَّ إِدْرِيسَ مَا جَدُّ	لِلْعُلَا فِيهِ مَذْهَبُ
جَدُّهُ خَاتَمُ الْهُدَى	وَعَلَيَّ لَئِيْلُهُ أَبُ

(1) ابن بسام، الذخيرة، 862/2؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، 211/8.

(2) ابن بسام، م، ن، 856/2 .

(3) كيوان: نجم في السماء، الفراهيدي، العين، مادة كيوان .

(4) ابن بسام، م، ن، 859/2 .

فَهُوَ لِلْمَجْدِ مَطْلَعٌ وَهُوَ لِلْمَجْدِ مَغْرِبٌ

وفيهما يشير إلى أن الممدوح العالي إمام هدى، وأن دولته كانت دولة علم، وأن راحته تكمن في الجاه والمال.

ومدح القاضي عياض الأمير أبا عبد الرحمن ابن طاهر حاكم مرسية، فقال: (1) {الطويل}

أَبَا النَّصْرِ إِنْ شَدَّوْا رَحَالَكَ لِلنَّوَى (2) فَإِنَّ جَمِيلَ الصَّبْرِ عَنْكَ بَهَا شَدَّوْا
وَإِنْ تَتْرَكُوا قَلْبِي مُقِيمًا وَتَرْحَلُوا فَمَاذَا تَرَى فِي مَهْجَةٍ مَعَكُمْ تَغْدُو

أما أبو عبد الله بن أبي الخصال (3) فقد مدح تاشفين بن علي أحد ملوك المرابطين، وذكر وقعة كركي (4)، فقال: (5) {البسيط}

اللَّهُ أَعْطَاكَ فَتْحًا غَيْرَ مَشْتَرِكٍ وَرَدَّ عَزْمَكَ عَنْ فَوْتٍ إِلَى دَرَكٍ
سَارَتْ بِكَ الْجُرْدُ أَوْ طَارَ الْفَضَاءُ بِهَا وَالْحَيْنُ قَدْ قَيَّدَ الْأَعْدَاءَ فِي شَرَكٍ
فَمَا تَرَكْتَ كَمِيًّا (6) غَيْرَ مُنْعَفِرٍ وَلَا تَرَكْتَ نَجِيعًا غَيْرَ مُنْسَفِكٍ
نَامُوا وَمَا نَامَ مَوْتُورٌ عَلَى حَنْقٍ أَسَدَى إِذَا فُرْصَةً لَيْسَتْ مِنَ السَّلَكِ

إذ يشير إلى أن الله قد أعطاه فتحاً، وحقق له نصراً، وطلب منه أن يضع يده في يد الملك، حتى يسير إلى الأعداء واتقا من أنه سينتصر عليهم، ثم يشير إلى أنه لم يترك شجاعاً إلا وتعفر بدمائه، وسفك من دمائهم كثيراً، وهذا كناية عن كثرة ما قتل من الأعداء.

(1) الأصفهاني، خريدة القصر، 502/3.

(2) النوى: البعد، ابن منظور، لسان العرب، مادة نوي.

(3) مُحَمَّدُ بْنُ مَسْعُودِ بْنِ خَلْصَةَ بْنِ فَرَجِ بْنِ مُجَاهِدِ بْنِ أَبِي الْخِصَالِ الْغَافِقِيِّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ (465 - 540 هـ)، النُّحْوِيُّ الْأَدِيبُ الْكَاتِبُ الْبَارِعُ الْفَقِيهَ الْمُحَدِّثَ الْجَلِيلَ ذُو الْوِزَارَتَيْنِ، وَلَدَ بِقَرْيَةِ (فَرِغْلِيْط) مِنْ قَرْيَةِ (شَقُورَةَ)، وَسَكَنَ قَرْطَبَةَ وَغَرْنَاطَةَ، وَأَقَامَ مَدَّةَ بَفَاسٍ وَتَفَقَّهَ وَتَأَدَّبَ حَتَّى قِيلَ: لَمْ يَنْطَلِقْ اسْمُ كَاتِبٍ بِالْأَنْدَلُسِ عَلَى مِثْلِ ابْنِ أَبِي الْخِصَالِ، لَهُ تَصَانِيفٌ مِنْهَا (مَجْمُوعَةُ تَرْسُلِهِ وَشَعْرُهُ) وَ(ظُلُّ الْغَمَامَةِ) فِي مَنَاقِبِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ، وَ(مَنْهَاجُ الْمَنَاقِبِ) وَ(مَنَاقِبُ الْعَشْرَةِ وَعَمِّي رَسُولُ اللَّهِ). قَتَلَ شَهِيدًا بِقَرْطَبَةَ، قَتَلَهُ رِجَالُ ابْنِ غَانِيَةَ سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِئَةٍ. تَرَجَمَتْهُ فِي ابْنِ خَاقَانَ، قَلَانْدِ الْعَقِيَّانِ، 174/1؛ ابْنِ بَسَامٍ، م.س، 913/6؛ السَّيُّوْطِيُّ، بَغِيَّةُ الْوَعَاةِ، 243/1؛ الزَّرْكَلِيُّ، الْأَعْلَامُ، 95/7.

(4) كركي: اسم حصن من أعمال أوريوط بالأندلس له ولاية وقرى، ياقوت الحموي، معجم البلدان، 454/4 .

(5) ابن الخطيب، الإحاطة، 272/2 .

(6) كميًا: شجاعاً، ابن منظور، م.س، مادة كمي .

ثم انتقل إلى الحديث عن جنوده الصناديد حين بطشوا بالأعداء، وصور المعركة التي دارت بين الجيشين، حيث إنهم قاتلوا بالرماح لكنها لم تنفعهم، وضاربوا بالسيوف لكنها لم تقطع، قال: (1)

{البسيط}

فصَبَّحَتْهُمْ جَنُودُ اللَّهِ بِأُطْشَةٍ	وَالصُّبْحُ مِنْ عِبَرَاتِ الْفَجْرِ فِي مُسْكٍ
مِنْ كُلِّ مُبْتَدِرٍ كَالنَّجْمِ مِنْكَدِرٍ	تَفِيضُ أَنْفُسُهُمْ غَيْظًا مِنَ الْمَسَاكِ
فَطَاعَنُوكُمْ بِأَرْمَاحٍ وَمَا طَعَنْتُ	وَضَارِبُوكُمْ بِأَسْيَافٍ وَلَمْ تَحِكْ

ثم أتى بصورة جميلة رائعة للطيور وهي عاكفة، والوحوش وهي واقفة، وذلك بسبب أنها أتخمت من كثرة ما أكلت من لحومهم، ثم يتمنى لها أن تأكل هنيئاً مريئاً، وأن تشكر الملك تاشفين ابن علي الذي يطعمها في كل معركة: قال: (2)

{البسيط}

فَالطَّيْرُ عَاكِفَةٌ وَالْوَحْشُ وَاقِفَةٌ	قَدْ أَتَقَلَّتْهَا لَحُومُ الْقَوْمِ عَنْ حَرَكَ
عَدَتْ عَلَى كُلِّ عَادٍ مِنْهُمْ أُسْرٌ	بَعَثَ فِي حَنْجَرٍ رَحْبٍ وَفِي حَنَكٍ
كُلِّي هَنِيئاً مَرِيئاً وَاشْكُرِي مَلِكاً	قَرَنَكَ أَسْيَافَهُ فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ

ثم يشير إلى أن تاشفين رجل محارب معفر بالغبار، ملتئم بالموت، يحمل على جوانبه السيوف، ومن حوله أصحاب الرأي والمشورة، ثم يوجه خطابه إلى تاشفين عالي الهمة الذي يسمو إلى رضا الله، ويشير إلى أثر النصر على أمير المؤمنين، حيث ابيض وجهه وتهلّل بهذا النصر، وقد كانت البلاد قبله تحت ظلام الإلحاد، يقول: (3)

{البسيط}

بِالنَّقْعِ مَرَّتَكُمْ بِالمَوْتِ مُلْتَمِّمٌ بِالْبَيْضِ مُشْتَمِلٌ بِالشَّمْرِ مُحْتَبِكٌ

{البسيط}

ويقول: (4)

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ السَّامِيُّ بِهَمَّتِهِ إِلَى رِضَا اللَّهِ لَا تَعْدِمُ رِضَا الْمَلِكِ

(1) ابن الخطيب، الإحاطة ، 273/2.

(2) ابن الخطيب، م.ن ، 273/2.

(3) ابن الخطيب، م.ن، 273/2.

(4) ابن الخطيب، م.ن، 273/2.

ما زلت تُسمِعُهُ بُشْرَى وتُطْلِعُهُ
أبْيَضَ وَجْهَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا
فَاسْتَشْعَرَ النَّصْرَ وَاهْتَزَّتْ مَنَابِرُهُ
أُخْرَى كَدْرٌ عَلَى الْأَجْيَادِ مُنْسَلِكِ
وَالْأَرْضُ مِنْ ظُلْمَةِ الْإِلْحَادِ فِي حَلَكِ
بِذِكْرِ أَرْوَغٍ لِلْكَفَّارِ مُحْتَكِكِ

ومدح أبو عبد الله بن أبي الخصال أبا يحيى محمد بن الحاج ملك قرطبة، فقال: (1)

{الطويل}

أَكْعَبَةَ عَلِيَاءٍ وَهَضْبَةَ سُودَدٍ
وَرَوْضَةَ مَجْدٍ بِالْمَفَاخِرِ تُمْطِرُ
هَنِيئاً لِمُلْكِ زَانَ نُورِكَ أَفْقَهُ
وَفِي صَفْحَتَيْهِ مِنْ مَضَائِكَ أَسْطَرُ
وَإِنِّي لَخَفَّاقُ الْجَنَاحِينَ كُلِّمَا
سَرَى لَكَ ذِكْرٌ أَوْ نَسِيمٌ مَعْطَرُ

هنا يمدح أبا عبد الله بن أبي الخصال ملك قرطبة، فيجعله كعبة الملوك، وهضبة السيادة، وروضة المجد والمعروف، وهو أمام شعبه من ينير لهم الدرب، ويكتب التاريخ، وعليه يحق لشعبه أن يفخر به. أما بالنسبة له فإن قلبه يهفو حبا له كلما ذكر أو هب نسيم من مكان سكناه.

ومدح أبو العلاء ابن زهر (2) حسام الدولة عبد الملك بن هذيل بن خلف، من آل رزين، أبو

{الكامل}

مروان، ، فقال: (3)

يَا صَارِماً حَسَنَ الْعَدَا بِمُضَائِهِ
وَتَعَبَّدَ الْأَحْرَارُ حُسْنَ وَفَائِهِ
مَا أَثَّرَ الْعَضْبُ (4) الْحَسَامُ بِذَاتِهِ
إِلَّا بَأْنَ سَمَّيْتَ مِنْ أَسْمَائِهِ

فهو سيف قاطع جعل الأعداء يسيرون سيرة حسنة خوفاً، وملك الأحرار بحسن وفائه.

{الطويل}

وقد مدح ابن حزم رجلاً، فقال: (5)

(1) المقرئ، نفح الطيب 30/7 .

(2) زهر بن عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر الإيادي، أبو العلاء، من بني إياد، (ت525هـ)، فيلسوف، طبيب، من أهل إشبيلية، نشأ في شرق الأندلس، وسكن قرطبة، واشتغل بالحديث والأدب، ثم أقبل على الطب، من مؤلفاته: الطرر (في الطب)، والخواص، والأدوية المفردة (لم يكمله)، وحل شكوك الرازي على كتب جالينوس، ونكب في آخر عمره بقرطبة، وتوفي بها، وحُمل إلى إشبيلية. ترجمته في ابن بسام، الذخيرة، 218/3؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 517/1؛ الزركلي، الأعلام، 50/3.

(3) المقرئ، م، س، 433/3.

(4) العضب: السيف القاطع، ابن منظور، لسان العرب، مادة عضب .

(5) ابن حزم، طوق الحمامة، ص239.

رَأَيْتُكَ رَحْبَ الصَّدْرِ تَرْضَى بِمَا أَتَى وَأَفْضَلُ شَيْءٍ أَنْ تَلِينَ وَتَسْمَحَا

فهو يمدحه على رحابة صدره ولينه وسماحته مع الناس.

وقال الإلبيري يمدح القاضي ابن توبة: (1)

{الخفيف}

بِعَلِيِّ بْنِ تَوْبَةَ فَازَ قِدْحِي	وَسَمَتِ هِمَّتِي عَلَى الْجَوَازِ
فَهَنِيئاً لَنَا وَلِلدِّينِ قَاضٍ	مِثْلُهُ عَالِمٌ بِفَصْلِ الْقَضَاءِ
يَحْسُمُ الْأَمْرَ بِالسِّيَاسَةِ وَالْعَدِ	لِ كَحَسْمِ الْحُسَامِ لِلْأَعْدَاءِ
لَوْ إِيَّاسٌ يَلْقَاهُ قَالَ اعْتِرَافاً	غَلِطَ الْوَاصِفُونَ لِي بِالذِّكَاةِ
وَلَوْ أَنَّ الدُّهَاءَ مِنْ كُلِّ عَصْرِ	خَبَرُوهُ دَانُوا لَهُ بِالْدُّهَاءِ
أَوْ رَأَى أَحْنَفٌ أَوْ أَحْلَمٌ مِنْهُ	حِلْمُهُ مَا انْتَمَوْا إِلَى الْحُلَمَاءِ
لَوْ رَأَى الْمُنْصِفُونَ بَحْرَ نَدَاهُ	جَعَلُوا حَاتِماً مِنَ الْبُخْلَاءِ
هُوَ أَوْفَى مِنَ السَّمَوَاتِ عَهْداً	وَلَمَّا زَالَ مُغْرَمًا بِالْوَفَاءِ
يَشْهَدُ الْعَالَمُونَ فِي كُلِّ فَنٍّ	أَنَّهُ كَالشَّهَابِ فِي الْعُلَمَاءِ
وَقُضَاةُ الزَّمَانِ أَرْضٌ لَدَيْهِ	وَهُوَ مِنْ فَوْقِهِمْ كَأَفْقِ السَّمَاءِ

فهو قاضٍ عالم بفصل القضاء، يحسم الأمر بالسياسة والعدل، لو لقيه إياس لاعتترف بذكائه، ولو خبره الدهاء لدانوا له بالدهاء، ولو رأى أحنف بن قيس حلمه، ما انتمى إلى الحكماء، وهو أكرم من حاتم، وأوفى من السموات، وهو كالشهاب في كل فنٍّ، وهو أعلى من القضاة، فهو كالسماة بالنسبة إليهم.

وقد مدح الإلبيري القائد ابن سلمان، حيث إنَّ الملك ما توجَّ واستقرَّ إلا به، ولا يُشَدُّ أزرُ السلطان إلا به، وعزيمته أسرع من الريح، وأسرع من الجياد، وأصبحت الأندلس تنافس العراق (العراقان)، قال: (2)

{البسيط}

مَا تُوِّجَ الْمَلِكُ إِلَّا بِابْنِ سَلْمَانَ وَلَا يُشَدُّ سِوَاهُ أَزْرَ سُلْطَانَ

(1) الإلبيري، الديوان، ص 87 .

(2) الإلبيري، م.ن، ص 106 .

ما الريحُ في سِيرِها تَحْكِي عَزَائِمَهُ
كَانَتْ جَزِيرَتُنَا مِنْ قَبْلُ أُنْدُلُساً
إِلَّا الْجِيَادُ إِذَا جَدَّتْ بِأَقْرَانِ
فَمَذْ نَشَأَتْ بِهَا فَهِيَ الْعِرَاقَانِ

نلاحظ مما سبق أن المدح في شعر الفقهاء في هذه الحقبة كان يتسم بما يأتي:

1- تتراوح أشعار المدح بين النتفة، والقصيدة الكاملة التي وصلت في بعضها إلى عشرات الأبيات.

2- استمد كثير من الفقهاء الصفات التي أضفوها على ممدوحهم من الشريعة الإسلامية، فهم قدوة المجتمع، لذلك وصفوا ممدوحهم بالصفات الحسنة، مثل: الكرم والشجاعة والمروءة، ووصفوا القادة بصفات، مثل: الصارم، وإمام الهدى، والعالي، وشبهوهم بالكعبة، والقمر، وبدر السيادة، والبحر، والأسد.

3- لم يكن الباعث الوحيد من المدح مكسباً مادياً، أو النفاق والتزلف، فلم يتوسلوا للحكام ولم يستجدوهم، ولعل ذلك يرجع إلى المكانة العالية التي كانت للفقهاء في المجتمع، فالحاكم بحاجة إلى الشاعر وليس العكس.

4- كان مدحهم يصدر عن عاطفة صادقة -غالباً-؛ وذلك لأنهم لم يتكسبوا بشعرهم، ولم يطلبوا من ممدوحهم أية مكاسب؛ نظراً لعلو مكانتهم في المجتمع.

المبحث الثالث: الهجاء:

إذا كان الفقهاء قد تحصنوا بالعلم وتأدبوا بالدين، فإن ذلك لم يكن يمنعهم من الهجاء. (1)

لكن الهجاء جاء قليلاً في شعر الفقهاء، فلم يقل الواحد منهم إلا بضعة أبيات، وبعضهم لم يكن له أي بيت، وكان الفقيه لا يسالك في هجائه سبيل السباب والفحش، بل يلجأ في الغالب إلى الكناية والتلميح، وربما لا يلجأ إلى التصريح والتعريض بالمهجو، وهي أشبه بالصور الكاريكاتورية، التي تشفّ عن روح خفيفة وطبع مرح، وتتعد بشعر الهجاء عن مفهومه المعهود عند غيرهم من الشعراء، الذي يشنع بأخلاق المهجو، كما عند جرير والفرزدق، ويقع في عرضه، ويجعله مضغة في الأفواه، ولا غرو في ذلك، فإن أصحابها من أهل العلم، وللناس فيهم قدوة حسنة. (2)

قال ابن العسال⁽³⁾ في هجاء الشاعر أبي عبد الله بن الحداد بالمرية: (4) {السريع}

قالوا ابنُ حدّاد فتى شاعرٌ قلتُ وما شعرُ ابنِ حدّادِ
أشعارُهُ مثلُ فراخِ الزّنا فتشّ تجدُ أخبثَ أولادِ

حيث شبه أشعاره بأولاد الزنا، كناية عن سوء شعره وخبثه.

وقال في هجاء حاسده: (5) {مجزوء الخفيف}

(1) ينظر: عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص 241.

(2) ينظر: عبد الله كنون، أدب الفقهاء، ص 171.

(3) عبد الله بن فرج بن غزلون اليحصبي، يعرف بابن العسال، ويكنى أبا محمد، طليطلي الأصل. سكن غرناطة واستوطنها، كان فذاً في وقته، فقيهاً جليلاً، زاهداً، متقناً، فصيحاً لساناً، الأغلب عليه حفظ الحديث والآداب والنحو، حافظاً، عارفاً بالتفسير، شاعراً مطبوعاً. كان له مجلس، يقرأ عليه فيه الحفظ والتفسير، ويتكلم عليه، ويقصّ من حفظه أحاديث. وألف في أنواع من العلوم، وكان يعظ الناس بجامع غرناطة، توفي عام سبعة وثمانين وأربعمئة، وألحد بمقبرة باب البيرة بين الجبانتين. ويعرف المكان إلى الآن بمقبرة العسال. وقد نيّف على الثمانين. ترجمته في ابن بسام، الذخيرة، 523/3؛ ابن بشكوال، الصلة، 415/1؛ ابن الخطيب، الإحاطة، 353/3.

(4) ابن بسام، م، ن، 894/2.

(5) ابن بسام، م، ن، 896/2.

حاسدي لي مُعَذَّبٌ يتلقى مِنَ الحَسَدِ
وأنا عنه غافلٌ لا وجدتُ الذي يَجِدُ
دَعُهُ يشقى بِدَائِهِ داؤُهُ عَلَّاءُ الكَبَدِ
طارَ ذكري ولم يَطِرْ ذكرُهُ فَهُوَ يَتَّقِدُ

إنَّه لا يهتم به وهو متغافل عنه، وقد صار صيته ذائعاً عند الناس، أما حاسده فهو يغلي ناراً من الحسد.

وقال أبو العلاء ابن زهر هاجياً الإمام أبا بكر ابن باجة: ⁽¹⁾ {السريع}

لا بُدَّ للزُّنْدِيقِ أَنْ يُصَلِّبَا شاءَ الَّذِي يعضُّهُ أو أَبَى
قَدْ مَهَّدَ الجذعُ لَهُ نَفْسَهُ وسَدَّدَ الرُّمْحُ إِلَيْهِ الشَّابَا

والذي يعضده مالك بن وهب جليس أمير المسلمين وعالمه.

وقد هجا ابن حزم المعتمد بن عباد لإحراقه كتبه، فقال: ⁽²⁾ {الطويل}

فإنَّ تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الَّذِي تضمَّنهُ القرطاسُ بَلْ هُوَ فِي صَدْرِي
يسيرُ معي حيثُ اسْتَقَلَّتْ رِكائِبِي وينزلُ إنْ أنزلَ ويدفنُ في قَبْرِي
دَعُونِي مِنْ إِحْراقِ رَقٍّ وكاغِدِ وقولوا بعلمِ كَيْ يرى النَّاسُ مَنْ يَدْرِي
وإلا فعودوا في المكاتبِ بداءَةً فكمْ دونَ ما تبغونَ لِلَّهِ مِنْ سِتْرٍ

وهو هنا يشير إلى أن كتبه محفوظة في صدره، فإن أحرقوا الورق فإنهم لا يمكن أن يصلوا إليها، وستبقى معه في حله وترحاله، حتى لو نزل القبر، فهو يسخر منهم، ويبين أن الله قد تكفل بحفظ علمه.

وهجا ابن حزم عبيد الله بن يحيى الأزدي المعروف بابن الجزيري، قال: ⁽³⁾ {الطويل}

(1) المقرئ، نفح الطيب، 434/3 .

(2) ابن حزم، الديوان، ص88.

(3) ابن حزم، رسائل ابن حزم، 279/1.

أَبَاحَ أَبُو مَرْوَانَ حَرّاً نِسَائِهِ لِيَبْلُغَ مَا يَهْوَى مِنَ الرَّشَاءِ الْفَرْدِ
فَعَاتَبَتْهُ الدِّيُوثُ فِي قُبْحِ فِعْلِهِ فَأَنْشَدَنِي إِنْشَادَ مُسْتَبْصِرٍ جَلْدِ

فقد رضي إهمال داره وإباحة عرض حريمه طمعاً في الحصول على بغيته من فتى علقه، ما جعله يعاتبه على سوء فعلته.

وهجا أبو إسحاق الإلبيري أهل النار، فقال: (1)

{السريع}

وَيْلٌ لَأَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ مَاذَا يُقَاسُونَ مِنَ النَّارِ

حيث يشير إلى ما يعانونه في النار من ألوان العذاب.

كما هجا رجلاً يجرُّ ثيابه خيلاء في يوم عيد، ويقال: إنه ابن أبي رجاء، قال: (2)

{البسيط}

مَا عَيْدُكَ الْفَخْمُ إِلَّا يَوْمَ يُغْفَرُ لَكَ لَا أَنْ تَجُرَّ بِهِ مُسْتَكْبِراً حُلَّكَ
كَمْ مِنْ جَدِيدِ ثِيَابٍ دِينُهُ خَلَقَ تَكَادُ تَلْعَنُهُ الْأَقْطَارُ حَيْثُ سَاكَ
وَكَمْ مَرْقَعٍ أَطْمَارٍ جَدِيدٍ تُقَى بَكَتْ عَلَيْهِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ حِينَ هَلَكَ
مَا ضَرَّ ذَلِكَ طِمْرَاهُ وَلَا نَفَعَتْ هَذَا حُلَاهُ وَلَا أَنَّ الرِّقَابَ مَلَكَ

فهو يبين أن ما يلبسه من ثياب جديدة يتبختر بها لن تنفعه، وكثير ممن يلبس الثوب الجديد تلعنه الدنيا حيثما حل، وكثير ممن يلبس الثياب المرقعة بكت عليهم السماء كناية عن الحزن، فليس المهم اللباس.

وقال أيضاً يهجو رجلاً من الفقهاء كان يطلب الكيمياء: (3)

{السريع}

مَا أَمِيلَ النَّفْسَ إِلَى الْبَاطِلِ وَأَهْوَنَ الدُّنْيَا عَلَى الْعَاقِلِ
تُرْضِي الْفَتَى فِي عَاجِلِ شَهْوَةٍ لَوْ خَسِرَ الْجَنَّةَ فِي الْآجِلِ
يَبِيعُ مَا يَبْقَى بِمَا يَنْقُضِي فَعَلَ السَّافِيهِ الْأَحْمَقُ الْجَاهِلِ

(1) الإلبيري، الديوان، ص. 9.

(2) الإلبيري، م. ن، ص 70.

(3) الإلبيري، م. ن، ص 59.

يَا مَنْ رَأَى لِي عَالِماً عَامِلاً فَالْزَمُ الْخِدْمَةَ لِلْعَامِلِ
أَمْ مَنْ رَأَى عَالِماً سَاكِتاً وَعَقْلُهُ فِي عَالَمٍ جَائِلِ
يَسْرَحُ فِي زَهْرِ رِيَاضِ النُّهَى لَيْسَتْ كَرَوْضٍ مَاحِلٍ ذَابِلِ

حيث بين ميل النفس إلى الباطل، وبين أن هذا العالم يجيل عقله في العالم، يسرح بعقله في الأزهار.

وقال يهجو أهل البيرة الذين رفعوا دعوى على قاضيهم محمد بن عبد الملك بن أبي زمنين: (1)

{الطويل}

رَفَعْتُمْ عَلَى قَاضِيكُمْ فَخَفَضْتُمْ وَحَاوَلْتُمْ خَزِيئاً لَهُ فَخَزَيْتُمْ
وَطَالَ لَعْمَرِي مَا سَعِدْتُمْ بِسَعْدِهِ وَلَوْ أَنَّهُ يَشْقَى إِذَنْ لَشَقِيتُمْ
وَمَا كَانَ إِلَّا سِتْرَكُمْ لَوْ عَقَلْتُمْ وَلَكِنَّكُمْ عَنْ رُشْدِكُمْ قَدْ عَمِيتُمْ
فَهَا هُوَ ذَا يَقْضِي عَلَى الرُّغْمِ مِنْكُمْ فَمُوتُوا بَغِیْظٍ وَاصْنَعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ

فهو يشير إلى أن رفعهم الدعوى ضد قاضيهم لم يفدهم شيئاً، وما زال يقضي بينهم، ويتمنى أن يموتوا بغیظهم، ويفعلوا ما يشاؤون.

وهجا باديس بن حبوس صاحب غرناطة ؛ لأنه وضع اليهودي ابن النُّغْلَةِ وزيراً وكتائباً في صنهاجة، حيث بين فيها حجم الخطأ الذي ارتكبه باديس، ولامه على ذلك لوماً شديداً؛ لأنه قد وطّد مكانة اليهود، وجعلهم أسياداً على المسلمين، وبين فسادهم وأذاهم وتخريبهم، ووصفهم بالفاسقين، والعابثين، والملعونين، والخونة، ثم يختم الأبيات بنصيحة يسديها إلى باديس، وهي أن يقوم بذبحه، ويتقرب به إلى الله كما فعل إبراهيم عليه السلام، فقال عن إعزاز اليهود به وإذلال المسلمين: (2)

{المقارب}

(1) الإلبيري، الديوان، ص 107 .

(2) الإلبيري، م. ن، ص 96 .

لَقَدْ زَلَّ سَيِّدُكُمْ زَلَّةً
تَخَيَّرَ كَاتِبَهُ كَافِرًا
فَعَزَّ الْيَهُودُ بِهِ وَانْتَخَوْا
وَنَالُوا مِنْهُمْ وَجَازُوا الْمَدَى
وتحدث عن صفات اليهود وأعمالهم، فقال: (1)

تَقَرُّ بِهَا أَعْيُنُ الشَّامِتِينَ
وَلَوْ شَاءَ كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ
وَتَاهُوا وَكَانُوا مِنَ الْأَرْذَلِينَ
فَإِنَّ الْهَلَاكَ وَمَا يَشْعُرُونَ
{المقارب}

وَكَيْفَ تُحِبُّ فِرَاحَ الزِّنَا
وَكَيْفَ يَتِمُّ لَكَ الْمُرتَقَى
وَكَيْفَ اسْتَمْتَمْتَ إِلَى فَاسِقٍ
وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي وَحْيِهِ
فَلَا تَتَّخِذْ مِنْهُمْ خَادِمًا
فَقَدْ ضَجَّتِ الْأَرْضُ مِنْ فِسْقِهِمْ

وَهُمْ بَغْضُوكَ إِلَى الْعَالَمِينَ
إِذَا كُنْتَ تَبْنِي وَهُمْ يَهْدِمُونَ
وَقَارَنْتَهُ وَهُوَ بَيْسَ الْقَرِينِ
يُحَذِّرُ عَنْ صُحْبَةِ الْفَاسِقِينَ
وَذَرَهُمْ إِلَى لَعْنَةِ اللَّاعِنِينَ
وَكَادَتْ تَمِيدُ بِنَا أَجْمَعِينَ

كما هجا اليهود، وقدم شهادته على فسادهم، فقال: (2)

{المقارب}

وَإِنِّي احْتَالَلتُ بِغَرْنَاطَةٍ
وَقَدْ قَسَّموها وَأَعْمَالُهَا
وَهُمْ يَقْبِضُونَ جَبَايَاتِهَا
وَهُمْ يَلْبَسُونَ رَفِيعَ الْكُسا

فَكُنْتُ أَرَاهُمْ بِهَا عَابِثِينَ
فَمِنْهُمْ بِكُلِّ مَكَانٍ لَعِينٌ
وَهُمْ يَخْضِمُونَ وَهُمْ يَقْضِمُونَ
وَأَنْتُمْ لِأَوْضَاعِهَا لَابِسُونَ

وأنهاها بالتحريض على قتله، فقال: (3)

{المقارب}

فَبَادِرْ إِلَى ذَبْحِهِ قُرْبَةً

وَضَحِّ بِهِ فَهُوَ كَبِشٌ سَمِينٌ

(1) الإلبيري، الديوان، ص 96 .

(2) الإلبيري، م. ن، ص 96 .

(3) الإلبيري، م. ن، ص 96 .

المبحث الرابع: الفخر:

الفخر في شعر فقهاء الأندلس قليل، وقد جاء مختلطاً بأغراض أخرى، مثل: المدح والحكمة، حيث باهى الشعراء الفقهاء بأشعارهم، وتفاخروا بالعلوم والمعارف والفصاحة والبلاغة والأخلاق العالية من جرأة النفس والشجاعة والكرم.

وقد اهتموا بالفخر الذاتي، أما الفخر القبلي فلم يظهر فيما وجدته من الشعر، ولعل ذلك يعود إلى نهى الدين الإسلامي عن التعصب القبلي، حيث قال الرسول، صلى الله عليه وسلم: "دعوها فإنها منتنة".⁽¹⁾

الفخر الذاتي:

فخر عدد من الشعراء بعلمهم، وشعرهم، وصبرهم، وعزمهم، إذ فخر أبو أمية إبراهيم بن عصام⁽²⁾ على ذي الوزارتين أبي الحسن جعفر بن الحاج، فقال:⁽³⁾ {الكامل}

الْفَخْرُ يَا أَبَى وَالسَّيَادَةُ تَحْجُرُ أَنْ يَسْتَبِيحَ حِمَى الْوَقَارِ مُزَوَّرُ
وَلَدِي إِنْ نَفَثَ الصَّدِيقُ لِرَاحَةٍ صَبْرُ الْوَفَاءِ وَشِيْمَةٌ لَا تَغْدِرُ

إنه يفخر على ابن الحاج بصبره ووفائه وعدم غدره.

وفخر ثانية بعزيمته وإعذاره أصدقاءه ، فقال:⁽⁴⁾ {الطويل}

كُتِبَتْ وَعِنْدِي لِلنِّزَاعِ عَزِيمَةٌ تُسَهِّلُ تَجَشُّيمَ الْلِقَاءِ عَلَى بُعْدِ
وَإِنْ عَاقَ مِنْ عَهْدٍ لِبِرِّكَ عَاتِقُ تَلَطَّفْتُ فِي الْعَذْرِ الْجَمِيلِ إِلَى وَدِّي

(1) مسلم، الصحيح، 1999/4، رقم الحديث 2584.

(2) إبراهيم بن عصام، أبو أمية القاضي بمرسية، فقيه أديب شاعر من أهل بيت جلالة ووزارة، كان بليغاً متصرفاً في أنواع البلاغة، توفي أبو أمية سنة ست عشرة وخمسة. ترجمته في ابن خاقان، قلاند العقيان، 202/1؛ الأصفهاني، الخريدة، 931/2؛ الضبي، بغية الملتبس، 222/1؛ ابن سعيد، المغرب، 258/2.

(3) ابن سعيد، م.ن، 258/2؛ الأصفهاني، م.ن، 487/3.

(4) الأصفهاني، م.ن، 487/3.

وفخر الفقيه أبو بكر الطرطوشي، بعلمه وشعره وأدبه، الذي يبقى على مدى الأيام، عندما
أهدى كتابه (سراج الملوك) لحاكم مصر، فقال: (1)

{السريع}

النَّاسُ يَهْدُونَ عَلَى قَدَرِهِمْ لَكِنِّي أَهْدِي عَلَى قَدَرِي
يَهْدُونَ مَا يَفْنَى وَأَهْدِي الَّذِي يَبْقَى عَلَى الْإَيَّامِ وَالذَّهْرِ

وافتخر بعزمه، فقال: (2)

{المتقارب}

كَأَنَّ لِسَانِي وَالْمَشْكَلَاتِ سَنَا الصَّبْحَ يَنْحَرُ لَيْلاً بِهِمَا
وغيري إن رام ما رمته خَصِيٌّ يَحَاوِلُ فَرْجاً عَقِيماً

فهو قادر على حل المشاكل، قدرة الصبح على إنارة الظلام، فيما غيره عاجز عن ذلك عجز
الخصي.

وافتخر أبو عبد الله بن أبي الخصال بشجاعته، فقال: (3)

{مجزوء الخفيف}

أَنَا كَاللَّيْثِ وَاللَّيْثُ ثُ لَأَرْسُلَانَهَا تُرْعَ (4)
أَنَا كَالسَّيْفِ حَدَّهُ لَا يَبَالِي بِمَا وَقَعَ

فهو يفخر بأنه ليث في اقتحام الصعاب، وسيف في مضائه لا يبالي بما يقع عليه.

وفخر ابن حزم بعصاميته، فقال: (5)

{الطويل}

سَمَوْتُ بِنَفْسِي لَا بِمَجْدِ هَوَتْ بِهِ مِنْ الزَّمَنِ الْغَدَارِ آلَاتُهُ الْحَذْبُ
وإن شئت أخبار الدهور فإنني أنا جامع التاريخ مذ نبت الهُضْبُ
يسافر علمي حيث سافرت طاعناً ويصحبني حيث استقلت بي الركبُ
أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعِي الغربُ

(1) المقرئ، نفح الطيب، 89/2.

(2) المقرئ، م، ن، 90/2.

(3) ابن الخطيب، الإحاطة، 287/2.

(4) ترع: تقتحم، ابن منظور، لسان العرب، مادة ترع.

(5) ابن حزم، الديوان، ص75.

فهو يفخر بعصاميته، وجمعه للعلوم وتحصيلها، بحيث أصبح كالشمس بين علماء عصره.

{الطويل}

وفخر ثانية بصفاته، فقال: (1)

صبورٌ على الأزم (3) الذي العزُّ خلفه ولو أمطرتُهُ بالحريقِ سحبُ
جَزوع من الراحة أن أنتجت له خُمولاً وفي بعضِ النعيمِ عذابُ

إنه يفخر بصبره أوقات الشدة، وبأنه لا يحب الراحة؛ لأنها تجلب له الخمول.

{الطويل}

وفخر بعلو مكانته، فقال: (2)

يُنْزِلُ لِيَ الْأَمْلَاقُ حُرَّ نفوسِها وأركبُ ظَهْرَ النَّسْرِ والنَّسْرُ طائرُ
وأبعثُ في أهل الزمانِ شوارداً تليّئُهمُ وهَيَّ الصَّعَابُ النَّوافِرُ
فإن أثو في أرضٍ فإنِّي سائرُ وإن أناً عَنْ قَوْمٍ فَإِنِّي حاضِرُ

وهو هنا يفخر بأن الأملاك تذلل نفوسها له، وبمكانته العالية علو النسر، وبشعره الذي يلين قراءه، وعدم خموله وشيوع صيته.

{الطويل}

وفخر على ابن عم له، فقال: (3)

وقولي مسموعٌ له ومصدّقُ وقولك مُنْبَتٌ مَعَ الرِّيحِ طائرُ
وإنِّي وإن أذيتتني وعفقتني لمُحْتَمِلٌ ما جاءني منك صابرُ

إنه مسموع القول مصدّقه، فيما ابن عمه غير مسموع مكذّب، وهو يصبر على عقوقه.

(1) المقرّي، نفح الطيب، 79/2 .

(3) الأزم: الشدة، ابن منظور، لسان العرب، مادة أزم.

(2) ابن حزم، الديوان ، ص92.

(3) ابن حزم، م.ن، ص 91.

وفخر الإلبيري بشعره، فقال: (1) {الخفيف}

فَأَنَا مُفْجِعٌ عَلَى أَنْ خَيْلِي لَا تُجَارِي فِي حَابَةِ الشُّعْرَاءِ

فهو يفخر بأن أحداً من الشعراء لا يجاري شعره.

هكذا كان الفخر عند شعراء الأندلس الفقهاء في عصري ملوك الطوائف والمرابطين ،
حيث فخر الشعراء بعلمهم وشجاعتهم وصبرهم.

(1) الإلبيري، الديوان، ص 89 .

المبحث الخامس: الرثاء

يُعَدّ الرثاء من الموضوعات البارزة في شعرنا العربي، فدواوين الشعر العربي والمصادر الأدبية تزخر بتراث ضخم من المراثي الرائعة، فقد كان الرثاء غرضاً أساسياً في العصر الجاهلي، وعندما جاء الإسلام صار يطعم بالمعاني والمصطلحات الإسلامية، وتأثر فيه الشعراء بسنة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وصاروا يجعلون العبرة والاعتبار هدفاً من الرثاء.

وسبيل الفقهاء في الرثاء هو سبيلهم في المدح، فقد كان الشعراء كلما دهم الموت قريباً أو عزيزاً لهم فجعوا به، ورثوه؛ فمن فطرة الإنسان أن ينظر إلى أقاربه وأهله وذويه نظرة خاصة، يشحنها بالعطف والحب؛ لأنّ في نفسه ذكريات جميلة مع هؤلاء، أكل ممّا أكلوا، وربما لبس ما لبسوا، كما رثوا الوزراء والعلماء والقادة الذين يسعون لرفع راية الحق ونشر الدين وربما رثوا أنفسهم.⁽¹⁾

وكان رثاؤهم للممالك الزائلة أكثر روعة، فقد أشجاهم أن يروا ديارهم تسقط بلداً إثر بلد في أيدي النصاري، فبكوها بكاء من يبكي على فراق وطن أحبه وارتبط به ارتباطاً وثيقاً، فعاش فيه رخاء أيامه.⁽²⁾

وقد تفجعوا على الميت ووصفوا المصيبة، وعدّدوا المناقب، وعبروا عن الفجيعة، وكانوا يستهلون مراثيهم بالحكم.

وشعر الرثاء صادق العاطفة، يقال وفاء لولد أو لصديق، أو لمن هم في منزلة الأحاب والأصدقاء، فينبعث من عاطفة صادقة، ولا يكون مجاملة، ولا

(1) ينظر: عبد الله كنون، أدب الفقهاء، ص 175 .

(2) ينظر: جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، ص 114 .

رياء، ولا تكلفاً، لكنّ رثاء الملوك غير صادق العاطفة، ومهما افتتن الشاعر في أسلوبه فإنّ طابع التكلف بادٍ عليه.⁽¹⁾

• رثاء النفس:

ذهب بعض الشعراء إلى رثاء أنفسهم قبل موتهم، ولعلمهم كانوا يريدون توديع الأهل والأصدقاء قبل الوفاة، كما كانوا يريدون تهذيب نفوسهم، وتهيتها للحياة الأخرى، وقد كانوا يريدون الزهد في هذه الحياة الفانية، وممّن رثى نفسه الشاعر الفقيه ابن حزم الأندلسي:⁽²⁾ {الطويل}

كأنك بالزوّار لي قد تبادروا	وقيل لها أودى عليّ بن أحمد
فيا ربّ محزونٍ هناك وضاحكٍ	وكم أدمع تُذرى وخدّ مُخدّد
عفا الله عنّي يوم أرحلُ ظاعناً	عن الأهل محمولاً إلى بطن ملحد
وأترك ما قد كنت مغتبطاً به	وألقى الذي أنست منه بمرصد
فوا راحتي إن كان زادي مقدماً	ويا نصبي الذي أن كنت لم أتزوّد

فالشاعر هنا يرثي نفسه قبل موته، ويتحدث عن القبر، فهو إما أن يرتاح فيه إن كان قد عمل لتلك اللحظة، وإما أن يتعب فيه إن لم يتزوّد ويستعد لهذا اليوم.

• رثاء الأهل والأقارب والأصدقاء:

رثى الفقيه أبو محمد غانم بن وليد أخويه، فقال:⁽³⁾ {السريع}

يا دمع لا تخذل وكنّ مسعداً	لا تخش من صبري أن يمنعك
أخ غريق وأخ في الثرى	وترتجي السلوة ما أطمعك!
إنّ جمود العين خوف العدا	ورقية الحساد لن ينفعك
يا عمراً أعمرت قلبي أسى	ودّع صبري مثملاً ودّعك
رُزئت في الدنيا بذى نصرتي	يا دهر تبال لك ما أفجعك

(1) ينظر: جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، ص114؛ عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص194 .

(2) ابن حزم، الديوان، ص96.

(3) ابن بسام، الذخيرة، 866/2 .

إذ طلب من دمه ألا يخذله، إذ صبره على هذه المصيبة العظيمة هو الذي يمنع دمه من الانهيار، ثم أشار إلى أن أحدهما توفي غريقاً، بينما توفي الآخر وفاة طبيعية، ثم يسخط على الدهر الذي نكبه بمن يعول عليه آماله في نصرته، وله فيهما: (1)

ما طمعي في العيش من بعدما كَدَّرَهُ مَوْتُ شَقِيقًا
كفَّان صافحتُ المنى عنهما فكَّفتُ الأيّامُ كَفَّيًّا
هذا فقيرٌ طاح في قفرةٍ وذا غريقٌ ما أرى حيًّا

ويبدو في الأبيات أن الشاعر لا طمع له في العيش بعد فقدان أخويه، كما يشير إلى طريقة وفاتهما.

وقال ابن حزم في رثاء صديقه أبي عبد الله محمد المعروف بابن الطنبلي: إنني وإن استترت عني في بطن لحدك، فإن محبتي لك لا تستتر، وإنني قد قصدت ديارك لأزورها فوجدتها قفراً لا أحد فيها؛ فانهمرت الدموع من عيني حزناً وأسفاً عليك: (2)

لئن سترتك بطون اللّهود فوجدني بعدك لا يستتر
قصدت ديارك قصد المشوق وللدَّهرِ فينا كروراً ومر
فألقيتها منك قفراً خلاء فأسكبت عيني عليك العبر

وقال أبو إسحاق الإلبيري يرثي امرأته، ويطلب من صديق تخيله أن يعرج على قبرها، وسيعرف مكانها من رائحة طيبة ستهبّ عليه من قبرها، ثم ينتقل إلى الحديث عن أخلاقها، فهي تتصف بالتقوى، والتعفف، وكرم العرق، وطهارة العرض، قال: (3)

عُجَ بِالْمَطِيِّ عَلَى الْيَبَابِ الْغَامِرِ وَارْبَعٌ عَلَى قَبْرِ تَضَمَّنَ نَاطِرِي (4)
فَسَتَسْتَبِينُ مَكَانَهُ بِضَجِّعِهِ وَيَنْمُ مِنْهُ إِلَيْكَ عَرَفُ الْعَاطِرِ
فَلَكُمْ تَضَمَّنَ مِنْ ثَقْيٍ وَتَعْفُفٍ وَكَرِيمِ أَعْرَاقٍ وَعَرْضٍ طَاهِرِ

(1) ابن بسام، الذخيرة، 866/2/1 .

(2) ابن حزم، رسائل ابن حزم، 264/1.

(3) الإلبيري، الديوان، ص 77.

(4) عَج بالمطي: تعطف على المكان، اليباب: الخالي من الناس، ابن منظور، لسان العرب، مادتا عوج، ويب.

وَأَقْرَ السَّلَامَ عَلَيْهِ مِنْ ذِي لَوْعَةٍ صَدَعَتْهُ صَدْعاً مَالَهُ مِنْ جَابِرٍ

وصدور هذه القصيدة عن قلب رجل زاهد يمنحها روعة خاصة؛ فالوفاء أمر طبيعي عند الزُّهَّاد.

ورثي ابن لبَّال والدَةَ الفتح ابن خاقان وكتب إليه معزياً، فقال: (1) {المتقارب}

على مثله من مُصابٍ وَجَبَ على من أُصيب به المُنتَجِبُ (2)

من الجاعلاتِ محاريبِها هوادجَها أبداً والقَتَبُ (3)

من القائماتِ بظلِّ الدُّجى ولا مَنْ تسامرُ إلا الشَّهَبُ

فكم ركعتْ إثرها في الدجى تتاجي بها ربَّها من كَثَبُ

وكم سكبتْ في أوانِ السجود مَدَامَ كالغيثِ لَمَّا انسَكَبُ

وقد خَلَفْتُ ولداً بأسلاً فصيحاً إذا ما قرا أو خَطَبُ

فهو يشير إلى أنَّ وفاة والدَةَ الفتح ابن خاقان مصابٍ عظيم، لكن ممَّا يعزي النفس فيها أنَّها كانت تحافظ على صلاتها، وتقوم الليالي في الدجى تتاجي ربَّها، وكانت كثيرة الدموع خشوعاً وخشية من الله، ومما يعزي النفس فيها أنَّها تركت وراءها ولداً شجاعاً، فصيحاً.

رثاء الفقهاء والعلماء:

رثى الفقهاء الشعراء بعضهم بعضاً، فممن رثى الفقهاء والعلماء أبو محمد غانم بن وليد قال يرثي

الفقيه القاضي أبا علي بن حسون: (4) {الكامل}

الموتُ يُخْبِرُ عن مَرَارَةِ كَاسِهِ والكأسُ مَلَأَى لم يُدْرِها ساق

هَلَا تَوَاصَيْنَا بِصُورَةِ حَالِنَا والنفسُ تَرَقَى في لَهْى وتراق

يَا آمَلَ الدُّنْيَا لِبَاقِي عَمْرِهِ أَقْصَرَ فَمَا أَمَلٌ لَهَا بِطَاقِ

مَعشُوقَةُ الحَرَكَاتِ إِلَّا أَنَّهَا أَفْعَى تَدْبُ لَأَعشَقِ العُشَّاقِ

كَمْ أَوَدَّتِ الدُّنْيَا بَغْضَ شَبِيبَةٍ كَالْغُصْنِ مَاسٍ بِنَاضِرِ الأَوْرَاقِ

(1) المقرئ، نفح الطيب، 232/4 .

(2) المنتجب: المختار أو المصطفى، ابن منظور، لسان العرب، مادة نجب .

(3) القتب: رحل صغير يوضع على البعير، ابن منظور، م، ن، مادة قتب .

(4) ابن بسام، الذخيرة، 867/2 .

تحدث في أولها عن الموت، وكيف أنه شمر عن ساقه، وأنه لا منجى منه، لذلك فإنه يدعو النفس الإنسانية أن تبتعد عن اللهو؛ لأن الموت ربما يفاجئ الإنسان وهو في مراحل الشباب.

ثم وصل إلى رثاء الفقيه القاضي أبي علي حسون، فقال: (1)

{الكامل}

وَلَى حُسَيْنٌ وَالْمَحَامِدُ بَعْدَهُ	كَيْلًا تَقَاسِي جَاحِمَ الْأَشْوَاقِ
أَسْفَى لِرِيَّةٍ (2) كُنْتَ عَقْدَ جَمَالِهَا	أَخَذَ الْأَمَانَ لَهُ مِنَ الْإِخْلَاقِ
تَزْدَانُ مِنْكَ بِحُسْنٍ مَا قَدْ طَوَّقَتْ	زَيْنَ الْحَمَامِ الْوُرُقَ بِالْأَطْوَاقِ
عِلْمٌ أَعْيَنَ بِفَضْلِ حِلْمٍ رَاجِحٍ	فَابْتَرَّ ذَاكَ الْعَقْدُ دُونَ وَفَاقِ
وَصَبَاحَةٌ وَسَمَاحَةٌ قُسِمَتْ لَهُ	رِزْقًا تَبَارَكَ قَاسِمُ الْأَرْزَاقِ
وَمِنَ الْغَرِيبِ غُرُوبُ شَمْسٍ فِي الثَّرَى	وَضِيَاؤُهَا بَاقٍ عَلَى الْآفَاقِ
أَبْقَيْتَ فِي الدُّنْيَا مَآثِرَ ثَرَّةٍ	تَبْلَى حُلَى الْأَيَّامِ وَهِيَ بَوَاقِ
قَدْ كَانَ مَجْلِسُكَ الْمُبَارَكُ مُوسِمًا	فَأَقَامَ أَوْحَشَ مِنْ غَدَاةٍ فِرَاقِ
غُيِّبَتْ عَنْهُ مَغِيبَ بَدْرِ كَامِلٍ	وَاللَّيْلُ أَدْهَمُ ضَارِبٍ بِرُؤُوقِ
وَمِنَ الْعَجَائِبِ وَالْكَسُوفِ مَرْتَّبٌ	قَمَرٌ تَوَارَى فِي زَمَانٍ مَحَاقِ
مَنْ ذَا أُعْزِي فِيكَ مِنْ هَذَا الْوَرَى	لَمْ يَلْقَنِي إِلَّا بِحُزْنِكَ لَاقِ
وَالنَّاسُ مُحْزُونُونَ فِيكَ كَأَنَّمَا	كَانَ اتَّفَاقُهُمْ عَلَى إِصْفَاقِ

فهو هنا بكاه بتذكر صفاته الحميدة التي افتقدها، فقال: إنه عالم جليل موقر، وإنه بحر من العلم، اتصف بالحلم والعلم، والسماحة والصبابة التي كانت سبباً في رزقه، ويشير إلى أن الموت لا يبقى حبراً ولا عالماً، ثم أتى بصورة رائعة، حيث شبه أبا علي حسون بالقمر، وشبه وفاته بالكسوف، ثم أنهى قصيدته بالإشارة إلى أن جميع الناس محزونون على وفاته.

{الطويل}

كما رثى بلقين بن باديس، فقال: (3)

وَقَدْ كُنْتُ أَغْدُو نَحْوَ قَصْرِكَ مَادِحًا فَهَا أَنَا أَشْدُو حَوْلَ قَبْرِكَ ثَاكِلٌ

(1) ابن بسام، الذخيرة ، 867/2.

(2) رية: الاسم القديم لمالقة، ومعناها: سلطنة البلاد، ابن سعيد، المغرب، 423/1.

(3) ابن بسام، م.س، 869/1.

وقد كنتُ في مدحيكَ سحبانَ وائلٍ فها أنا من فرطِ التأسفِ باقلُ

إذ أشار إلى أنه كان يسير إلى قصر بلقين بن باديس مادحاً، ثم شبه نفسه في مدحه له بسحبان وائل الذي يضرب به المثل في الخطابة، حيث كان خطيباً مفوّهاً، وفي تأسفه بباقل؛ الذي يضرب به المثل في الحمق، يقولون: كانت أمه تلقنه اسمه طوال النهار وعند المساء ينسى من هو، ولما يئست منه وضعت في رقبتة قلادة مكتوب عليها اسمه، وذات ليلة حينما نام لبس القلادة أخوه، وعند الصباح رأى القلادة في رقبة أخيه، فسأله متعجباً: أنت أنا فمن أكون أنا؟ وهذا من باب التضمين التاريخي.

ومنهم الوزير الفقيه أبو عبد الله جعفر القيسي أحد أعيان وقته ذكاء ونبلاً، وفضلاً، رثى أبا مروان بن سراج العالم بقصيدة بدأها بالعزاء، وأكد فيها نظرية الفناء، وحتمية الموت، وأنه لا عاصم للإنسان من الموت، ولو كان في مكان عالٍ، أو لو كان قوياً مثل الأسد، قال: (1)

{الكامل}

انظرُ إلى الأطوادِ كيف تزولُ	والحالةِ العلياءِ كيف تحولُ (2)
الموتُ حتمٌ والنفوسُ ودائعُ	والعيشُ نومٌ والمنى تضليلُ
لا يعصمُ العصماءُ منه شاهرُ	صعبٌ ولا الورْدُ السَّبَنْتِي غيلُ (3)
يرمي فما تشوي الرميّةُ نبْلُه	فَيَصَابُ تَنْبَالُ (4) بها ونبيلُ
يهوى الفتى طولَ البقاءِ مؤملاً	وله رحيلُ ليس عنه قُفُولُ (5)
يلهو ويلعبُ مطمئنّاً ذاهلاً	وله رسيمٌ نحوها وذميلُ (6)

(1) ابن بسام، الذخيرة، 2/ 814؛ ابن سعيد، المغرب، 108/1 .

(2) الأطواد: الجبال، الصاحب ابن عباد، المحيط في اللغة، مادة طود.

(3) السبنتي: النمر، وقيل الأسد، غيل: مستقر الأسد، ابن منظور، لسان العرب، مادة سين وغيل .

(4) تنبال: القصير النذل من الرجال، الفراهيدي، العين، مادة تنبل .

(5) قفول: رجوع، الصاحب ابن عباد، المحيط في اللغة، مادة قفل .

(6) رسيم: ضرب من سير الإبل، ذميل: ضرب من سير الإبل، ابن منظور، م، س، مادتا رسم وذمل .

ثم ينتقل إلى تأبين أبي مروان، حيث ذكر الميزات التي كان يتميز بها، حيث إنه برع في علوم الحديث والقرآن، كما أنه كان له باع طويل في النحو وعلم الكلام، يقول: (1) {الكامل}

أودى سراجُ المجدِ وابنُ سراجِه	فلنورِ شمسِ المكرماتِ أفولُ
لو كان علمُ الدينِ يبكي ميّتا	لَبكى الحديثُ عليه والتنزيلُ
كم من حديثٍ للنبيِّ أبانهُ	فبدت له غررٌ تُرى وحُجولُ (2)
كم مُصعَبٍ في النحوِ راضٍ جماعه	حتى غدا والصعبُ منه ذلولُ (3)
أدنى إلى الأفهامِ نائيَ علمها	حتّى تساوى عالمٌ وجهولُ
طَبَّ بأدواءِ الكلامِ مُلقِّنُ	سَهْمٌ على عوراتِه مدلولُ

وممن رثى العلماء وذوي الشأن أبو عبد الله بن أبي الخصال، إذ رثى الفقيد أبا الحسن يونس بن مغيث، وقد بدأها بالعزاء، فقال: إنَّ كلَّ الناسِ سيموتون، والذهر لا يعطي أحداً حصانة من الموت، وما يعزي النفس هو أنَّ موته قد خلَّصه ممَّا كان فيه من أمراض، يقول: (4) {البسيط}

الدهرُ ليسَ على حُرٍّ بمؤتمنٍ	وأَيُّ علقٍ تخطَّته يدُ الزمنِ
يأتي العفاء (5) على الدنيا وساكنها	كأنَّ أدبرَ لم يسكنَ إلى سَكَنِ
يا باكياً فرقةَ الأحبابِ عن شَحَطِ	هلا بكيتَ فراقَ الروحِ للبدنِ
نورٌ تقيَّدُ في طينٍ إلى أجلٍ	وانحازَ غنواً وخلقى الطينَ في الكفنِ
كالطيرِ في شركٍ يسمو إلى دركٍ	حتى تخلصَ من سَقَمٍ ومن دَرَنِ

ثم يؤبنه إلا أنه بفقده قد أصبح الشاعر مغترباً وإن لم يبتعد عن وطنه، وأنه رجل مهاب، سيلقى الرسول بسبب الصلوات التي يصلِّيها، ويشير إلى أنه من قبيلة مُضَرَ العريقة من اليمن، ثم

(1) ابن بسام، الذخيرة، 815/2.

(2) غرر: أثن جزء في الشيء، حجول: خلاخيل، ابن منظور، لسان العرب، مادتا غرر، وحجل.

(3) راض: ذل، الأزهري، تهذيب اللغة، مادة راض .

(4) ابن الخطيب، الإحاطة، 274/2.

(5) العفاء: الهلاك، الجوهري، الصحاح، مادة عفا .

يدعو له أن يوسع الله عليه قبره، وإن كان جسمه قد تغطى بالتراب، فإنه سيغطى بالحرير في جنان الخلد، يقول: (1)

{البسيط}

يا يونسُ سِرْ أَصَبَّحْنَا لَوْحَشَتِنَا	نشكو اغتراباً وما بنا عن الوطن
طودُ المهابة في الجلا وإن جذبتْ	عنانهُ خلوة هزّت ذراً وتتي
أكرم به سبباً تلقى الرسول به	لخمسٍ واردة في الفرض والسُنن
يا وافد الغيث أوسع قبره نُزْلاً	وروّ ما حول ذاك الدّيم من تُكن (2)
وطبق الأرض وبلاً في شفاعته	فنعم رائدُ ذاك الريف واليمن
وأنت يا أرض كوني مرةً بأبي	مثنى كريم ليوم البعث مُرتَهَن
وإن تردت بترب فيك أعظمه	فكم لها في جنان الخلد من رَدَن (3)

رثاء المدن:

رثى الفقهاء الأندلسيون المدن والممالك الأندلسية التي دمرت في الفتنة البربرية والمدن التي احتلها النصارى، ودمروها، وشرّدوا أهلها، فقال الإلبيري في خراب البيرة سنة (400هـ) في الفتنة البربرية، ووازن بين حالها وهي عامرة بأهلها وعلمائها، وحالها بعد خرابها من الدمار والخراب والمصائب التي حلت بأهلها، يقول: (4)

{الطويل}

يُضَيِّعُ مَفْرُوضٌ وَيَغْفُلُ واجِبُ	وإني على أهل الزمان لعاتبُ
أَتَدَبُّ أَطْلَالَ الْبِلَادِ وَلَا يُرَى	للبيرة منهم على الأرض نادِبُ
على أنها شمسُ البلادِ وأنسُها	وكل سواها وحشةٌ وغياهُبُ

وعند سقوط بربشتر (456هـ) بيد (النورمانديين) أثارت تلك الحادثة مشاعر الفقيه الزاهد ابن العسال، فصور في إحدى قصائده ما حلّ يومئذٍ تصويراً رائعاً، فقد أذاقوا أهلها كثيراً من ضروب الفواجع، وفعلوا بهم الأفاعيل: هتكوا بخیلهم قصور حريمها، ولم يرحموا طفلاً ولا شيخاً

(1) ابن الخطيب، الإحاطة، 275/2، 276.

(2) تكن: حفرة أو قبر، تهذيب اللغة، الأزهرى، مادة تكن .

(3) الردن: الخز، وقيل: الحرير، ابن منظور، لسان العرب، مادة ردن .

(4) الإلبيري، الديوان، ص 73 .

ولا عذراء، ولم يكتفوا بذلك، بل فرقوا الأطفال عن أمهاتهم، وذبحوا الآباء على مرأى من أبنائهم، وهتكوا أعراض الحريم المصونات، يقول: (1)

{الكامل}

ولقد رمانا المشركون بأْسَهُمْ	لم تُخْطِ لَكن شَأْنُهَا الإِصْمَاءُ
هتَكُوا بِخِيلِهِمْ قُصُورَ حَرِيمِهَا	لَمْ يَيْقَ لَا جِبِلٌّ وَلَا بَطْحَاءُ
جاسوا خلال ديارِهِمْ فَلَهُمْ بِهَا	في كُلِّ يَوْمٍ غَارَةٌ شِعْوَاءُ
باتت قُلُوبُ الْمُسْلِمِينَ بِرُءُوسِهِمْ	فَحَمَاتُنَا فِي حَرْبِهِمْ جُبْنَاءُ
كم موضع غَمُوه لم يُرحم به	طفْلٌ وَلَا شَيْخٌ وَلَا عَذْرَاءُ
ولَكَمْ رَضِيعٌ فَرَّقَوه مِنْ أُمِّه	فَلَهُ إِلَيْهَا ضَجَّةٌ وَبُغَاءُ
وَلَرُبَّ مَوْلُودٍ أَبَوه مُجَدَّلٌ	فَوْقَ التُّرَابِ وَفَرَشُهُ الْبِيدَاءُ
ومصونة في خدرها محبوبة	قد أBRزوها ما لها استخفاءُ

ورثى القاضي عياض قرطبة، ودعا الله أن يحفظ أهلها، وأن يرحمها، وأشار إلى أنه كان

{الطويل}

بينهم كمن كان بين أهله وإخوانه، يقول: (2)

رَعَى اللَّهَ جِيرَاناً بِقَرْطَبَةِ الْعَلَا	وَسَقَى رِبَاهَا بِالْعَهَادِ السَّوَاكِبِ (3)
وَحَيًّا زَمَاناً بَيْنَهُمْ قَدْ أَلْفُتْهُ	طَلَيْقَ الْحَيِّمَا مَسْتَلَانَ الْجَوَانِبِ
أَخْوَانُنَا بِاللَّهِ فِيهَا تَذَكَّرُوا	مَعَاهِدَ جَارٍ أَوْ مَوَدَّةَ صَاحِبِ
غَدَوْتُ بِهِمْ مِنْ بَرِّهِمْ وَاحْتِفَائِهِمْ	كَأَنِّي فِي أَهْلِي وَبَيْنَ أَقَارِبِي

(1) الحميري، الروض المعطار 90/1.

(2) الأصفهاني، خريدة القصر، 503/3؛ المقرئ، نفح الطيب، 545/1.

(3) العهد: المطر بعد مطر، الفراهيدي، العين، مادة عهد.

نلاحظ مما سبق أن الرثاء في شعر الفقهاء اتسم بالآتي:

- 1 - لم يختلف رثاء الأندلسيين عن رثاء المشارقة، فكانوا يتفجعون على الميت، ويعظمون المصيبة، ويكون الأهل، والأحبة، والعلماء، والقادة. ورثى بعض الشعراء أنفسهم.
- 2 - صورّ الفقهاء سقوط المدن الأندلسية، مثل إلبيرة، والزهراء، وبربشتر، وقرطبة.
- 3 - تميز الرثاء بعامة ورثاء المدن بخاصة بصدق العاطفة.
- 4 - صورّ رثاء المدن حال المسلمين من ضعف وتفرق تصويراً واقعياً.
- 5 - امتاز شعرهم بالحكمة الصادقة التي نبعت من خبرتهم وتجربتهم المريرة، وكثرت فيه المعاني والمصطلحات الدينية.

المبحث السادس: وصف الطبيعة:

كثرت في الأندلس مظاهر الترف، وتعددت مناظر الجمال، سواء الجمال البشري الأندلسي، أم جمال الطبيعة، وشاعت في الأندلس مناظر طبيعية خلابة لفتت أنظار الشعراء، وأثارت قرائحهم الشعرية، ومن ثم فإنهم كانوا كلما التقوا بها أو واجهوها في مكان أو موقف هزت مشاعرهم وشاعريتهم، وألهمتهم من معانيها ما لا يستطيعون أن يققوا منه مكتوفي الأيدي، إضافة إلى أن محبتهم لطبيعة الأندلس كانت عميقة الجذور، حتى قيل: إنَّ شعر الطبيعة قد اكتملت معالمه واحتلَّ مكاناً واضحاً في الشعر الأندلسي.⁽¹⁾

وقد برع الشعراء في وصف جميع مظاهر الحياة الجديدة؛ كالرياض والبساتين، والأزهار، والمياه الجارية، وظلال الأشجار، والنسيم العليل، ومظاهر العمران والقصور، وغير ذلك مما يتناول الحياة برخائها وطبيعتها الجميلة التي مَنَّ الله بها، وقصورها وساحاتها المرمية التي أبدعتها يد الإنسان.⁽²⁾

كما وصفوا الحروب، والسلاح، والسفن، ولا عجب أن يكون لوصف المعارك نصيب وافر من الشعر في عصر ملوك الطوائف والمرابطين، فإنَّ الحروب بين المسلمين وأعدائهم لم تنقطع، ولم تهدأ حرب إلا لتُشن أخرى، لذلك حفلت مدائح الملوك والأمراء بذكر المعارك والجيوش.⁽³⁾

قال المقرِّي في نفح الطيب عن براعة الأندلسيين في الوصف: "وليسوا بالمقصرين في الوصف إذا تقععت الأسلحة، وسالت خلجان الصوارم بين قضبان الرماح، وبَنَتِ الحرب من العجاج سماء، وأطلعت شبه النجوم أسنَّة وأجرت شبه الشفق دماء، وبالجملة فإنَّهم في جميع الأوصاف والتخيالات أئمة، ومَنْ وقف على أشعارهم في هذا الشأن فضَّلهم فيه على أصناف الأمة، وقد أعانتهم على الشعر أنسابهم العربية، وبقاعهم النضرة وهمهم الأبية."⁽⁴⁾

(1) ينظر: أحمد هيك، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص287؛ مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي: موضوعاته وفنونه، ص247.

(2) ينظر: قاسم الحسيني، الأدب الأندلسي، ص10؛ أحمد ضيف، بلاغة العرب في الأندلس، ص9.

(3) ينظر: قاسم الحسيني، م. ن، ص120.

(4) المقرِّي، نفح الطيب، 155/3.

وقد قسمت حديثي عن الوصف عند الشعراء الفقهاء في الأندلس إلى:

1. طبيعة صامتة: وتقسم إلى:

- طبيعة مطبوعة، وتضم: الليل، والثريا، والنار، والمطر.
- طبيعة مصنوعة، وتضم: المحبرة، والسيف، والكتاب، والثوب، والتماثيل كتمثال الأسد، والفحم، والرمح، والقلم.

2. طبيعة متحركة: وتضم: الروضة، والمتنزه، والربيع، والنجس، والنوار، وشقائق النعمان، ودوحة الخوخ، والمدن، والحمام.

1 - الطبيعة الصامتة، وتقسّم إلى قسمين: الطبيعة المطبوعة، والطبيعة المصنوعة.

أ - الطبيعة المطبوعة:

وقد وصف فيها الشعراء الليل، والنار، والمطر.

فوصف أبو محمد بن عطية المحاربي الليل، فقال: ⁽¹⁾

كأنّما الليل زنجيٌّ كاهله جرح فيثعب ⁽²⁾ أحياناً له بدم

وهو هنا شبه الليل بزنجي في كاهله جرح يسيل دماً أسود.

ووصف أبو بكر ابن العربي ⁽³⁾ النار وقد علاها رماد، فقال: ⁽⁴⁾

شابت كما شبّنا وزال شبابنا فكأنّما كنّا على ميعاد

حيث شبهها بالإنسان الذي يشيب، وشابت مثله، وزال شبابهما، فكأنهما كانا على ميعاد.

وقال ابن لُبّال في وصف النار: ⁽⁵⁾ {مُخلَع البسيط}

فحمّ ذكاً ⁽⁶⁾ في حشاه جمرٌ فقلت مسكٌ وجئنارٌ

أو خدّ من قد هويت لماً أطلّ من فوقه العذار ⁽⁷⁾

(1) الأصفهاني، خريدة القصر، 490/3-491؛ ابن الخطيب، الإحاطة، 412/3؛ المقرّي، نفح الطيب 528/2.

(2) يثعب: يجري ويسيل، ابن منظور، لسان العرب، مادة ثعب.

(3) محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي، أبو بكر ابن العربي (468 - 453 هـ): قاض، من حفاظ الحديث. ولد في إشبيلية سنة ثمان وستين وأربعمئة، ورحل إلى المشرق، وبرع في الأدب، وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين. وصنف كتباً في الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ. وولي قضاء إشبيلية، ومات بقرب فاس، ودفن بها. من كتبه (العواصم من القواصم)، و(عارضة الأحوذى في شرح الترمذي) و(أحكام القرآن)، و(القبس في شرح موطأ ابن أنس) و(المسالك على موطأ مالك)، و(الإنصاف في مسائل الخلاف) عشرون مجلداً، و(أعيان الأعيان) و(المحصول) في أصول الفقه، و(كتاب المتكلمين) و(قانون التأويل). وتوفي ودفن بمدينة فاس سنة ثلاث وأربعين وخمسمئة. ترجمته في ابن بشكوال، الصلة، 558/1؛ ابن سعيد، المغرب، 254/1؛ الزركلي، الأعلام، 230/6.

(4) المقرّي، م.س، 31/2

(5) المقرّي، م.س، 442/3 .

(6) ذكا: اشتد لهيبه، ابن منظور، لسان العرب، مادة ذكا .

(7) العذار: الحياء، ابن منظور، م.ن، مادة عذر .

فقد شبه النار في احمرار جمرها بالرمان، أو بخد محبوبته وقد تورّد من الحياء.

ووصف العالم أبو حفص الهوزني المطر، فقال: (1)

بدء صَعَق الأرض رَشٌّ و طَلٌّ ورياحٌ ثَم غَيْمٌ أْبَلٌّ

حيث ذكر مراحل تكوّن المطر، يبدأ برشاشة خفيفة، ثم تهب الرياح، ثم يأتي الغيم الذي يسقط مطراً.

ب الطبيعة المصنوعة:

وصف الشعراء محبرة عناب محلاة بفضة، والسيف، والكتاب، والثوب، والتمثيل، والفحم، والرمح، والقلم. فقد وصف ابن لبّال محبرة عناب محلاة بفضة، فقال: (2)

مُنْعَلَةٌ بِالْهَالِ مُلْجَمَةٌ بِالنَّسْرِ مَجْدُولَةٌ مِنْ الشَّفَقِ
كَأَنَّمَا حَبْرُهَا تَمَيَّعَ فِي فُرْضَتِهَا سَائِلًا مِنَ الْعَسَقِ
فَأَنْتَ مَهْمَا تُرِدُ شَبِيهَتَهَا فِي كُلِّ حَالٍ فَانْظُرْ إِلَى الْأَفَقِ

فهي مغطاة بقطعة تشبه الهلال، وعليها نسر، حمراء مجدولة كأنها من الشفق، حبرها يشبه مطراً في أول الليل، فهي تشبه الأفق في لونها.

وله في محبرة آبنوس: (3)

وَحَدِيمَةٌ لِلْعِلْمِ فِي أَحْشَائِهَا كَلَّفَ بَجْمَعِ حَرَامِهِ وَحَلَالِهِ
لَبِستُ رِداءَ اللَّيْلِ ثُمَّ تَوَشَّحتُ بِنَجْوَمِهِ وَتَتَوَجَّجتُ بِهَيْلَالِهِ

وله أبيات يصف سيفاً، قال فيها: (4)

كُلُّ نَهْرٍ تَوَقَّدتْ شَفَرَتَاهُ كَاتَقَادَ الشَّهَابِ فِي الظُّلْمَاءِ

(1) المقرئ، نفح الطيب، 94/2.

(2) ابن دحية، المطرب، 98؛ ابن سعيد، المغرب، 304/1؛ المقرئ، م.ن، 64/4.

(3) ابن دحية، م.ن، 98؛ المقرئ، م.ن، 64/4؛ الآبنوس: شجر أسود، ابن منظور، لسان العرب، مادة سسم.

(4) المقرئ، م.ن، 232/4.

فهو ماءٌ قد رُكِّبَتْ فوقَ نارٍ أو كَنارٍ قد رُكِّبَتْ فوقَ ماءٍ

ويشبهه بالنهر الذي توقّدت شفرتها، مثلما يتوقّد الشهاب في الظلام، وهو مثل الماء التي ركبت فوق نار دلالة على عدم مضائه وحدّته.

ووصف أبو الحسين بن سراج كتاباً، فقال: (1)

{الوافر}

كتابٌ يزدري بالسّحرِ حُسناً وسمتَ به زمانك وهو غُفْلٌ
معانٍ تعبقُ الآفاقُ عنها يشيبُ لها حسودُك وهو طفلٌ

حيث إنّ الكتاب يزدان بالسحر، وفيه معانٍ تفوح رائحتها من بعيد، تشيب الحسود وهو طفل. ووصف أبو الحسين بن سراج ثوباً رآه على غير أهله، وكان يعهده، على مَنْ كان يوده: (2)

{البسيط}

يا لابسَ الثَّوبِ لا عرّيت من سقمٍ ولا تخطّاك صرفُ الدَّهرِ والغَيْرُ
ويحي عليه ولهفي مِن تَبَدُّلِهِ كم قد تطلَّعَ من أطواقِهِ القمرُ
وكم ترنّح في أثنايه غصنٌ منعمُ النبتِ يدمي خدّه النَظَرُ
وكم ثنيتُ يدي عنه وقد نعمت وظلّ منها فتيتُ المسكِ ينتثرُ
فاليوم أوحش عما كنتُ أعهده كذاك صفوُ اللَّيالي بعده الكَدَرُ

ووصف أبو بكر ابن العربي كتاباً، كان قد وُضع عليه تراب، فشبهه بالجدرى فوق خد فتاة

جميلة، فقال: (3)

{الخفيف}

لا تَسْنُهُ (4) بما تذرُّ عليه فكفاه هبوبُ هذا الهواءِ
فكأن الذي تذرُّ عليه جَدَرِيٌّ بوجنةٍ حسناء

(1) الأصفهاني، خريدة القصر، 484/3.

(2) الأصفهاني، م. ن، 485/3.

(3) ابن سعيد، المغرب، 255/1؛ المقرئ، نفح الطيب، 27/2.

(4) يشين: يعيب، ابن منظور، لسان العرب، مادة شين.

فقد مرض صاحب الثوب، فتبدّل حاله وتغيّر ، ولم يعد الثوب جميلاً عليه كما كان.

وقال أبو محمد بن عطية المحاربي في وصف الفحم:⁽¹⁾ {الكامل}

جعلوا القرى للقرّ⁽²⁾ فحمًا حالكا قدح الزناد به فأورى نارا
فبدا دبيب السُقْطِ⁽³⁾ في جنبائِه كالبرق في جنح الظلام أنارا
ثم انبرى لهبٌ وصار كأنه في الحرق ذو حرق يطالبُ ثارا
فكأنه ليلٌ تفجّرَ فجرُه نهراً فكان على المقام نهارا

قال: إنهم قد جعلوا الفحم علاجاً للبرد الشديد، وعندما قدحت فيه النار اشتعل، وامتدت النار في جوانب الفحم، مثل البرق المنير في جنح الظلام، ثم يظهر منه لهب، ينتشر بسرعة فكأنه يطلب ثأراً، وهو يشبه الليل الذي طلع عليه الفجر فجاءه النهار.

وللفقيه أبي الوليد الوقشي⁽⁴⁾ في وصف رمح:⁽⁵⁾ {الطويل}

جرى الموتُ في عَطْفِيهِ⁽⁶⁾ بدءاً وعَوْدَةً كما كان يجري فيهما الماء من قبلُ
وأصبح ميّاداً ومغرسُهِ الحشا كما كان مُنَاداً⁽⁷⁾ ومنْبِتُهُ الرملُ

حيث صور الرمح والموت يجري في جوانبه، حيث أصبح متمائلاً، مغروساً في القلوب، بينما كان يتمايل في الرمل.

(1) الأصفهاني، خريدة القصر، 495/3؛ السيوطي، بغية الوعاة، 74/2 .

(2) القر: البرد في الشتاء، ابن منظور، لسان العرب، مادة قرر .

(3) السقط: النار، ابن منظور، م. ن، مادة سقط .

(4) هشام بن أحمد بن هشام بن خالد بن سعيد الكناني (408 - 489 هـ) يعرف بالوقشي: ووَقَش: قرية بخارج طليطلة. وأبو الوليد الوقشي، ولد سنة ثمان وأربع مئة، وأخذ العلم عن أبي عمر الطلمنكي وأبي عمر السفاقي وأبي عمر بن الحداد وغيرهم. وولي القضاء، وكان من أعلم الناس باللغة والنحو ومعاني الأشعار والعروض وصناعة الكتابة. شاعر فقيه عالم بالشروط، فاضل في الفرائض والحساب والهندسة، مشرف على جميع آراء الحكماء، وتوفي بدانية سنة تسع وثمانين وأربعمائة. ترجمته في الأصفهاني، خريدة القصر، 189/1؛ ابن دحية، المطرب، 64/1؛ السيوطي، بغية الوعاة، 327/2؛ الزركلي، الأعلام، 84/8.

(5) الأصفهاني، م. س، 191/2.

(6) عطفه: جانيبه، ابن منظور، م. س، مادة عطف .

(7) منَاداً: منتثياً معوجاً: ابن منظور، م. س، مادة أود .

{البسيط}

ووصف أبو الوليد الوقشي القلم، فقال: (1)

من المداد وفي عدّ من الكلم

لله درك إذ ترويه... (2)

الطبيعة المتحركة:

وصف الشعراء الرياض، والمنتزهات، والربيع، والنجس، والزروع، وشقائق النعمان، والمدن، والحمام. وممن قالوا في ذلك أبو بكر بن الملح (3) وصف روضاً، فشبهه بالإنسان الذي أرسل لك موعداً ليراك في الصباح، وهو سكران من كثرة الماء، وكلما غنى فيه طائر ردّد الغناء معه، ثم وصف زهراً أخضر، فقال: (4)

{الكامل}

أهداه يضربُ لاصطباحتك موعداً

والروضُ يبعثُ بالنسيم كأنما

غناه طائرُهُ وأطرب ردداً

سكران من ماء النعيم فكّما

رقباء (5) تقعد للأحبة مرصداً

يأوي إلى زهرٍ كأن عيونه

كالزهر أسرجها الظلام وأوقداً

زهرٌ ييوج به اخضرار نباته

{الطويل}

ووصف ابن الجد (6) روضة، فقال: (7)

وهبَّ له من كلّ زهرةٍ نشرٌ

أما ونسيمُ الرّوضِ طاب له نشرٌ (8)

وقد أوهمتني أن منزلها الشحرُ

تضوّع منها العنبرُ النَّدُ فانتثت

حيث وصف رائحتها الطيبة التي تهب منها، وتفوح منها رائحة العنبر.

(1) الأصفهاني، خريدة القصر ، 191/2.

(2) هكذا ورد البيت مكسوراً، وأظن تكملة الشطر الأول: من قلم، الأصفهاني، م، ن، 191/2.

(3) محمد بن الملح، أبو بكر (ت500هـ)، الوزير الفقيه، شاعر وخطيب، كان أبيّ النفس، عالي الهمة، توفي في شهر رمضان سنة خمسئة للهجرة؛ وقد أثبت له ابن بسام شعراً كثيراً. ترجمته في ابن خاقان، قلاند العقيان، 186/1؛ ابن بسام، الذخيرة، 26/1، 452/3؛ ابن سعيد، المغرب، 383/1؛ الأصفهاني، م، ن، 925/2.

(4) الأصفهاني، م، ن، 466/3؛ ابن سعيد، م، ن، 383/1؛ اليوسي، زهر الأكم، 308/2.

(5) رقباء: غليظة الرقبة، ابن منظور، لسان العرب، مادة رقب .

(6) محمد بن عبد الله بن الجد الفهري: من أهل لبلة، سكن إشبيلية؛ يكنى: أبا القاسم. مستبحر في الحديث والفقه ومتقدم في الأدب وعلم النسب، والبلاغة، وله حظٌ جيد من التكلم في الحديث، وكان يفتي ببلده لبلة. وكان فاضلاً، حسن العشرة، وتوفي سنة خمس عشرة وخمسة، ودفن بداره بمدينة إشبيلية. ترجمته في ابن بشكوال، الصلة، 544/1؛ ابن دحية، المطرب، 54/1، ابن سعيد، م، س، 341/1؛ الزركلي، الأعلام، 228/6.

(7) الأصفهاني، م، س، 396/3؛ ابن دحية، م، ن، 191؛ ابن سعيد، م، س، 341/1.

(8) نشر: رائحة طيبة، الزمخشري، أساس البلاغة، مادة نشر .

ووصف أبو أيوب بن أبي أمية⁽¹⁾ منزلاً حلَّ به، فقال: (2) {البسيط}

يا منزلَ الحُسْنِ أهواه وآلفه
لله ما اصْطَنَعْتَ نِعْمَاكَ عِنْدِي فِي
حقاً لقد جُمِعَتْ في صَحْنِكَ الْبِدْعُ
يومِ نِعْمَتْ بِهِ وَالشَّمْلُ مجتمَعُ

حيث وصفه بأنه منزل الحسن، وأنه قد جمع في وسطه البدع؛ لشدة جماله، وبين أن له فضائل عليه؛ إذ تمتع فيه هو وأصحابه.

وله في متنزه ثانٍ بيتان من الشعر، فقال: (3) {البسيط}

أَمْسِكَ دَارِينَ حَيَّاكَ النِّسِيمُ بِهِ
بشاطيء النهر حيث النُّورُ مُؤْتَلِقُ
أم عنبر الشَّحْرِ⁽⁴⁾ أم هذي البساتين
والراح تَعْبَقُ أم تلك الرياحين

حيث يصف منظره الرائع، والرائحة الطيبة التي تهبّ منه.

وقال أبو محمد بن عطية المحاربي يصف روضة ونرجساً غصّاً: (5) {الرملي}

نرجسٌ باكرتُ منه روضةً
لذَّ قطعِ الروضِ فيها وعَذْبُ
حَثَّ الرِّيحُ بها خمرَ حيا
رَقَصَ النَّبْتُ لَهَا ثم شَرِبُ
فغدا يُسْفِرُ عن وجنتِهِ
نوره الغَضُّ ويهتَزُّ طَرَبُ
خَلَّتْ لَمَعَ الشَّمْسِ فِي مَشْرِقِهِ
لَهَا يَحْمِلُهُ مِنْهُ لَهَبُ
وبياضُ الطَّلِّ فِي صُفْرَتِهِ
نُقْطُ الْفَضَّةِ فِي خَطِّ الذَّهَبِ

(1) أبو أيوب سليمان بن أبي أمية (ت522هـ) قال صاحب الذخيرة في وصفه: الوزير الفقيه أبو أيوب في وقتنا بحر الأدب وساحله، وسنام المجد وكاهله، وسنان الحسب وعامله، ورافع لواء الحمد وحامله، واحد الأندلس الذي طوقها فخارا وطبقها بأوانه افتخارا. ترجمته في ابن خاقان، مطمح الأنفس، 68/1؛ ابن بسام، الذخيرة، 26/1؛ ابن سعيد، المغرب، 248/1؛ الأصفهاني، خريدة القصر، 925/2.

(2) الأصفهاني، م، ن، 468/3؛ المقرئ، نفح الطيب، 550/3.

(3) الأصفهاني، م، ن، 486/3؛ ابن سعيد، م، س، 248/1؛ المقرئ، م، ن، 550/3.

(4) الشحر: منطقة في اليمن، ابن منظور، لسان العرب، مادة شحر.

(5) الأصفهاني، م، س، 492/3.

حيث زارها صباحاً في موعد لَدَّ قطع الأزهار فيها، وعندما هبَّت الريح عليه حاملة معها
خمر الحياة، رقص النبات لها ثم شرب منها، فتفتح الورد وبان خدّه، واهتزّ طرباً، وقد كان لمعان
الشمس يشبه لهباً، وشبه بياض الندى وسط صفرة الزهرة بالفضة في خط من الذهب.

ووصف أبو محمد المعافري⁽¹⁾ شخصاً قطف نواره، فقال: ⁽²⁾ {الطويل}

يروحُ لتعذيبِ النفوسِ ويغتدي
ويطلعُ في أفقِ الجمالِ ويغربُ
ويحسُّ منه الغصنُ أيَّ مُهفَفٍ
يجيءُ على مثلِ الكثيبِ ويذهبُ

وخرج أبو محمد غانم بن وليد إلى ربوة تعرف بالعقاب مشرفة على وادي مالقة، فقال
بديهة يصف الربيع: ⁽³⁾ {الكامل}

ضحكُ الزَّمانِ بحُسنِهِ وبهائِهِ
وكانَ إقبالَ الربيعِ بوصلِهِ
وكأنَّما وادي العقابِ عشيةً
وكانَ رشحَ الطَّلِّ في روضِ الرُّبا
كالصَّبِّ يضحكُ بعدَ طولِ بكائِهِ
وصلُ الحبيبِ أتاكَ بعدَ جفائِهِ
مستمطراً دمعِي بجريّةِ مائِهِ
رشحُ الخدودِ بدا بنارِ حيائِهِ

حيث شبه الزمان بالإنسان الذي يضحك، وشبهه بالحبيب الذي يضحك بعد بكاء طويل، ثم
شبه إتيان الربيع بوصل الحبيب بعد جفاء طويل، وعندما يجري وادي العقاب مساء تنهمر دموع
الشاعر، ثم شبه قطرات الندى بالعرق الذي ينزل من الخدود بسبب نار حيائها.

ووصف القاضي عياض زروعاً بينها شقائق النعمان، فقد كانت تتمايل أمام الرياح مثل
كتيبة مهزومة، وشبه شقائق النعمان الحمراء بالجراح، فقال: ⁽¹⁾ {السريع}

(1) عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن مالك المعافري، يكنى أبا محمد (ت518هـ). أحد وزراء الأندلس، كثير الصنائع، جزل
المواهب، عظيم المكارم، على سنن عظماء الملوك، وأخلاق السادة الكرام. ذاكر للفقه والحديث، بارع في الأدب، شاعر مجيد و كاتب
بليغ، حلو الكتابة والشعر، عالي الهمة، كثير الخدم والأهل. من آثاره الماثلة إلى اليوم الحمّام، الذي بجوفي الجامع الأعظم من
غرناطة. اعتلَّ بإشبيلية فانتقل إلى غرناطة، فزادت علته بها، وتوفي بها في سنة ثمانٍ عشرة وخمسمئة، ودفن بمقبرة باب البيرة.
ترجمته في ابن الخطيب، الإحاطة، 400/3؛ ابن سعيد، المغرب، 117/2؛ المقرئ، نفح الطيب، 232/3.
(2) الأصفهاني، خريدة القصر، 443/3؛ ابن ظافر الأزدي، بدائع البدائنه، 62/1؛ ابن الخطيب، م.ن، 401/3؛ المقرئ، م.ن، 675/1 .
(3) ابن بسام، الذخيرة، 858/2.

انظر إلى الزَّرْعِ وَخَامَاتِهِ تَحْكِي وَقَدْ مَاسَتْ أَمَامَ الرِّيحِ
كَتِيبَةً خَضِرَاءُ مَهْزُومَةٍ شَقَاتُكَ النُّعْمَانُ فِيهَا جِرَاحُ

ووصف أبو محمد بن عطية المحاربي مدينة قرطبة، وقد فاقت غيرها من المدن بأربعة أشياء، هي: قنطرة الوادي، والجامع، والزهراء، والعلم، فقال: (2)

{البسيط}

بأربعِ فاقتِ الأمصارَ قرطبةً وهنَّ قنطَرةُ الوادي وجامعُها
هاتانِ تَتَنانِ، والزَّهراءُ ثالثةٌ والعِلْمُ أكبرُ شيءٍ وهو رابعُها

ووصف القاضي عياض حمامة، فقال: (3)

{الطويل}

أَقْمَرِيَّةٌ (4) الأدواحِ بِاللَّهِ طَارِحِي أَخَا شَجَنِ النَّوْحِ أَوْ بَغْنَاءِ
فَقَدْ أَرَقَّتْني مِنْ هَدِيلِكَ دَنَسَةٌ تُهَيِّجُ مِنْ شَوْقِي وَمِنْ بُرْحَائِي (6)

وفيها يطلب من الحمامة أن تتوح وتغني، فقد حرك هديلها شوقه وألمه، وهي مثله غريبة عن أبنائها.

(1) الأصفهاني، خريدة القصر، 503/3؛ ابن الأبار، تحفة القادِم، 118/1؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 16/11؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، 154/19؛ ابن الخطيب، الإحاطة، 191/4؛ العباسي، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، 5/2؛ الخفاجي، ربحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، 356/1؛ اليوسي، زهر الأكم، 161/2.

(2) المقرئ، نفح الطيب 616/1.

(3) ابن سعيد، المغرب، 68/1.

(4) قمرية: حمامة، ابن منظور، لسان العرب، مادة قمر.

(6) برحاء: شدة الحمى، ابن منظور، م. ن، مادة برح.

مما سبق تتضح لنا أهم مزايا شعر وصف الطبيعة عند الفقهاء في الأندلس، وهي:

- 1 صوّر شعر الوصف طبيعة الأندلس المطبوعة: الصامته، والمصنوعة.
- 2 إطلاق العنان لخيال الشعراء ليسرح في عالم الفكر، ويختار الألفاظ والمعاني التي تناسب الحياة الحضارية الجديدة.
- 3 كان وصفهم للطبيعة نابعاً من الطبيعة الساحرة لبلاد الأندلس، وما فيها من ماء وخضراء ووجه حسن.
- 4 زين الفقهاء شعرهم الوصفي بمختلف فنون البديع، مثل: الطباق، والمقابلة، والجناس.

المبحث السابع: الغزل

إذا كانت الطبيعة ووصفها قد احتلت مركزاً متقدماً في قول الشعر، فإن الغزل قد وجد مرتعا خصباً في هذه الطبيعة الجميلة، وما فيها من حياة حضارية جديدة ومجالس للهو، وأسواق الجواري والغلمان، ومن الشعراء الفقهاء مَنْ أحبَّ حباً صادقاً، ومنهم من اتخذ الحب وسيلة للتمتع واللهو، وقد استطاع الشاعر الفقيه التعبير عن خلجات نفسه، وحبه، وخلواته، ما قاد إلى حرية محرجة للفقهاء، فيها كثير من الفحش والتهتك، وقد بلغ الغزل في زمن ملوك الطوائف حالة مزرية، في انحطاط ألفاظه ومعانيه، وعبر بذلك عن حياة العصر المتهتك.⁽¹⁾

يتميز الغزل عند أغلب الفقهاء بشيء من التحفظ الذي يقتضيه وقار العلم، وهو تحفظ جعل الشعراء يذهبون إلى الرمز والتلميح بدلاً من الغزل الحسيّ، فصار غزلهم يصور خلجات النفوس، وما يضطرب فيها من مشاعر، فهناك آفاق واسعة من الشعر الوجداني نظم فيها الفقهاء، ليس الغزل إلا جانباً واحداً من جوانبها العديدة، فحمله على الشعر الوجداني أولى من حمله على الغزل.⁽²⁾

شمل غزل الشعراء الفقهاء تصوير المواقف التي تنشأ عادة بين المحبين من: قسوة ولين، ووصل وهجر، وشكوى وعتاب، ودموع وبكاء، ووقف الغزل عند حدود الوصف المادي لما يتعشقه الشاعر من أعضاء الجسد، مثل: الشفاه، والخدود، والفم، والشعر، والشيب، والأسنان، والمقل، والعيون، والألحاظ.

كما وصف الفقهاء أحاسيسهم في: لحظات الفراق، والنوى، والتوديع، والقسوة، وبخل الحبيب، والتحسر على عدم التمكن من اللقاء، وتطرقوا إلى حفظ العهد، وفناء الجسم والروح، وتأنيب الحبيب، وامتلاكه القلب، وثنائه.

ووصفوا الحبيب بصور جميلة: فوصفوه بالقمر، وبالبدر، ووصفوه بالدر على مرجان، وبالشمس، وبغصن البان.

(1) ينظر: جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، ص 121.

(2) ينظر: عبد الله كنون، أدب الفقهاء، ص 89.

وقد تغزل الفقهاء بالمؤنث، ولم يتغزل منهم بالمذكر إلا القليل، ولعلّ الشاعر الفقيه ابن حزم الظاهري كان شاعر الغزل في هذه الحقبة، وقد أكثر من وصف الأحاسيس والمشاعر التي انتابته من الحب، كالوفاء، والعزة، والتفرق، والسلو، والبين والحزن، والحنين والشوق، وتذكر الديار، والعتاب، ووصف الرقيب، والواشي، وناقل الأخبار.

أولاً- الغزل بالمؤنث:

الوصف المادي:

وصف الشعراء الفقهاء في حقبة الدراسة محبوباتهم وصفاً ماديّاً، فوصفوا الوجه، والشعر، والأسنان، والعيون، وذلك على النحو الآتي:

أ -الوجه:

وصف ابن لبّال وجه محبوبته بالبدر، فقال: ⁽¹⁾ {الكامل}

ما كنتُ أحسبُ قبل رؤية وجهه أنّ البُذورَ تدورُ في الأغصانِ
غازلتُهُ حتّى بدا لي ثغره فحسبتهُ ذُرّاً على مرّجانِ

شبه وجه محبوبته بالبدر ، ثم شبه قدّها بغصن البان كناية عن رشاقتها ولينها، فعجب من وجود البدر على الغصن.

ووصف أبو الوليد الوقشي خد محبوبته بأنّه أبيض صافٍ لا تشوبه شائبة، فقال: ⁽²⁾

{الكامل}

حَلَفْتُ صحيفَةً خدّه أن لا يرى في صحنها أبدَ الزمانِ مِدادا

ووصف ابن حزم الأندلسي وجه محبوبته، وتناسق جميع أجزاء جسدها، فقال: ⁽³⁾ {الكامل}

يا مَنْ جميعُ الحسنِ منتظِمٌ فيه كنظمِ الدُرِّ في العقدِ
ما بالُ حتفي منك يطرقني قصداً ووجهك طالعُ السَّعدِ

(1) ابن الأبار، تحفة القادِم، 101/1.

(2) الأصفهاني، خريدة القصر، 190/2.

(3) ابن حزم، رسائل ابن حزم، 203/1.

فجسد محبوبته جميل متناسق كعقد الدر في جماله وتناسقه، وهذا يقتله، لكن وجه محبوبته بإشرافه ينقذه.

ووصف وجه محبوبته بالبدر الذي تسجد له الأنوار، فقال: (1)
وجهٌ تخرُّ له الأنوارُ ساجدةً والوجه تَمَّ فلم يَنْقُصْ ولم يَزِدْ
{البسيط}

ب الشعر:

وصف ابن حزم شعر محبوبته، وبين أن شعرها أشقر، ما جعل الآخرين يعيبنها عنده، لكنه يرى أن هذا هو الذي زانها عنده، يقول: (2)
يعيبنها عندي بشقرة شعرها فقلتُ لهم هذا الذي زانها عندي
يعيبن لونَ النورِ والتبرِ ضلةً لرأيِ جهولٍ في الغواية ممتدً
وهل عابَ لونَ النرجسِ الغضَّ عائبٌ ولونَ النجومِ الزاهراتِ على البعدِ
وأبعد خلق الله من كل حكمة مفضلُ جرمٍ فاحمِ اللونِ مسودً
به وصفتُ ألوانُ أهلِ جهنم ولبسةُ بكٍ مثكلِ الأهلِ محتدً
ومذ لاحت الراياتُ سوداً تيقنتُ نفوسُ الورى أن لا سبيلَ إلى الرشَدِ

ووصف ابن لبال غرة محبوبته، فقد شبهها بالقمر في شدة جمالها؛ إذ لها غرة جميلة في مقدمة شعرها، قال: (3)
{المنسرح}

ألبسني حُلَّةَ الضنا قمرٌ ألْبسه الحسنُ حُلَّةَ الخَفَرِ
أرسل من صدغه لعارضه ذؤابةٌ تحتَ لَمَّةِ الشَّعَرِ

ج الأسنان:

شبه ابن لبال أسنان محبوبته بالفضة، وبالبرد في بياضها، فقال: (4)
يفترُّ عن فضةٍ وعن بردٍ وعن أقاحٍ نَدٍ وعن دُرَرِ
{المنسرح}

(1) ابن حزم، رسائل ابن حزم، 221/1.

(2) ابن حزم، طوق الحمامة، ص132.

(3) ابن الأبار، تحفة القادم، 101/1.

(4) ابن الأبار، م، ن، 101/1.

د - العيون:

صور أبو الحسين بن سراج عيني محبوبته وما فيهما من غنج، ودعج، وصوارم، فقال: (1)

{البسيط}

بما بعينيك من غنج ومن دعج ومن صوارم تتضوها على المهج
لا ترتضي الحلف في وعد تركت به قتيل حبك قد أوفى على الفرَج

{الكامل}

ووصف ابن موهب القبري (2) لحظ حبيبته، فقال: (3)

وَمَنْعَمٍ وَسَنَانٍ يَجْنِي لِحْظُهُ قَتَلَ الْمُحِبَّ وَتَارَةً يُحْيِيهِ

فتتور لحظ محبوبته ونظراتها تارة تقتله وأخرى تحييه، فهو دائم العذاب من نظراتها.

{البسيط}

وقال أبو العلاء ابن زهر يصف جفون محبوبته: (4)

يا راشقي بسهامٍ ما لها غَرَضٌ إلا الفؤادَ وما منه له عَوْضٌ
وممرّضي بجفونٍ لحظها غَنَجٌ صَحَّتْ وفي طبعها التمرّيضُ والمرّضُ
امْنُنْ ولو بخيالٍ منك يؤنسني فقد يسدُّ مسدَّ الجواهرِ العَرَضُ

حيث وصف نظراتها بالسهام التي ترميه بالحب، ولحظها وغنجها بالدواء الذي يداوي

المريض، ثم يطلب منها أن تمنّ عليه بخيال فقط، فلعلّ ذلك يغنيه عن رؤيتها.

(1) الأصفهاني، خريدة القصر، 485/3.

(2) عبد الواحد بن محمد بن موهب التجيبي أبو شاکر. المعروف بابن القبري، (379 - 456 هـ) فقيه محدث أديب خطيب شاعر، ولد سنة سبع وسبعين وثلاثمئة بقرطبة، خرج عن قرطبة في الفتنة، تولى المظالم بشاطبة، والصلاة والحكم ببلنسية. سمع من أبيه وأبي محمد الأصيلي، وأبي حفص بن نابل وغيرهما، وأجازته أبو محمد بن أبي زيد، وأبو الحسن القابسي، وتوفي سنة ست وخمسين وأربعمئة بمدينة شاطبة وحمل إلى مدينة بلنسية فدفن فيها. ترجمته في الحميدي، جذوة المقتبس، 290/1، ابن سعيد، المغرب، 234/1؛ ابن بشكوال، الصلة، 365/1؛ الزركلي، الأعلام، 177/4.

(3) الحميدي، م، ن، 460/2.

(4) المقرئ، نفح الطيب، 433/3.

الوصف المعنوي: وصف الشعراء الفقهاء أحاسيسهم ومشاعرهم تجاه محبوباتهم، فوصفوا مكانة المحبوبة في أنفسهم، ووصفوا المعاناة من الحب، والوفاء بالوعد، ولحظة الوداع، ورحيل المحبوبة، وكان غزلهم سهلاً جميلاً رائعاً.

أ مكانة المحبوبة في نفسه:

قال أبو الحسين بن سراج في بيان مكانة محبوبته في نفسه: (1) {الطويل}

لئن لم تَفْزِ عيناى منك بنظرةٍ	ولم أفض من لقاياك ما كنت أملُ
فعالم ما تُخفي السرائرُ عالمٌ	بأنك في عيني وقلبي ممثّلُ
وأنت ممّن أنتحيه بخلّتي	وأمحضه ودي لصدرٍ وأوّل (2)

إنّه إن لم تحظّ عيناه بنظرة من محبوبته، ولم يحصل على ما يريد عندما يلتقي بها، فإنّها في قلبه وعينه، وهي ممّن سلّمها قلبه ووده.

ووصف أبو بكر ابن العربي تأنيب محبوبته له، فقال: (3) {المتقارب}

أنتني تؤنّبني بالبُكا	فأهلاً بها وبتأنيبها
تقول وفي نفسها حسرةً	أتبكي بعين تراني بها
فقلت: إذا استحسنّت غيركم	أمرت جفوني بتعذيبها

حيث أشار إلى أنها قد جاءتّه تؤنّبه بالبكاء، ثم يرحب بها وبتأنيبها، حيث قالت له: كيف تبكي بعين تراني بها؟ فقال: إذا استحسنّت عيني غيرك، أمرت جفوني بتعذيبها.

أما ابن لبال فجعل محبوبته تتملك قلبه، فقال: (4) {الكامل}

لما تبوّأ من فؤادي منزلاً	وغدا يُسلّطُ مقلّتيه عليه
ناديته مُسترحماً من زفرةٍ	أفضت بأسرار الضمير إليه

(1) الأصفهاني، خريدة القصر، 485/3.

(2) أنتحيه: أعتدّه، أمحضه ودي: أخلصه له؛ ابن منظور، لسان العرب، مادتا محض ونحي.

(3) المقرّي، نفح الطيب، 30/2.

(4) الأصفهاني، م.س، 485/3.

رَفَقًا بِمَنْزِلِكَ الَّذِي تَحْتُلُهُ يَا مَنْ يُخَرِّبُ بَيْتَهُ بِيَدَيْهِ

وهو هنا يصف محبوبته بأنها قد امتلكت قلبه، ويطلب منها ألا تخرب بيتها الذي تسكنه.

ب - المعاناة من الحب:

قال أبو بكر ابن العربي: (1) {مجزوء الرمل}

لَيْتَ شِعْرِي هَلْ دَرَوَا	أَيَّ قَلْبٍ مَلَكُوا
وَفَوَّادِي لَوْ دَرَى	أَيَّ شِعْبٍ سَلَكَوا
أَتَرَاهُمْ سَـلِمُوا	أَمْ تَرَاهُمْ هَلَكُوا
حَارَ أَرْبَابُ الْهَوَى	فِي الْهَوَى وَارْتَبَكُوا

حيث يستفسر: هل درت حال قلبه الذي ملكته؟ أم درى قلبه أي طريق سلكت، ثم يشير إلى معاناة العشاق وارتباكهم.

ج - الوفاء بالوعد

قال أبو محمد غانم بن وليد في وفائه بالوعد: (2) {مُخَلَّع البسيط}

يَا مَنْ عَهْدِي لَدَيْكَ تَرَعَى	أَنَا عَلَى عَهْدِكَ الْوَثِيقُ
إِنْ شِئْتَ أَنْ تَسْمَعِي غَرَامِي	مِنْ مُخْبِرٍ عَالِمٍ صَادِقٍ
فَاسْتَخْبِرِي قَلْبَكَ الْمُعْنَى (3)	يُخْبِرُكَ عَنْ قَلْبِي الْمَشُوقُ

حيث بين أنه على عهده مثلما تحفظ هي عهودها، وإذا أرادت أن تعرف غرامه لها، فلتسأل قلبها، فسيخبرها عن قلبه.

(1) المقرئ، نفح الطيب، 43/2.

(2) المقرئ، م. ن، 526/2.

(3) المعنى: المتعب، ابن منظور، لسان العرب، مادة عنا.

د الوداع:

قال أبو بكر بن الملح يصف بخل الحبيبة في توديعه، ويطلب منها أن تحييه، وأن ينتظرها حتى يزورها: (1)

{البسيط}

يا باخلين علينا أن نودّعهم وقد بعدتم عن اللّقا فحيّونا
قفوا نزرركم وإن كانت فوائدكم نزرأ ومنكم بالوصل مُمّنونا

فهو يطلب من محبوبته التي بخلت عليه بالوداع أن تقف بالبيت ليودعها وقت رحيله.

{البسيط}

ووصف أبو محمد بن عطية المحاربي لحظة الوداع، فقال (2)

أستودع الله مَنْ ودّعته ويدي على فؤادي خوفاً من تصدّعه
بدر من الودّ حازته مغاربُهُ فالنّفس قد أشخّصت طرّفاً لمطلعه
أتبعته بعد توديعي له نظرا إنسانُهُ (3) غرق في بحر أدمعه
ما أوجع البين في قلب الكريم غدا يفارق المجد في ثوبي مودّعه
يذيقه البين تعذيباً ويمنعهُ من أن يطير شعاعاً أسر أضلعه

حيث شبهها بالبدر من الودّ، ثم وصف كيف كان يلقي عليها نظره، ودموعه تنهمر من عينيه، ثم يتحدث عن ألم الفراق، حيث يذيقه ألواناً من العذاب.

هـ - رحيل المحبوبة وهجرانها وغدرها:

قال أبو الحسين بن سراج يصف رحيل محبوبته، وأنها قادت نفسه معها، كأنها أحقّ منه بها: (4)

{الطويل}

همّ رحلوا عنا لأمرٍ لهمّ عنا فما أحدٌ منهم على أحدٍ حنا
وما رحلوا حتّى استقادوا نفوسنا كأنّهم كانوا أحقّ بها منا

(1) الصفيدي، الوافي بالوفيات، 61/7.

(2) الأصفهاني، خريدة القصر، 495/3.

(3) إنسان العين: بؤبؤها، ابن منظور، لسان العرب، مادة أنس .

(4) المقرئ، نفح الطيب، 235/4 .

ظننا بكم ظناً فأخلفتُم الظناً	فيا ساكني نجد لتبعد داركم
وقلتم ولم أعتب وجرتُم وما جُرنا	غدرتُم ولم أغدر، وخنتم ولم أخن
فقد، وذمام الحب، خنتم وما خنا	وأقسمتُم أن لاتخونون في الهوى
ويجمعنا دهر نعوذ كما كنا	ترى تجمع الأيام بيني وبينكم

ووصف أبو بكر بن عطية المحاربي قساوة قلب محبوبته حيث رحلت وهجرته، وأن هجرها له زاده عناء وتعذيباً، قال: (1)

{الكامل}

قاسي الفؤاد يسومني تعذيباً	كيف السلو ولي حبيب هاجر
جعل السهاد على الجفون رقيباً	لما درى أن الخيال مواصلي

ووصف أبو بكر الطرطوشي معاناته بسبب فراق محبوبته، ويرى أن من لم يذق فراق الأحبة لم يثكل، حيث إن ليالي الفراق قد جرّعته كؤوساً أماً من الحنظل، كناية عن معاناته الشديدة، ثم يتمنى أن تعود ليلة الوصل إلى سابق عهدها، قال: (2)

{المتقارب}

فراق الأحبة لم يثكل	يقولون ثكلاً ومن لم يذق
كؤوساً أماً من الحنظل	لقد جرّعتني ليالي الفراق
كما كنت في الزمن الأول	فيا ليلة الوصل عودي لنا

ثم يصف معاناته حيث إنه يقلّب نظره في السماء لعله يرى النجم الذي تنتظر إليه محبوبته، ثم يستعرض الركبان لعله يظفر بمن شم رائحتها، ويستقبل الرياح لعلها تخبره عنها، ويمشي في الطريق ليس له هدف سوى شيء يذكره بها، ويلمح الناس لعله يلمح وجهاً جميلاً مثل وجهها، قال: (3)

{الطويل}

لعلّي أرى النجم الذي أنت تنتظر	أقلّب طرفي في السماء مُردداً
لعلّي بمن قد شم ريحك أظفر	وأستعرض الركبان في كلّ جهة
لعلّ نسيم الريح عنك تُخبر	وأستقبل الأرواح عند هبوبها

(1) ابن الخطيب، الإحاطة، 201/4؛ المقرئ، نفح الطيب، 526/2.

(2) الأصفهاني، خريدة القصر 290/2؛ المقرئ، م ن، 86/2.

(3) الأصفهاني، م. ن، 291/2؛ المقرئ، م. ن، 85/2.

وَأَمْشِي وَمَا لِي فِي الطَّرِيقِ مَآرِبٌ عَسَى نِعْمَةً بِاسْمِ الْحَبِيبِ تُذَكِّرُ
وَأَلْمَحُ مَنْ أَلْقَاهُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ عَسَى لَمَحَةً مِنْ حَسَنِ وَجْهِكَ تُسْقِرُ

ثم عقد موازنة بينه وبين غيره من البشر، فهم ينعمون مع أهلهم في أعيادهم، وهو يبقى حيران، ويزور الإلف إلفه، بينما يزور منزلاً يحيط به الناس، وكلّ يضاحك حبيبه في العيد، بينما لا يتمكن من النظر إلى محبوبته أو مناجاتها، وكل غائب عن وطنه يعود، وليس له من وطنه إلا التذكُّر، ثم ينهي بأنّه قد كتب عليهما الفراق، قال: (1)

{الطويل}

وَمَنْ ظَلَّ فِي عِيدٍ يُسَرُّ بِأَهْلِهِ فَمَا لِي مِنَ الْأَهْلِينَ إِلَّا التَّحِيرُ
وَإِنْ زَارَ الْإِفَا إلفه زرتُ مَنْزِلًا وَحَوْلِي مِنَ أَهْلِ الْحَفِيزَةِ مَعْشَرُ
يُضَاحِكُ فِي ذَا الْعِيدِ كُلُّ حَبِيبِهِ وَمَا لِي مِنْكُمْ مَنْ أُنَاجِي وَأَنْظُرُ
يُؤُوبُ إِلَى الْأَوْطَانِ مَنْ كَانَ غَائِبًا وَمَا لِي مِنَ الْأَوْطَانِ إِلَّا التَّذَكُّرُ
وَيَأْوِي إِلَى الْأَحْبَابِ مَنْ كَانَ حَاضِرًا وَمِنْ دُونِ أَحِبَابِي لِيَالٍ وَأَشْهُرُ
كَأَنَّا خُلِقْنَا لِلنَّوَى وَكَأَنَّمَا عَلَى شَمْلِنَا خُطَّتْ مِنَ الْبَيْنِ أُسْطُرُ

وصور الفقيه غانم بن وليد قسوة الزمن الذي يبخل عليه بوصل محبوبته، فقال: (2)

{الطويل}

بَعِينِكَ هَلْ لِي مِنْهُمَا مَتَخَلَّصٌ فَإِنْ كُنْتَ تَدْرِيهِ فَكَيْفَ يَكُونُ
وَإِنْ زَمَانًا ضَنَّ عَنِّي بِوَصْلِكُمْ عَلَى طَوْلِ مَا قَاسَيْتَهُ لَضَنِينَ

وقال القاضي عياض يتحسر على عدم اللقاء بمحبوبته: (3)

{المتقارب}

يَعِزُّ عَلَيْنَا تَتَائِي الدِّيَارِ وَذَاكَ سَلَامُكَ لِي وَالْوُدَاعِ
لَكُمْ أَمَلٌ كَانَ لِي فِي اللَّقَاءِ وَأَمْنِيَّةٌ قَدْ طَوَاهَا الزَّمَاعُ (4)
فَلَمْ أَجْنِ مِنْهَا سِوَى حَسْرَةٍ فَوَجَدْتُ جَمِيعَ وَأَنْسَ شِعَاعِ

(1) الأصفهاني، خريدة القصر، 291/1.

(2) ابن بسام، الذخيرة، 870/2.

(3) الأصفهاني، م.س، 505/3.

(4) الزماع: الخوف والسرعة، ابن منظور، لسان العرب، مادة زمع.

ووصف نفسه بأنه بسبب عدم رؤيته لمحبوبته مثل طائر خانة ريش الجناحين، فلم يستطع الطيران، وأنَّ بعدها عنه قد قرَّب أجله، يقول: (1)

{البسيط}

الله يعلمُ أنني منذُ لم أركمُ كطائرٍ خانَهُ ريشُ الجناحينِ
فلو قدَّرتُ ركبْتُ البحرَ نحوكمُ فإنَّ بعدكمُ عني جنى حيني (2)

ثم وصف وضعه بعد رحيل محبوبته عنه، فقد تركته هائماً محروفاً، لا يجد لذة في النوم، يسهر طويلاً، ويعذُّ النجوم بسبب القلق، فقال: (3)

{البسيط}

يا مَنْ تحمَّلَ عني غيرَ مُكترِثٍ لكنَّه للضنى والسَّقمِ أوصى بي
تركتني مستهام القلب ذا حرقٍ أخا هوى وتبَّاريح وأوصابِ
وما وجدتُ لذيذَ النومِ بعدكمُ إلا جنى حنظلٍ في الطَّعمِ أو صابِ
أراقبُ النجمَ في جنحِ الدُّجى ولهاً كأنني راصدٌ للنجمِ أو صابي

ثم يسأل محبوبته: هل ستعود إليه، ولماذا تضنَّ عليه بتحية تحيي القتل عند وداعه؛ ثم يبين أنَّ محبوبته تبخل عليه بالنظر أو بالحديث إليه، قال: (4)

{الكامل}

يا راحلينَ وبالفؤادِ تحمَّلوا أترى لكم قبلَ المماتِ قُفولُ (5)
ما ضرَّكمُ وأضَنَّكمُ بتحيَّةٍ يحيا بها عندَ الوداعِ قتيلُ
إنَّ الخليلَ بلحظه أو لفظه أو عطفه أو وقفه لبخيلُ

وقد وصف ابن حزم هجر الحبيب في قصيدة، كان يأتي بالشرط الأول، ثم يضمن الشرط الثاني من معلقة طرفة، شبَّه فيها انقلاب الهجر والوصل بالمركب، فمرة يهتدي به الملاح، وأخرى يضلُّ، قال: (6)

{الطويل}

(1) ابن دحية، المطرب، 88؛ ابن الخطيب، الإحاطة، 191/4؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، 484/3؛ اليافعي، مرآة الجنان، 216/3.

(2) حيني: هلاكي، ابن منظور، لسان العرب، مادة حين .

(3) ابن دحية، م.ن، 87؛ ابن الخطيب، م.ن، 190/4، قوله: أوصى بي، من الوصية؛ والأوصاب: جمع وصَّب، وهو المرض، وصَبَّ يوصب، فهو وصيب، إذا لزمه وجع؛ والصابي: يُهمز ولا يُهمز، ومعناه الخارج من دين إلى دين؛ والصاب: الصبر، وهو مر .

(4) ابن الخطيب، م.ن، 191/4.

(5) قفول: الرجوع من السفر، ابن منظور، م.س، مادة قفل .

(6) ابن حزم، رسائل ابن حزم، 194/1.

تَذَكَّرْتُ وَدّاً لِلْحَبِيبِ كَأَنَّهُ
وَعَهْدِي بَعْدَهُ كَانَ لِي مِنْهُ ثَابِتٌ
كَأَنَّ انْقِلَابَ الْهَجْرِ وَالْوَصْلَ مَرْكَبٌ
"لِخَوْلَةٍ أَطْلَالَ بِبَرْقَةٍ تَهْمِدُ"
"يَلُوحُ كِبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ"
"يَجُورُ بِهِ الْمَلَحَ طَوْرًا وَيَهْتَدِي"

ثانياً- الغزل بالمذكر

شاع الغزل بالمذكر في المشرق كثيراً، وانتقل إلى الأندلس والمغرب، لكن شعراء الأندلس والمغرب لم يقولوا فيه كما قال شعراء المشرق، ومن خلال استقصائي لغزل الفقهاء في حقبة الدراسة وجدت أن عدداً قليلاً من الفقهاء قالوا في الغزل بالمذكر، وأن غزلهم فيه جاء وهم في شرح الشباب.

كان أبو بكر ابن العربي في أحد أيام الجمع قاعداً ينتظر الصلاة، فإذا بغلام رومي وضىء قد جاء يخترق الصفوف بشمعة في يده وكتاب معتق، فقال مشبها إياه بالشمعة، وذكر أن نفسه حدثته بتقبيله لولا أن عقله نهاه عن ذلك خوف العار، فقال: (1)

وشمعةٍ تحملها شمعةٌ
لولا نهى نفسٍ نهت غيها
يكاد يخفي نورها نارها
لَقَبَّاتُهُ وَأَتَتْ عَارَهَا

{البسيط}

وقال أبو بكر ابن العربي في صباه: (2)

قف بالمطيِّ قليلاً أيها السَّاري
واستنطق الرِّكَبَ من تَيْمٍ وسائِلِهِمْ
إذا مررتَ بذاتِ الدَّوْحِ والحارِ (3)
عن أهيفِ خَنْثِ الأعطافِ معطارِ
قلباً صبوراً وقلبي غيرُ صَبَّارِ
يشكو الذي منه أشكو غير أن له

فهو يطلب من الركبان أن يسألوا عن فتاه المخنث الأعطاف معطرها، وما إن كان يشكو ألم الفراق كما يشكوه مؤكداً أنه قاسي القلب على عكسه.

(1) المقرئ، نفح الطيب، 27/2.

(2) الأصفهاني، خريدة القصر، 296/2.

(3) الحارثي: نوع من الشجر، ابن منظور، لسان العرب، مادة حشرج .

وقال الفقيه أبو حفص الهوزني في غلام: (1) {الخفيف}

مُحِيَتْ آيَةُ النَّهَارِ فَأُضْحَى بَدَرَ تَمَّ وَكَانَ شَمْسُ النَّهَارِ
كَانَ يُعْشَى (2) الْعَيُونَ نَوْرًا إِلَى أَنْ أَشْغَلَ اللَّهُ خُدَّهُ بِالْعِذَارِ (3)

فقدومه نهار، وهو يشبه البدر في جماله، وخذه أحمر من الخجل.

مما سبق تتضح لنا أهم مزايا شعر الغزل عند الفقهاء في الأندلس:

- 1 - شاع الغزل بسبب ما عرفوه من الرقة، والميل إلى اللهو والطرب، وبخاصة في عصر ملوك الطوائف.
- 2 - تنوع الغزل بين الغزل المادي والغزل المعنوي.
- 3 - يمتزج أحياناً بوصف الطبيعة.
- 4 - يستخدم الصور والتشبيهات بكثرة؛ لتكوين صورة جميلة خلابة للمحبوبة.
- 5 - تغزل الفقهاء بالمؤنث، لكن الغزل بالذكر - وإن وجد - كان قليلاً جداً.

(1) المقرئ، نفح الطيب، 247/3.

(2) يعشي، بجلل، ابن منظور، لسان العرب، مادة عشو .

(3) العذار: الحياء، ابن منظور، م. ن، مادة عذر .

المبحث الثامن: موضوعات أخرى:

قال الشعراء الفقهاء في أغراض شعرية غير السابقة، وقد تكون برزت عند شاعر ولم تبرز عند الآخرين، ومن هذه الأغراض: الألغاز، والإجازة، والسخرية والتهكم، والاستتجاد، والمعارضات.

1. الألغاز:

{ مُخَلَّع البسيط }

من الألغاز قول ابن لبال: (1)

حَلٌّ مُبَاحٌ وَذِي حَرَامٍ
مَا الْحَلُّ مِنْهَا وَمَا الْحَرَامُ

سَبِيئَتَانِ اثْنَتَانِ هَذِي
قُلْ لَذَوِي الْعِلْمِ خَبْرُونِي

{ الوافر }

وقال أيضاً: (2)

وَأُقْتَلُ مِنْ مُعَانِقَةِ الْعَجُوزِ
وَلَا بَالُذَّ مِنْ بَوْلِ الْعَجُوزِ

مُعَانِقَةُ الْعَجُوزِ أَشَدُّ عِنْدِي
وَمَا رِيْقُ الْعَجُوزِ أَمْرٌ عِنْدِي

2. الإجازة:

قال عتيق المغني [المهدوي] وهو بالقصر لأبي محمد غانم بن وليد: إني أحفظ بيتاً فلعلك تذيله، وأدخله في طريقته، والبيت: (3)

{ البسيط }

وَالْبَدْرُ لَوْ كَلَّفُوهُ ذَاكَ لَمْ يَنْبِ

يَا نَائِبَ الْوَجْهِ عَنْ شَمْسِ الضُّحَى غَسَقاً

{ البسيط }

فقال بديهة: (4)

بَدْرٌ يَعْطِلُ نَوْرَ السَّبْعَةِ الشُّهُبِ

فِي غُرَّةِ الْمَلِكِ الْعَالِي وَمَنْظَرِهِ

(1) ابن دحية، المطرب، ص 98، السبيئة الأولى: هي الشاة المسلوخة، يقال سبأت الجلد، إذا سلخته؛ والثانية: الخمر، ابن منظور، لسان العرب، مادة سبأ.

(2) ابن دحية، م.ن، ص، 98، العجوز الأولى: المرأة المسنة، والثانية: السيف؛ والثالثة: الخمر؛ والرابعة: البقرة؛ وبولها: لبنها. ابن منظور، م.ن، مادة عجز.

(3) ابن بسام، الذخيرة، 859/2.

(4) ابن بسام، م.ن، 859/2.

نرى محيّاؤه في ليلٍ فيخبرنا عن الحقيقة أنّ الشّمسَ لم تغبِ

3. السخرية والتهكم:

قال ابن حزم ساخراً ومتهكماً من رجل كان عنده ضيوف، كانوا يتغامزون ويزنون، فقال ابن حزم فيهم أبياتاً ملّ منها صاحب البيت، وقال له: لقد أملتتاً، فخرج ولم يعد إلى البيت: (1)

{الخفيف}

أنتَ لا شكَّ أحسنُ الناسِ ظناً ويقيناً ونياً وضاميراً
فانتبه أن بعض مَنْ كان بالأُمِّ سِ جليساً لنا يعانِي كبيراً
ليس كلُّ الرُّكوعِ فاعلمُ صلاةً لا ولا كلُّ ذي لحاظٍ بصيراً

4. الاستنجاد:

استصرخ الفقيه أبو حفص الهوزني المسلمين، فقال: (2)

{الطويل}

أيا أسفاً للدين إذ ظلَّ نهْبةً بأعيننا والمسلمونَ شُهودُ
أفي حرمِ الرّحمنِ يلحدُ جهرةً ويُجعلُ أشراكَ الإلهِ يهودُ
ويثَلِّبُ بيتَ الله بينَ بيوتِكُم وقادره عن ردِّ ذاكِ قعيدُ
ويوضعُ للدّجالِ بيتٌ بمكةٍ ويخفى عليكم منزعٌ وقُصودُ

فهو يستصرخ المسلمين أن يهبوا لنصرة حرم الله، ويستنكر أن يلحد فيه جهرة، ويدعي اليهود الألوهية، ويبني للدجال بيت بمكة، ولا يعرفون مقاصدهم وأهدافهم.

{الطويل}

وقال يستصرخ الأمير عباد: (3)

أعبادُ ضاقَ الذُّرْعُ واتَّسعَ الخَرْقُ ولا غربَ للدنيا إذا لم يكنْ شَرْقُ
ودونك قولاً طالَ وهو مقصّرٌ فللعينِ معنًى لا يعبرُهُ النُّطقُ

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 281 .

(2) ابن بسام، الذخيرة، 92/3.

(3) ابن بسام، م.ن، 85/3.

إِلَيْكَ انْتَهت آمَالُنَا فَارِمَ مَا دَهَى بعزمِكَ يَدْمَغُ هَامَةَ الْبَاطِلِ الْحَقُّ

فهو يقول إن الأمور قد وصلت إلى حد لا يطاق، وبلغ السيل الزبي، وانتهت آمالنا، فليس لنا إلا أنت، ويطلب منه أن يدفع الباطل ويحاربه.

6. المعارضات:

عارض أبو بكر الطرطوشي دالية الوأواء الدمشقي التي مطلعها: (1) {مجزوء الكامل}

قَمَرٌ أَتَى مِنْ غَيْرِ وَعَدِ فِي لَيْلَةٍ طُرِقَتْ بِسَعْدِ

فقال: (2) {مجزوء الكامل}

قَمَرٌ بَدَأَ مِنْ غَيْرِ وَعَدِ	حُقَّتْ شَمَائِلُهُ بِسَعْدِ
قَبْلَتُهُ وَرَشَفَتْ مَا	فِي فِيهِ مِنْ خَمَرٍ وَشَهْدِ
فَرَشَفَتْ مُزْنَ السَّلْسَبِيِّ	لِ بَزَنْجَبِيلٍ مَسْتَعْدِ
وَلَثَمَتْ فَاهُ مِنَ الْغُرُو	بِ إِلَى الصَّبَاحِ الْمَسْتَجْدِ
وَسَكَرَتْ مِنْ رَشْفِي الْعَقِي	قَ عَلَى أَقَاحٍ تَحْتَ رَنْدِ
فَنَزَعَتْ عَنْ فَمِهِ فَمِي	وَوَضَعَتْ خَدًّا فَوْقَ خَدِّ
وَشَمَمَتْ عُرْفَ نَسِيمِهِ الـ	جَارِي عَلَى مَسْكِ وَنَدِّ
وَصَحَوْتُ مِنْ رِيَا الْقَرْنِ	فُلٍ بَيْنَ رِيحَانٍ وَوَرْدِ

هذه نماذج من أغراض شعر الفقهاء وموضوعاته في عصري ملوك الطوائف والمرابطين، فيها من القوة وجودة التعبير ما يدحض رأي من قلل من شأن شعرهم، وهي جديرة أن تنفي عنهم تهمة ضعف الشعر، فقد ثبت بأن هذا الحكم قد أطلق من دون تمحيص ولا تدقيق.

(1) المقرئ، نفح الطيب، 89/2.

(2) المقرئ، م، 89/2.

الفصل الثاني: شعر الفقهاء: دراسة فنية

- المبحث الأول: اللغة والأسلوب.
- المبحث الثاني: البناء الموسيقي.
- المبحث الثالث: الصورة الفنية.
- المبحث الرابع: التأثير بالمعاني الإسلامية.

المبحث الأول: اللغة والأسلوب:

تمهيد:

بسبب التطور الحاصل في حياة الأندلسيين، ووجودهم في بيئة حضارية جديدة جمعت أجناساً بشرية متعددة، تختلف في لغاتها وجنسياتها وأديانها، تأثرت لغتهم بالبيئة الجديدة، حيث مالت إلى السهولة واليسر، والبعد عن التعقيد والغموض، وصار الشعر عندهم سلساً يسيراً، يقترب من لغة العصر، من دون توعّر ولا تعقيد.

وما كان الشعراء الفقهاء بعيدين عن ذلك، بل التزموا بالخصائص والسمات العامة للشعر الأندلسي بعمامة، وللشعر في عصري ملوك الطوائف والمرابطين بخاصة، فقد جاء في أشعارهم بعض الألفاظ التي كانت وليدة الحضارة الجديدة، مثل كلمة سيدي، كما في قول ابن حزم:⁽¹⁾

{الطويل}

على سيّدي منّي رقيبٌ مُحَافِظٌ وَفِي لِمَنْ وَالَاهُ لَيْسَ بِنَاكِثٍ
الشاعر يتحدث عن محبوبته، ويبين أن الله قد خصه بأن جعل له رقيباً عليها ، وهذا الرقيب وفيّ له يسجل له كل شيء ، ولا ينكث عهده معه.

{الوافر}

وقال الإلييري مبتهلاً إلى الله:⁽²⁾

عَصَايُكَ سَيِّدِي وَيَلِي بَجَهْلِي وَعَيْبُ الذَّنْبِ لَمْ يَخْطُرْ بِيَالِي
كذلك استخدموا لقب شهاب، قال الإلييري يمدح القاضي ابن توبة:⁽³⁾

{الخفيف}

يَشْهَدُ الْعَالَمُونَ فِي كُلِّ فَنٍّ أَنَّهَ كَالشَّهَابِ فِي الْعُلَمَاءِ
وهو هنا شبهه بالشهاب المنير السريع البارز بين زملائه من العلماء.

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، ص168.

(2) الإلييري، الديوان، 119.

(3) الإلييري، م.ن، 88.

واستخدموا لفظ عسكر، فقد قال الإلبيري: (1)

{الطويل}

سَأَضْرِبُ فُسْطَاطِي عَلَى عَسْكَرِ الْبَلَى وَأَرْكُزُ فِيهِ لِلنُّزُولِ فَنَاتِي
وقال أيضاً: (2)

{الكامل}

وَأَرَى شَبَابِي ظَاعِنًا فِي عَسْكَرٍ عَنِّي وَشَبِيي وَافِدًا بِعَسَاكِرِ
حيث صورّ شبابه في ذهابه بالعسكر المدبر، وصور شبابه القادم بالعساكر، دلالة على كثرة الشيب في رأسه.

وقال ابن حزم: (3)

{الطويل}

وَقَدْ تَنَرَّأَى الْعَسْكَرَانِ لَدَى الْوَعَى وَبَيْنَهُمَا لِلْمَوْتِ سَيْلٌ بَوَارِ
حيث شبه الجيشين المتحاربين وجعل لهما سيلاً، على سبيل الاستعارة.

أولاً- السهولة والبعد عن التكلف:

هاتان الصفتان من أبرز ميزات شعر الفقهاء في حقبة الدراسة، وإذا تتبعنا قصائد الفقهاء ومقطوعاتهم وجدنا أن جميع قصائدهم تزخر بالألفاظ السهلة، ولا نجد قصيدة واحدة تخلو منها، فقد قال أبو بكر الطرطوشي: (4)

{السريع}

صَرَفَ بَقَايَا الْعُمُرِ فِي طَاعَةٍ وَلَا يَغْرُنُّكَ كَيْدُ الْغُرُورِ
وَارْحَلْ إِلَى الْأُخْرَى بَزَادِ التَّقَى فَإِنَّمَا الدُّنْيَا مَتَاعُ الْغُرُورِ

ولا يخفى على أي قارئ لها ما فيها من مباشرة ووضوح وسهولة ويسر، فالكلمات العمر، وطاعة، والغرور، وارحل، والتقى، والدنيا، ومتاع كلها كلمات من قاموس الحياة اليومية التي يسمعاها الإنسان ويتلفظ بها.

(1) الإلبيري، الديوان، 54.

(2) الإلبيري، م.ن، 79.

(3) ابن حزم، طوق الحمامة، ص276.

(4) ابن بسام، الذخيرة، 1/ 858 .

ثانياً- الطباق:

الطباق: الجمع بين المتضادين، ويكون ذلك إما بلفظين من نوع واحد: اسمين، أو فعلين، أو حرفين؛ أو بلفظين من نوعين، والطباق أنواع: طباق الإيجاب، وطباق السلب.⁽¹⁾

ولا يمكن تمييز الشيء إلا بضده، إذ قالوا: بضدها تتمايز الأشياء، وقد أكثر الشعراء الفقهاء من توظيف الطباق في أشعارهم؛ لأن الطباق يقيم علاقات جديدة بين الكلمات، ويولد لدى السامع نوعاً من المفاجأة والإثارة، فيحقق نوعاً من التوازن، بين نفسية الشاعر المضطربة، وواقعه الذي يعيشه، فيتيح له المجال للتعبير عن الثنائيات والمتناقضات، وذلك على النحو الآتي:

أ - **طباق الإيجاب:** أكثر الشعراء الفقهاء من توظيف طباق الإيجاب، فقال أبو محمد عبد الحق ابن عطية:⁽²⁾

فإن يكُ بيننا وصلٌ جميلٌ وإلا فليكنْ هَجْرٌ طويلٌ

فقد طابق بين وصل وهجر، ما أدى إلى توضيح الحالة النفسية التي كان عليها الشاعر؛ للدلالة على الشمولية، فيتحرك في المعاني من المثالية إلى السوء، وهذا التضاد يعكس جمال البيت الذي زاد فيه الشاعر كلمة جميل إلى الوصل، وكلمة طويل إلى هجر؛ ليزيد الفارق بينهما.

وقال أبو محمد غانم بن وليد:⁽³⁾

ليس المقامُ عليكَ حتماً واجباً في بلدة تَدَعُ العزيزَ ذليلاً

إذ نجح الشاعر في تهويل أفعال أهل البلدة من خلال الضدين: العزيز، وذليل؛ ما جعل للشاعر مبرراً في هجرها وتركها.

ب - **طباق السلب:** أكثر الشعراء الفقهاء من توظيف طباق السلب، كما في قول ابن حزم:⁽⁴⁾

(1) ينظر: القزويني، الإيضاح، ص 477-480 .

(2) المقري، نفح الطيب، 525/2.

(3) ابن سعيّد، المغرب، 95/2.

(4) ابن حزم، الديوان، ص 80 .

{البسيط}

أَبْذَلُ الْمَالِ يُفْنِي الْبَذْلُ حَاصِلَهُ وَلَسْتُ أَبْذَلُ مَا يُنْمِي عَلَى النَّهَبِ

حيث طابق ابن حزم بين أبذل، ولا أبذل، فالشاعر في ذهنه فارق كبير بين مَنْ يبذل، وَمَنْ لا يبذل، لذلك يبذل ماله في وجوه الخير، ولا يبذله في وجوه الشر.

{مُخَلَّع البسيط}

وقال أبو محمد غانم بن وليد: (1)

وَيْلَاةٌ مِنْ سَوْءٍ مَا دَهَانِي يَتُوبُ غَيْرِي وَلَا أَتُوبُ

حيث جمع بين يتوب ولا أتوب، فالشاعر يعاني من التشتت والضياع وعدم التوبة، علماً أن غيره قد سبقه إلى التوبة، فعكس بذلك الوضع النفسي السيئ الذي يعيشه من سوء فعلته.

ثالثاً- المقابلة: وهي "أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر، ثم بما يقابل ذلك على الترتيب". (2)

وتأتي على أنواع:

{الخفيف}

1 مقابلة اثنين باثنين: كما في قول أبي إسحاق الإليري: (3)

وَمِنْ الْغَبَنِ هَجَرُ دَارِ خُلُودٍ وَبَقَاءُ وَوَصْلُ دَارِ الْفَنَاءِ

فقد قابل بين هجر وخلود، ووصل وفناء، حيث عبر الشاعر عن حالة التناقض التي يعيشها الإنسان، فهو يهجر الآخرة ولا يعد لها، ويقبل على الحياة الدنيا الزائلة.

{الطويل}

وقال ابن حزم: (4)

هَلِ الدَّهْرُ إِلَّا مَا عَرَفْنَا وَأَدْرَكْنَا فَجَاءَهُ تَبْقَى، وَلِذَاتِهِ تَفْنَى

(1) المقرئ، نفح الطيب، 525/2.

(2) القزويني، التلخيص، ص352.

(3) الإليري، الديوان، ص86.

(4) ابن حزم، الديوان، ص98.

حيث قابل بين فجائعه تبقى، ولذاته تفنى، وذلك لأن عالم الشاعر كان مليئاً بالتناقضات، فنقل هذه التناقضات إلى صورة الدهر، ليبين هول الأفعال التي يفعلها الدهر، حيث إن فجائعه تبقى، ولذاته تفنى، للدلالة على توالي المصائب واستمرارها، وتقطع المسرات وفنائها.

2 مقابلة أكثر من اثنين: كما في قول ابن حزم: (1)

{مُخَلَّعَ البسيط}

ما أَقْبَحَ الهَجَرَ بعد وصلٍ وأحسن الوصلَ بعد هجر

فالشاعر قابل بين قبح الهجر بعد الوصل، وحسن الوصل بعد هجر، لتقوية الفكرة والمعنى، وجعلها أكثر تأكيداً ووضوحاً ودلالة، وباعد المسافة بين الهجر بعد وصل وما يتركه من أثر سيئ في نفس الحبيب، وبين الوصل بعد هجر وما يتركه من أثر طيب في نفس الحبيب.

رابعاً- الترادف: أن يؤتى بالكلمة وما يقاربها في المعنى، ويرى بعض علماء العربية مثل الثعالبي، وأبي هلال العسكري أن لا ترادف في اللغة، بل للمعنى لفظ واحد، والباقي صفات له، لكنني أرى أن الترادف موجود، وذلك بسبب اختلاف اللهجات والبيئات، فما يسمى عند قبيلة باسم معين، يسمى عند قبيلة أخرى باسم آخر.

وقد أكثر الفقهاء الشعراء من استخدام المترادفات، فقال القاضي عياض: (2)

{الطويل}

أهزُّ بها عِطْفِيَّ من غير نشوة وأرخي بها ذيلاً من التيه والكبر

حيث استخدم التيه والكبر، ومعناهما واحد، فأراد الشاعر أن يؤكد المعنى، ويوضحه ويعتز به، علماً أن التيه والكبر منهى عنهما في الإسلام، لكن الشاعر أراد أن يفخر بهما على غيره.

وقال أبو محمد غانم بن وليد: (3)

{مجزوء الوافر}

إِمامٌ ماجدٌ مَلِكٌ يزِيلُ الغمَّ والبؤساً

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 202 .

(2) الأصفهاني، خريدة القصر، 936/2.

(3) ابن بسلام، الذخيرة، 864/2 .

فقد استخدم المترادفتين الغم والبؤس، ولهما معنى واحد، فللممدوح آثار وأعمال عظيمة، أراد الشاعر إظهارها للسامع، فكان عظم الأعمال والواقع السيئ باعثاً له على أن يأتي بالمعنى بلفظين يُجذّران المعاناة في نفسه.

خامساً- أسلوب الإنشاء:

الإنشاء: "الكلام الذي لا يحتمل الصدق والكذب؛ إذ ليس لمعناه قبل التلّفُظ به وجود خارجي يطابقه أو لا يطابقه، ويقسم إلى قسمين: طلب، وغير طلب. والطلب هو ما يطلب به شيء غير حاصل وقت الطلب، ومنه: الأمر، والنهي، والاستفهام، والتمني، والنداء. وغير الطلب: وهو ما لا يطلب به حصول شيء، ومنه: القسم، والمدح والذم، والتعجب، والرجاء." (1)

ووظف الشعراء الفقهاء الجمل الإنشائية في أشعارهم بكثرة، وخصوصاً الطلبية منها، وهي التي تستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب؛ وذلك لأنهم كانوا يأمرّون الناس بالمعروف، وينهون عن المنكر، كونهم كانوا قدوة المجتمع وممن يتقرب منهم الحكام، ويأخذون برأيهم، وأولها:

أ- الأمر:

الأمر: "طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، ويقصد بالاستعلاء: أن ينظر الأمر لنفسه على أنه أعلى منزلة ممن يخاطبه، أو يوجه الأمر إليه." (2)

وظف الشعراء الفقهاء الأمر، الذي جاء على صيغ الأمر الأربعة، وهي: فعل الأمر، واسم فعل الأمر، والمضارع المبدوء بلام الأمر، والمصدر النائب عن فعل الأمر، وخرج الأمر من معناه الحقيقي إلى معانٍ أخرى، منها:

1 -النصح والإرشاد: وقد كان من أكثر المعاني التي خرج إليها الأمر، وذلك لأن أهم مهمات

الفقهاء تتمثل في إسداء النصح والإرشاد إلى الناس جميعهم.

{الكامل}

قال أبو محمد غانم بن وليد: (3)

(1) القزويني، الإيضاح، ص 227 .

(2) عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص 81.

(3) ابن سعيد، المغرب، 318/1.

وَإِذَا الدِّيارُ تَتَكَّرتُ حَالُتُها فَدَعِ الدِّيارَ وَأَسْرِعِ التَّحوِيلَا

فالشاعر هنا يقدم النصيح والإرشاد للإنسان إذا ما ضاقت عليه الديار بما رحبت، فعليه أن يتركها ويرحل، وهو يستمد المعنى من حادثة هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

2 -الإباحة: كما في قول ابن حزم:⁽¹⁾ {المتقارب}

وَقُلْ ما بَدالَكَ مِنْ بَعْدِ ذَا وَأَكْثَرَ فَإِنْ سَكَوتِي خِطاب

حيث إنه قد أباح له أن يتكلم بما يشاء، ويكثر، فهو بعد التصرف الذي سلف منه لا يقيم له وزناً، ففي سكوته عنه خطاب.

وقال أبو إسحاق الإلبيري أيضاً:⁽²⁾ {الوافر}

أَبَا بَكْرٍ كَشَفْتَ أَقْلَ عَيْبِي وَأَكْثَرَهُ وَمُعْظَمَهُ سَتَرْتَا
فَقُلْ ما شِئْتَ فِيَّ مِنَ المَخازِي وَضَاعَفْها فَإِنَّكَ قَدْ صَدَقْتَا

حيث أباح له أن يقول فيه ما يشاء من المخازي، وأن يضاعفها، فقد صدق فيما يقول؛ لأنه كشف قليلاً من العيوب التي فيه، وستر كثيراً منها.

3 -التحقير: كما في قول الإلبيري:⁽³⁾ {الوافر}

وَنَفَسَكَ ذُمَّ لا تَذُمَّمُ سِوَاها بَعِيبَ فَهِيَ أَجْدَرُ مَنْ ذَمَّمْتَا

حيث يطلب الإلبيري من الإنسان أن يحقر نفسه، لا غيرها، فهي التي تستحق الذم؛ لأنها أغوته، وألهته عن أمور دينه.

4 -التعجيز: كما في قول الإلبيري:⁽⁴⁾ {الكامل}

طَرِ كَيْفَ شِئْتَ فَأَنْتَ فِيها واقِعٌ عان⁽⁵⁾ بِها لا يُرْتَجى لِفَكَاكِ

(1) المقرئ، نفح الطيب، 80/2 .

(2) الإلبيري، الديوان، ص 28 .

(3) الإلبيري، م. ن، ص 26 .

(4) الإلبيري، م. ن، ص 34 .

(5) عان: أسير ذليل، ابن منظور، لسان العرب، مادة عنا.

الشاعر هنا يطلب من الإنسان أن يطير، لكنه على يقين من أن هذا الإنسان لن يستطيع الطيران فوق الأرض، بل سيقع فيها ذليلاً أسيراً، وفي هذا إظهار مدى عجز الإنسان أمام الله.
5 -الدعاء: كما في قول الإلبيري: (1)
{الوافر}

أَتَيْتُكَ رَاجِياً يَا ذَا الْجَلَالِ فَفَرَّجَ مَا تَرَى مِنْ سَوْءِ حَالِي
فَهَا أَنَا عَبْدُكَ الْعَاصِي فَقِيرٌ إِلَى رُحْمَاكَ فَأَقْبَلْ لِي سُؤَالِي

فهو يدعو الله أن يفرِّج مصيبتَه، وأن يقبل دعاءه؛ لأنه رغم فقره وحاجته إلى رحمة ربه، فإنه قد عصى الله، لكن الشاعر ندم على ذلك.

وقال أبو محمد بن عطية المحاربي: (2)
{البسيط}

مضى وأبقى بقلبي منه نار أسى كوني سالماً وبرداً فيه يا نار

حيث يدعو الشاعر أن تكون النار التي خلفتها مرحلة الشباب في قلبه سالماً وبرداً، حيث اقتبس هنا من القرآن الكريم قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام.

6 -الاستعطف والاسترحام: كما في قول ابن لبال يستعطف الأمير أبا إسحاق ابن أمير المسلمين: (3)
{الكامل}

جاءتْكَ آمَالُ الْعُفَاةِ ظَوَامِئاً فَاجْعَلْ لَهَا مِنْ مَاءِ جُودِكَ مَوْرَداً
وَانْثُرْ عَلَى الْمُدَّاحِ سَيِّبَكَ إِنَّهُمْ نَثَرُوا الْمَدَائِحَ لَوْلُؤاً وَزَبَرْجَداً

الشاعر هنا يستعطف الأمير أبا إسحاق ابن أمير المسلمين، ويطلب منه أن يجود على مدّاحه، الذين جاؤوه عطاشاً، كناية عن قلة ذات اليد، ويطلب منه أن ينثر عليهم من نعمه، فهم الذين نثروا قصائدهم التي مدحوه بها كاللؤلؤ والزبرجد.

(1) الإلبيري، الديوان، ص 119 .

(2) ابن الخطيب، الإحاطة، 414/3 .

(3) المقرئ، نفح الطيب، 232/4 .

ب- النهي:

النهي: "طلب الكف عن العمل، وقد يستعمل في غير طلب الكف أو الترك، كالتهديد في قولك لعبد لا يمتثل أمرك: لا تمتثل أمري، وله صيغة واحدة هي المضارع المقترن بـ (لا) الناهية".⁽¹⁾

أكثر الشعراء الفقهاء من توظيف النهي في أشعارهم، وبخاصة حينما نهوا عن الحرام، والعادات السيئة، وخرج النهي عندهم إلى معانٍ أخرى، منها:

1 -النصح والإرشاد: كما في قول الفقيه أبي محمد غانم بن وليد: ⁽²⁾ {البسيط}

وَلَا تُسَامِحْ بَغِيضاً فِي مُعَاشِرَةٍ فَقَلَّمَا تَسَعُ الدُّنْيَا بَغِيضَيْنِ

حيث ينصح الشاعر الإنسان أن لا يسامح من يبغضه، فالمبغضان لا يجتمعان ولا يتفقان.

2 -الالتماس: قال الإلبيري يخاطب إخوته: ⁽³⁾ {الطويل}

وَلَا تَصِفُونِي بِالَّذِي أَنَا أَهْلُهُ فَأَشْقَى وَحَلَّوْنِي بِخَيْرِ صِفَاتٍ

حيث يطلب الشاعر من إخوانه ألا يصفوه بما فيه من صفات، بل يطلب منهم أن يصفوه بأحسن الصفات، والشاعر هنا يندب نفسه، ويذكرها المعاد، وبما أن الكلام صدر من الشاعر إلى إخوته فقد جاء على سبيل الالتماس؛ لأنهم متساوون في المنزلة.

3 -التهديد: قال ابن حزم: ⁽⁴⁾ {البسيط}

لَا يَشْمَتَنَّ حَاسِدِي إِنْ نَكَبْتُ عَرَضَتُ فَاَلدَّهْرُ لَيْسَ عَلَى حَالٍ بِمُتَّرَكٍ

الشاعر هنا يهدد حاسده أن لا يشمت به إذا أصابته مصيبة، لأن الدهر لا يبقى على حال، وفي هذا تهديد واضح حيث إنه يلح له أنه سيكون معرضاً للشماتة في يوم من الأيام.

(1) القزويني، الإيضاح، ص244.

(2) ابن بسام، الذخيرة 859/2 ؛ المقرئ، نفح الطيب، 596/3.

(3) الإلبيري، الديوان، ص 56 .

(4) ابن حزم، الديوان، ص93.

4 -التوبيخ: كما في قول الإلبيري: (1) {الوافر}

فَلَا تَأْمَنُ سُؤَالَ اللَّهِ عَنْهُ بِتَوْبِيخٍ عَلِمْتَ فَهَلْ عَمِلْنَا

والشاعر هنا يوبخ من يظن أنه سيكون آمناً من سؤال الله عن أعماله.

5 -التحقير: كما في قول الإلبيري: (2) {الوافر}

فَلَا تَرْضَ الْمَعَايِبَ فَهِيَ عَارٌ عَظِيمٌ يُورِثُ الْإِنْسَانَ مَقْتًا

هنا الشاعر يحقر من يرضى بالمعائب لأنها عار عظيم، يورث الإنسان الخسة والمقت.

6 -الدعاء: كما في قول ابن حزم: (3) {الطويل}

فَلَا تَيْأَسِ يَا نَفْسُ عَلَّ زَمَانَنَا يَعُودُ بِوَجْهِ مُقْبِلٍ غَيْرِ مُدْبِرٍ

يدعو الشاعر نفسه ألا تيأس، فهو يرجو من الله أن ينقلب زمانه، وتبديل أفراده بأحرانه.

ج- الاستفهام

الاستفهام: "استخبارك عن الشيء الذي لم يتقدم لك به علم." (4)

أكثر الشعراء الفقهاء من استخدام صيغ الاستفهام، خاصة عندما كانوا يخاطبون الممدوحين، أو المرثيين، أو المتغزل بهن أو بهم، خاصة حينما كانوا يسألون الناس عن أفعالهم وعن سبب تقاعسهم عن نصره الدين، وعن دورهم في الحياة، وماذا أعدوا للآخرة، واستخدموا معظم أدوات الاستفهام؛ فاستخدموا حرفي الاستفهام هل والهمزة، و أسماء الاستفهام: أي، ومن، وكيف، ومتى، وكم، وأنى، وأيان.

(1) الإلبيري، الديوان، ص 21 .

(2) الإلبيري، م. س، ص 28 .

(3) ابن حزم، رسائل ابن حزم، 203/1.

(4) فضل عباس، البلاغة فنونها وأفنانها: علم البيان والبدیع ، ص711.

وقد خرج الاستفهام في شعر الفقهاء إلى مجموعة من المعاني، منها:

1 -التقرير: ومن ذلك قول أبي بكر ابن العربي يتشوق إلى بغداد، ويخاطب فيها أهل الوداد: (1)

{الطويل}

أَمْنُكَ سِرَى وَاللَّيْلُ يَخْدَعُ بِالْفَجْرِ خِيَالُ حَبِيبٍ قَدْ حَوَى قَصَبَ الْفَخْرِ

حيث يقرر الشاعر أن خيال محبوبته قد سرى من بغداد ليلاً، وهذه المحبوبة هي التي حازت قصب الفخر بحبه لها.

2 -التعجب: كما في قول الفقيه أبي حفص الهوزني: (2)

{الطويل}

أَفِي حَرَمِ الرَّحْمَنِ يُلْحَدُ جَهْرَةً وَيَجْعَلُ أَشْرَاكَ إِلَهَ يَهُودَ

فالشاعر يتعجب ويستغرب كيف يلحد بكفر بالله جهاراً في الحرم، وفي ذلك تقرير للمسلمين على نقاعسهم في نصرة إخوانهم.

{الوافر}

وقال الإلبيري أيضاً: (3)

أَفِي السِّتَيْنِ أَهْجَعُ فِي مَقِيلِي وَحَادِي الْمَوْتِ يَوْقِظُ لِلرَّوَّاحِ

فالشاعر أخرج الاستفهام من معناه الحقيقي إلى التعجب، حيث يتعجب من إخلاده للراحة وتكاسله عن الإعداد للحياة الآخرة، علماً أنه قد بلغ الستين من عمره؛ ما ينذر بقرب الرحيل.

{الخفيف}

3 -النفى: ومنه قول الإلبيري: (4)

أَيُّ خَيْرٍ لَوَالِدٍ فِي بَنِيهِ وَهُوَ عَنْهُمْ يَفْرُ يَوْمَ الْجَزَاءِ

(1) المقرئ، نفح الطيب، 34/2 .

(2) ابن بسام، النخيرة، 92/3 .

(3) الإلبيري، الديوان، ص 43 .

(4) الإلبيري، م.ن، ص 85 .

حيث ينفي أن يكون لوالد خير في بنيه يوم القيامة، مؤكداً المعنى بالآية الكريمة "يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ"⁽¹⁾.

وقال ابن حزم:⁽²⁾ {الطويل}

هَلْ لِلْوُلُوِّ الْمَكْنُونُ وَالْدَّرُّ كُلُّهُ رَأَيْتَ بَغِيرَ الْغَوْصِ فِي الْبَحْرِ يُطْلَبُ

فهو ينفي إمكانية الحصول على اللؤلؤ والدَّرُّ من دون الغوص في البحر.

4 - الاستبعاد: قال الإلبيري:⁽³⁾ {الوافر}

فَمَنْ هَذَا الَّذِي بَعْدِي سَبَّكِي عَلَيْهَا مِنْ بَعِيدٍ أَوْ قَرِيبِ

حيث يستبعد أن يبكي عليها أحد بعده.

5 - الإنكار: ومنه قول الإلبيري:⁽⁴⁾ {الوافر}

وَكَيْفَ لَكَ السُّرُورُ وَأَنْتَ رَهْنٌ وَلَا تَدْرِي أَتَفْدَى أَمْ غَلَقْتَ

حيث ينكر عليه السرور وهو مرهون، ولا يدري هل سيفدى أم سيبقى رهينة.

ومنه قول ابن حزم:⁽⁵⁾ {السريع}

وَكَيْفَ تَقَرُّ النَّفْسُ فِي دَارِ نَقْلَةٍ قَدْ اسْتَيْقَنَتْ أَنْ لَيْسَ فِيهَا قَرَارُهَا

فهو ينكر أن تقر النفس في دار ليست دار القرار.

6 - المبالغة والتكثير: ومنه قول الإلبيري:⁽⁶⁾ {السريع}

(1) عيس، 34/80 .

(2) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 192.

(3) الإلبيري، الديوان، ص 32 .

(4) الإلبيري، م.ن، ص 24 .

(5) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 303 .

(6) الإلبيري، م.س، ص 71 .

أَيُّ خَطِيئَاتِي أَبْكِي دَمًا وَهِيَ كَثِيرٌ كُنُجُومِ السَّمَاءِ

حيث أفاد الاستفهام المبالغة والتكثير، فقد اقترف في حياته كثيراً من الذنوب، لذلك احتار في أن يختار منها ما يبكي عليه.

7 - **التعجيز:** ومنه قول ابن حزم: (1)

وَمَنْ يُمْسِكُ الْأَجْرَامَ وَالْأَرْضَ أَمْرُهُ بَلَا عَمَدٍ يُبْنَى عَلَيْهِ قَرَارُهَا

حيث يتحدى أن يستطيع أحد غير الله أن يمسك الكواكب والأرض بلا عمد.

8 - **العتاب:** ومنه قول أبي مروان بن سراج: (2)

أَتَعُودُ دَلْوِي مِنْ بُحُورِ سَمَاحِمٍ صِفْرًا وَلَيْسَتْ رَثَّةَ الْأَشْطَانِ

فالشاعر يعتب على الممدوح أن يعود من دون أن ينال من عطاياه.

9 - **التمني:** ومنه قول الفقيه أبي بكر الطرطوشي: (3)

أَحْبَابُنَا هَلْ يَجْمَعُ اللَّهُ شَمْلَنَا عَسَى نَلْتَقِيَ قَبْلَ الْمَمَاتِ وَنَحْضُرُ

فقد خرج الاستفهام إلى معنى التمني، فهو يتمنى أن يجمع الله شملهم، ويلتقون قبل الممات.

وقال أبو بكر بن الملح: (4)

هَلْ يَسْمَعُ الرَّبُّ شَكْوَانَا فَيَشْكِنَا أَوْ يَرْجِعُ الْقَوْلَ مَغْنَاهُ فَيُغْنِنَا

حيث يتمنى الشاعر أن يسمع الرب شكواه، فيشكيه، أو يرجع القول مغناه، فيغنيه.

(1) ابن حزم، طوق الجمامة، 305/1 .

(2) الأصفهاني، خريدة القصر، 927/2 .

(3) الأصفهاني، م.ن، 292/1 .

(4) الصفدي، الوافي بالوفيات، 61/7 .

د- التمني:

التمني: "طلب حصول الأمر المحبوب، دون أن يكون لك طمع وترقب في حصوله." (1)

والتمني يكون بأدوات مختلفة، منها: ليت، وهل، ولعلّ، ولو، وهلا، ولولا، ولوما.

وقد استخدم الفقهاء الشعراء في تمنّيهم ليت، فقال الشاعر ابن حزم: (2) {الطويل}

فيا ليتني في السّجن وهو مُعانقي وأنتم معاً في قصرٍ دارِ المُجدّدِ

فالشاعر يتمنى أن يكون في السجن ويعانقه فيه محبوبه، ويتمنى لخليليه أن يكونا معاً في قصر الأمير.

وقال الإلبيري: (3) {الوافر}

لعمري ليت أمي لم تلدني ولم أغضبك في ظلم الليالي

الإلبيري هنا يتمنى لو أن أمه لم تلده حتى لا يغضب ربه في ظلم الليالي، وهو هنا يتمنى المستحيل.

وقال أيضاً: (4) {السريع}

فليتني كنت لهم خادماً وليتني إذ لم أكن لم أكن

الشاعر هنا يتمنى أن يكون خادماً لمحبوبته، وإذا كان من المستحيل ذلك فهو يتمنى ألا يكون قد خلقه الله.

(1) فضل عباس، البلاغة فنونها وأفنانها: علم البيان والبدیع ، ص 111.

(2) ابن حزم، رسائل ابن حزم، 215/1.

(3) الإلبيري، الديوان، ص 119 .

(4) الإلبيري، م، ن، 103 .

وقال ابن لبال: (1)

{البسيط}

وَلَيْتَ أَنِّي لَوْ شَاهَدْتُ أَنْسَكَمَا عَلَى كُؤُوسٍ وَطَاسَاتٍ وَكِيزَانٍ

هنا الشاعر يتمنى لو تمتّع بأنس محبوبته وشرب معها الخمر.

واستخدموا عسى، فقال ابن حزم: (2)

{الطويل}

عسى يستجيبُ الرَّبْعُ إِذْ أَنَا سَائِلٌ وَهَلْ تُرْجِعُ اللَّفْظَ الطَّلُولُ الدَّوَارِسُ

يرجو الشاعر أن يستجيب الربع لسؤاله عندما يسأل عن محبوبته، وليس ذلك غريباً فإن بقايا الأطلال لا يمكن أن ترجع ألفاظه.

واستخدموا لعلّ، قال ابن حزم: (3)

{الوافر}

لَعَلَّكَ بَعْدَ عَتَبِكَ أَنْ تَجُودَا بِمَا مِنْهُ عَتَبْتَ وَأَنْ تَزِيدَا

حيث يرجو الشاعر ممدوحه أن يجود بما طلبه منه، وأن يزيد في عطائه.

(1) المقري، نفح الطيب، 234/4 .

(2) ابن حزم، رسائل ابن حزم، 215/1.

(3) ابن حزم، م. ن، 197/1.

هـ- النداء:

النداء: "طلب إقبال المدعو على الداعي بأحد أحرف النداء، التي ينوب كل منها مناب الفعل أدعو." (1)

وللنداء ثمانية أحرف، هي: الهمزة، وأي، ويا، وأيا، وهيا، وآ، وآي، ووا. يستخدم منها الهمزة، وأي لنداء القريب، وبقية الأدوات لنداء البعيد، وقد ينزل البعيد منزلة القريب، دلالة على قربهِ من القلب، وحضوره في الذهن وعدم غيابه عن البال، وقد ينزل القريب منزلة البعيد دلالة على علو مرتبته، أو انحطاط منزلته، أو غفلته، أو شرود ذهنه.

ووظف الفقهاء النداء في أشعارهم كثيراً، وخرج النداء عندهم من معناه الحقيقي إلى معانٍ أخرى، منها:

1 الإغراء: كما في قول الإلبيري للوزير أحمد بن عباس عندما زاره، فوجده منشغلاً: (2)

{السريع}

أَيَا وَزِيرًا لَمْ يَزَلْ آخِذَا عِنْدَ الْمَلَمَّاتِ بِأَيْدِينَا

حيث إنه خاطبه بقوله أيا وزيراً؛ لكي يغريه على تقديم المساعدة لهم، فهو الذي يأخذ بأيديهم عند الملمات.

{السريع}

وقال أيضاً: (3)

يَا صَاحِ سِرِّ فِي الْأَرْضِ كَيْمَا تَرَى مَا فَوْقَهَا مِنْ عِبَرِ اللَّهِ

والخطاب هنا للصاحب، والصاحب يستمع عادة لنصائح صاحبه، فهو يغريه لتقبل نصائحه بالسير على الأرض، ورؤية ما عليها من عبر.

(1) عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص 125.

(2) الإلبيري، الديوان، ص 111 .

(3) الإلبيري، م، ص 66 .

وقال ابن حزم: (1)

{الكامل}

يَا مَنْ جَمِيعُ الْحُسْنِ مُنْتَظِمٌ فِيهِ كَنْظَمُ الدُّرِّ فِي الْعَقْدِ

وهو هنا ينادي حبيبه الذي كان كل شيء فيه حسناً وجميلاً، بل وتناسق جماله وجسده مثل ترتيب اللؤلؤ في العقد.

2 - الزجر: كما في قول الإلبيري: (2)

{السريع}

يَا أَيُّهَا الْمُغْتَرُّ بِاللَّهِ فِرّاً مِنَ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ

الشاعر هنا يزجر المغتر بالله، ويطلب منه أن يعود إلى الله.

وقال أيضاً: (3)

{السريع}

يَا أَيُّهَا الْغَافِلُ عَنْ نَفْسِهِ وَيَا أَفِقْ مِنْ سِنَةِ الْغَافِلِ

ويزجر أيضاً الغافل في الحياة، ويطلب منه أن يفيق من غفلته، ويعود إلى رشده.

3 - الاختصاص: كما في قول ابن حزم: (4)

{المنسرح}

يَا أَيُّهَا اللَّاعِبُ الْمُجِدُّ بِهِ الدَّهْرُ أَمَا تَتَّقِي شَبَابَ نَكْبَةٍ

الشاعر هنا يخص المجد من اللاعبين بندائه، ويطلب منه أن يتقي نكبات الدهر.

4 - التعجب: كما في قول الإلبيري: (5)

{السريع}

يَا لَكَ بُسْتَانِ عُقُولٍ بَدَا لِعَيْنِ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ الْعَاقِلِ

هنا يتعجب الشاعر من عقل رجل من الفقهاء كان يطلب الكيمياء، وشبه عقله بالبستان، الذي ظهر لعين الإنسان المؤمن العاقل.

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 203

(2) الإلبيري، الديوان، ص 65 .

(3) الإلبيري، م. ن، ص 60 .

(4) ابن حزم، م. س، 301/1 .

(5) الإلبيري، م. س، ص 60 .

وكما في قول ابن حزم: (1)

{الطويل}

فيا لكَ جارِ الجَنبِ أَسْمَعُ حِسَّهُ وَأَعْلَمُ أَنَّ الصَّيْنَ أَدْنَى وَأَقْرَبُ

فهو يتعجب من جاره الذي لا يسمع صوته، فالصين أقرب له من سماع صوته.

5 الندية: كما في قول ابن حزم: (2)

{الطويل}

فَوَا رَاحَتِي إِنْ كَانَ زَادِي مُقَدِّمًا وَيَا نَصَبِي الَّذِي إِنْ كُنْتُ لَمْ أَتَزَوَّدْ

الشاعر هنا يندب راحته كناية عن عدم توافرها، لأن النذب للميت، وفي هذا إشارة إلى أنه سيراتح في الجنة إذا كان قدم لها بأفعاله، لكن إذا لم يقدم لها فإنه سيتعب كثيراً.

وكما في قوله: (3)

{الطويل}

فَوَاجِسِي المُضْنَى وَوَأَقْلِبِي المَغْرَى وَوَأَنْفَسِي التَّكْلَى وَوَأكْبِدِي الحَرَى

الشاعر هنا يندب جسمه المتعب، وقلبه المغرى، ونفسه التكلَى، وكبده المحروقة، كناية عن شدة معاناته في الحب.

6 التمني: كما في قول ابن حزم: (4)

{الطويل}

وَيَا خَيْرَ دَارٍ قَدْ تَرَكْتُ حَمِيدَةً سَقَتَكَ الغَوَادِي مَا أَجَلٌّ وَمَا أُسْرَى

وجه الشاعر نداءه إلى دار محبوبته، والدار ليست عاقلة، وبالتالي فقد خرج النداء إلى معنى التمني، فهو يتمنى أن تكون ديارها محمودة، وأن تسقيها الغمام بمطارها.

وقال أبو أيوب بن أبي أمية في وصف متنزه: (5)

{البسيط}

يَا مَنْزَلَ الحُسْنِ أَهْوَاهُ وَأَلْفُهُ حَقًّا لَقَدْ جُمِعَتْ فِي صَحْنِكَ البَدْعُ

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 216 .

(2) ابن حزم، م.ن، 96 .

(3) ابن حزم، م.ن، 313/1 .

(4) ابن حزم، م.ن، 312/1 .

(5) المقرئ، نفح الطيب، 550/3 .

أبو أيوب هنا ينادي منتزهاً، والمنتزه غير عاقل، فهو يتمنى أن يهواه ويألفه؛ بسبب ما جمعه
في وسطه من المحاسن.

المبحث الثاني

البناء الموسيقي (الموسيقا الداخلية والخارجية)

أولاً - الجناس:

الجناس بين اللفظين: تشابههما في اللفظ، واختلافهما في المعنى، ويقسم إلى قسمين: الجناس التام: وهو أن يتفق اللفظان في أنواع الحروف، وأعدادها، وهيئاتها، وترتيبها. والجناس الناقص: وهو أن يختلفا في واحد من الأمور الأربعة السابقة التي يجب توافرها في التام.⁽¹⁾

ويعد الإلبيري وابن حزم من الشعراء الفقهاء المكثرين من توظيف الجناس، فمقدرتهما الشعرية، وتمكنهما من ناصية اللغة العربية، وثقافتهما الواسعة مكنتهما من استخدامه استخداماً رائعاً دون تكلف ولا عناء، حتى أعطى شعرهم جرساً موسيقياً يثير انتباه السامعين، وتطرب له الأذن.

ومن الأمثلة على الجناس التام قول الإلبيري:⁽²⁾

قَدْ كَانَ مِنْ شِيَمِي الدَّهَاءَ فَتَرَكَتُهُ عِلْماً بِأَنَّ مِنَ الدَّهَاءِ تَرَكَ الدَّهَاءَ

فالجناس بين كلمتي الدَّهَاءَ الأولى وتعني جودة الرأي والعقل، والثانية وتعني العيب والنقص. وقد شكل الجناس تتابعاً إيقاعياً في نسق موسيقي جاء على شكل تكرار كلمات أغنى الوزن، وأضاف إليه نوعاً من الإيقاع.

ومثله قول ابن حزم:⁽³⁾

وعهدي بهنْدٍ وَهِيَ جَارَةٌ بَيْتِنَا وَأَقْرَبُ مِنْ هِنْدٍ لَطَالِبُهَا الْهِنْدُ

والجناس بين كلمتي هند (اسم فتاة)، والهند (دولة في شرق آسيا). والجناس هنا أعطى انسجاماً بين الشطرين، وخلق نوعاً من النغم المتكون بفعل تكرار كلمة هند، وأتاح للشاعر التعبير عن حالته النفسية التي يعيشها، حيث إن هند تتمنّع على من يطلبها.

(1) ينظر: القزويني، الإيضاح، ص535-541؛ عبد العزيز عتيق، علم البديع، ص159.

(2) الإلبيري، الديوان، ص49.

(3) ابن حزم، طوق الحمامة، ص216.

وأكثر الشعراء من استخدام الجناس الناقص، وجاء الجناس بإضافة حرف على اللفظ الأول، كما في قول الإلبيري: (1)

{الكامل}

أَيْنَ الْمُلُوكُ وَأَيْنَ مَا جَمَعُوا وَمَا ذَخَرُوا مِنْ ذَهَبِ الْمَتَاعِ الذَّاهِبِ

الجناس بين كلمتي ذهب وذاهب، والاختلاف الإيقاعي بين ركني التجانس (ذهب، ذاهب) في عدد الأحرف، أدى إلى اختلاف زمن الإيقاع بين المتجانسين، فيكون أحدهما (ذاهب) أطول زمناً في ترددات ذبذباته الصوتية؛ فذاهب تزيد عن ذهب بالفتحة الطويلة، وهي من أحرف المد، التي تعطي الاستمرار والتفخيم لهذا العمل، فالذهب ذو منظر جميل يهواه الناس، لذلك أتى باللفظة القصيرة، لكنه لا يدوم، ولا يبقى، فهو ذاهب، لذلك أتى بكلمة أطول، تبعاً للجو النفسي الذي يشعر به من تذهب أمواله وذهبه، وينجم عن ذلك كله تنوع في الإيقاع.

وقد يكون بتغيير حركة اللفظ، كما في قول الإلبيري: (2)

{المتقارب}

أَلِفْتُ الْعُقَابَ حِذَارَ الْعُقَابِ وَعَفْتُ الْمَوَارِدَ خَوْفَ الذُّنَابِ

فقد جانس الشاعر بين العقاب التي تعني حصناً قريباً من غرناطة، وبين العقاب التي تعني المعركة التي هُزم فيها المسلمون، ما أضفى على البيت جرساً موسيقياً تطرب له الأذن.

وقد يكون بتغيير ترتيب الأحرف، كما في قول الإلبيري: (3)

{الوافر}

تُغَارِلُنِي الْمَنِيَّةُ مِنْ قَرِيبٍ وَتَلَحُّظُنِي مُلَاحَظَةُ الرَّقِيبِ

إذ جانس بين قريب ورقيب، فالمغازلة تحتاج إلى قرب سواء أكان بدنياً، أم معنوياً، بينما الملاحظة تحتاج إلى مراقبة وتدقيق عن بعد؛ لهذا اختار للملاحظة أن يبدأ بحرف الراء الاحتكاكي، بينما اختار لمغازلة الموت حرف القاف الانفجاري، مما أضفى جرساً موسيقياً يثير انتباه المتلقين.

(1) الإلبيري، الديوان، ص 115 .

(2) الإلبيري، م.ن، ص 64 .

(3) الإلبيري، م.ن، ص 32 .

وقد يكون بحذف حرف، كما في قول أبي محمد غانم بن وليد من قصيدة يرثي الفقيه القاضي
أبا علي بن حسون: (1)

{الكامل}

الموتُ أعربَ في أصحِّ مساق أنَّ المنْيَةَ شَمَّرَتْ عن ساقِ

حيث جانس بين مساق وساق، ومساق تعني: الطريق، بينما تعني ساق: اليد، وقد جاء
الجناس مع التصريع ليعطي البيت جرساً موسيقياً مريحاً، حيث اختار لحرف الحاء في أصح حرف
الميم الشفوي، واختار لحرف النون بين الأسنان حرف السين المهموس.

وقد يكون الجناس بوضع حرف مكان آخر، كما في قول أبي بكر بن عطية المحاربي: (2)

{الكامل}

واعلَمْ بأنَّكَ لا تتألَّ قبُولُهُ حتَّى تكونَ تصوْمُهُ وتصوْنُهُ

حيث جانس بين تصومه وتصونه، فاستبدل حرف النون بالميم، حيث يظهر تقارب الميم
والنون في المخرج، وكلاهما من أحرف الإدغام بغنة، وكلاهما مجهور، لكن الميم شفوي، والنون
لثوي، لذلك اختار حرف النون الذي يخرج والهم مفتوح؛ دلالة على حالة الراحة التي يكون عليها
من يصوم الصيام.

(1) ابن بسام، الذخيرة، 866/2 .

(2) المقرئ، نفح الطيب، 525/2 .

ثانياً - التكرار:

تعد ظاهرة التكرار من أهم الأسس الفنية في إغناء إيقاع القصيدة، وسواء أكان التكرار حرفاً أم كلمة أم عبارة، أم شطراً، فإنه يجب أن يرتبط بالمعنى، فهو يضع بين أيدينا مفتاحاً للفكرة المسيطرة على الشاعر.

وللتكرار وظيفة إيقاعية إلى جانب وظيفته المعنوية، إذ إنه يحدث نغماً موسيقياً وأثراً إيقاعياً داخلياً، إلى جانب كل من الوزن والقافية، كما يوحي بأهمية ما تكتسبه الألفاظ من دلالات، فللتكرار إذن أشكال متباينة تتماشى والحالة النفسية للشاعر.⁽¹⁾

ووفق الشعراء الفقهاء في استخدامهم التكرار، وتفننوا فيه، حيث استخدموه وفق الآتي:

1 تكرار حرف معين: كما في قول الإليبري: ⁽²⁾	{الكامل}
أَحْمَامَةَ الْبَيْدَا أَطَلْتُ بُكَاءِ	فَبِحُسْنِ صَوْتِكَ مَا الَّذِي أَبْكَاءِ
إِنْ كَانَ حَقًّا مَا ظَنَنْتُ فَإِنَّ بِي	فَوْقَ الَّذِي بِكَ مِنْ شَدِيدِ جَوَاكِ
إِنِّي أَظُنُّكَ قَدْ ذُهِيتَ بِفُرْقَةٍ	مِنْ مُؤْنِسٍ لَكَ فَارْتَمَضْتَ لِذَاكِ
لَكِنَّ مَا أَشْكُوهُ مِنْ فَرْطِ الْجَوَى	بِخِلَافِ مَا تَجِدِينَ مِنْ شَكْوَاكِ
أَنَا إِنَّمَا أَبْكِي الذُّنُوبَ وَأَسْرَهَا	وَمُنَايَ فِي الشُّكْوَى مَنَالُ فَكَاكِ
وَإِذَا بَكَيْتُ سَأَلْتُ رَبِّي رَحْمَةً	وَتَجَاوَزاً فَبُكَايَ غَيْرُ بُكَاءِ

حيث كرر الشاعر حرف الكاف في ستة أبيات ثلاثاً وعشرين مرة، وكأنه بذلك يعرض ما آلت إليه حاله بعد أن رأى تلك الحمامة وهي تبكي، فتذكر ما يعانيه هو، ويعكس من خلال الأبيات صورة من صور حياته (أبكي، الشكوى، فكاكي، بكيت، بكاى)، كما جعل من تكرار حرف الكاف نغمة موسيقية، تنقل القارئ إلى جو النص، وإلى طبيعة الموقف الذي عاشه، فجسد من خلال الكاف كشفاً واضحاً لتجربته الانفعالية.

وكانت الكاف تكشف عن حلقات متتابعة متصلة لمرحلة عاطفية خاصة، عاشها الشاعر وهذه المرحلة متلاحقة مترابطة، لكنها تشكل في بنائها وحدة موسيقية، وإيقاعية مستقلة، هذا

(1) محمد بن أحمد، البنية الإيقاعية، ص 93-95 .

(2) الإليبري، الديوان، ص 35 .

الإيقاع، هو إيقاع نبضات قلب الشاعر، وزفراته التي كان ينفثها بسبب كثرة ذنوبه، لأن الصوت يجسد الإحساس، ويجعل السامع يستشعر المعنى بطريقة مباشرة.

2 تكرار بعض الكلمات بصيغتها، في بيت واحد، كما في قول ابن حزم: (1) {الطويل}

وَسَرَّاءُ أَحْشَائِي لِمَنْ أَنَا مُؤَثِّرٌ وَسَرَّاءُ أَنْبَائِي لِمَنْ أَتَحَبَّبُ

حيث كرر الشاعر عبارة (وسرّاء)، في بداية الشطرين؛ لجذب انتباه السامعين إلى أهمية ما يتلوها، ألا وهو الأحشاء والأنباء، وكلاهما له قيمة، فالأحشاء من أغلى الأعضاء للإنسان، والأخبار الحسنة لا يبيع بها إلا لمن يحب.

وقال الإلبيري: (2) {الكامل}

قَدْ كَانَ مِنْ شِيَمِي الدَّهَاءُ فَتَرَكْتُه عَلِمًا بِأَنَّ مِنَ الدَّهَاءِ تَرَكَ الدَّهَاءِ

الشاعر هنا كرر كلمة الدهاء ثلاث مرات، حيث كانت الكلمة المحورية في البيت، وأعطت البيت نغماً موسيقياً وأثراً إيقاعياً رائعاً.

3 تكرار أكثر من كلمة بصيغ مشتقة، كما في قول الإلبيري: (3) {الخفيف}

يَحْسِمُ الْأَمْرَ بِالسِّيَاسَةِ وَالْعَد لِ كَحَسَمِ الْحُسَامِ لِلْأَعْدَاءِ
أَوْ رَأَى أَحْنَفُ أَوْ أَحْلَمُ مِنْهُ حِلْمُهُ مَا انْتَمَوْا إِلَى الْحُلَمَاءِ

فقد كرر الشاعر في البيت الأول كلمة (يحسم)، فأتى بمشتق منها (حسم)، ثم أتى بـ (حسام)، وذكر في الثاني كلمة (أحلم)، ثم أتى بـ (حلم)، ثم (الحلماء)، فكانت الكلمة المكررة تمثل محور الحديث في البيت، والمعنى كله يدور حولها، فحققت نوعاً من التوكيد.

4 تكرار كلمة في قصيدة، كما في قصيدة الإلبيري التي كرر فيها كلمة الله في نهاية كل

بيت من أبياتها البالغة ثلاثة وخمسين بيتاً، قال: (4) {السريع}

يَا أَيُّهَا الْمُغْتَرُّ بِاللَّهِ فِرًّا مِنَ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ
وَلَذِ بِهِ وَاسْأَلْهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ نَجَا مَنْ لَازَ بِاللَّهِ

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 192 .

(2) الإلبيري، الديوان، ص 49 .

(3) الإلبيري، م، ن، ص 87 .

(4) الإلبيري، م، ن، ص 65 .

وَقُمْ لَهُ وَاللَّيْلُ فِي جُنْحِهِ	فَحَبَّذَا مَنْ قَامَ لِلَّهِ
وَاتْلُ مِنَ الْوَحْيِ وَلَوْ آيَةً	تُكْسَى بِهَا نُوراً مِنَ اللَّهِ
وَعَفِّرِ الْوَجْهَ لَهُ سَاجِداً	فَعَزَّ وَجْهَهُ ذَلَّ لِلَّهِ
فَمَا نَعِيمٌ كَمُنَاجَاتِهِ	لِقَانَتِ يُخْلِصُ لِلَّهِ
وَابْعِدْ عَنِ الذَّنْبِ وَلَا تَأْتِهِ	فَبَعْدُهُ قُرْبٌ مِنَ اللَّهِ

فتكرار لفظ الجلالة (الله) في القصيدة كلها زاد القصيدة جمالاً، وأعطاهما إيقاعاً رائعاً، حيث إن لفظ الجلالة الله ينتهي بحرف الهاء الذي هو حرف حلقي مهموس، ويعطي القارئ نفساً أكبر، إضافة إلى أن تكرار كلمة (الله) يدل على أنها كلمة محورية قامت عليها القصيدة كاملة، حيث إنه الرازق، والهامي، والمعز...، وهو ينصح العبد بالتعلق به.

وقد كرر الإلبيري في قصيدة أخرى كلمة النار في نهاية كل بيت من قصيدة مكونة من سبعة وثلاثين بيتاً، فقال: (1)

وَيْلٌ لِأَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ	مَاذَا يُقَاسُونَ مِنَ النَّارِ
تَتَقَدُّ مِنْ غَيْظٍ فَتَغْلِي بِهِمْ	كَمْ جَلَّ يَغْلِي عَلَى النَّارِ
فَيَسْتَغِيثُونَ لِكَيْ يُعْتَبُوا	أَلَا لَعَأٌ مِنْ عَثْرَةِ النَّارِ
وَكُلُّهُمْ مُعْتَرِفٌ نَادِمٌ	لَوْ تَقَبَّلُ التَّوْبَةَ فِي النَّارِ
فَتَارَةً يَطْفُو عَلَى جَمْرِهَا	فَالْوَيْلُ لِلْأَشْقَى مِنَ النَّارِ
وَكَلَّمَا رَامَ فِرَاراً بِهَا	وَتَارَةً يَرْسُبُ فِي النَّارِ
يَهْوِي بِهَا الْأَشْقَى عَلَى رَأْسِهِ	فَرَّ مِنَ النَّارِ إِلَى النَّارِ

وقد أعطى تكرار كلمة (النار) القصيدة قوة، حيث إنه أراد تصوير أهل النار، وسوء حالهم؛ لذلك كرر كلمة (النار) حتى تبقى عالقة في ذهن القارئ، فيفرّ منها، ويخشى عقابها، إضافة إلى ما أضفته على الوزن والإيقاع من موسيقى داخلية.

(1) الإلبيري، الديوان، ص 90 .

ثالثاً- التدوير:

التدوير: "أن يكون شطرا البيت مشتركين في كلمة واحدة"⁽¹⁾.

والبيت المدور ما كانت عروضه والتفعيلة الأولى من الشطر الثاني مشتركين في كلمة واحدة.⁽²⁾

والتدوير يسبغ على البيت غنائية وليونة ويمده فيطيل نغماته؛ بحيث يُحقّق تواصلًا في الصفوف تؤدي إلى سرعة في الإيقاع، ويضمن وحدة المقاطع والأجزاء التي يرد فيها، ويحقق وحدة نغمية في القصيدة كلها، ويسمح بتعدد النغمات وتنوعها بين الشطر والآخر.⁽³⁾

وقد استخدم الشعراء الفقهاء التدوير في أشعارهم، وكان ابن حزم والإبيري هما أكثر من استخدمه، فابن حزم استخدم التدوير في أكثر من عشرين موضعاً، من أشهرها:⁽⁴⁾ {المنسرح}

وطالِبِ باجْتِهَادِهِ زَهْرَةَ الدُّ دُنْيَا عَدَاهُ الْمَنُونُ عَنْ طَلِّبِهِ

إن استرسال الشاعر في البوح بخواطره وأفكاره يستلزم انسياب النغم، وترباطه، وتلاحمه موسيقياً ومعنوياً؛ لذلك جاءت كلمة الدنيا حلقة الوصل بين الاجتهاد والمنون، فالدنيا تحتاج إلى اجتهاد حتى نتعدى مرحلة الموت، ألا وهي مرحلة البرزخ. وهذا يدل على مقدرة الشاعر وطاقته الفياضة، وليس ذلك عجزاً منه. ويقول أيضاً:⁽⁵⁾ {المنسرح}

وَيَوْمَ عَرَضِ الْحِسَابِ يَفْضَحُهُ الـ لهُ وَيُبْدِي الْخَفِيِّ مِنْ رَبِّهِ

حيث توسطت كلمة الله بين عرض الحساب، وإبداء الخفي، فالله وحده هو الذي يعرض الناس للحساب، وهو وحده الذي يعرف خفايا الناس؛ لذلك شكل التدوير حلقة وصل بينهما، ولا يمكن أن يكون غير لفظ الجلالة الله، كما أدى إلى سرعة في الإيقاع، وتواصل بين المقاطع.

(1) محمد بن أحمد، البنية الإيقاعية، ص 93 .

(2) فيصل العلي، الميسر الكافي في العروض والقوافي، ص 16 .

(3) سيد البحراوي، في البحث عن لؤلؤة المستحيل، ص 52 .

(4) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 302 .

(5) ابن حزم، م.ن، ص 302 .

واستخدم الإلبيري التدوير في مواضع كثيرة، منها: (1) {السريع}

وَاسْتَلَّ قَسْرًا مِنْ قُصُورٍ إِلَى الْـ
أَجْدَاثٍ وَاسْتَسْلَمَ لِلَّهِ

حيث جاء التدوير في كلمة الأجداث التي تعني القبور، وتشكل القبور حلقة وصل بين حياة القصور في الدنيا، والاستسلام لله، فالإنسان عندما يتذكر الموت، ويفكر فيه، يترك الحياة الدنيا وما فيها ويستسلم لله.

وقال أبو محمد غانم بن وليد: (2) {مجزوء الرمل}

أَيُّهَا الْحَيُّ الَّذِي جَا
دَبْمَاءٍ دُونَ مَنْعٍ

حيث جاء التدوير في كلمة جاد، حيث حقق توأماً بين الشطرين، فألف المد في الشطر الأول أعطت الشاعر متنفساً للتعبير عن كرم الممدوح، وحرف الدال المجهور في الشطر الثاني أعطى الشاعر مجالاً لإظهار كرمه.

وقال أبو بكر الطرطوشي: (3) {مجزوء الكامل}

وَشَمَمْتُ عَرَفَ نَسِيمِهِ الْـ
جَارِي عَلَى مِسْكِ وَنَدٍّ

فالتدوير في كلمة الجاري، التي توسطت الشطرين؛ لأن الرائحة (العَرَف) تجري (تهب) من المسك والند، إن التوسط الموسيقي تبعه توسط معنوي، ما أضفى توأماً بين المقاطع، وأدى إلى سرعة في الإيقاع.

(1) الإلبيري، الديوان، ص 66 .

(2) ابن بسام، الذخيرة، 858/2 .

(3) المقرئ، نفح الطيب، 89/2 .

رابعاً- التصريح:

التصريح: "جعل العروض مقفاة تقفية الضرب، وهو مما استُحسن، حتى إن أكثر الشعر صرع البيت الأول منه."⁽¹⁾

والبيت المصرّع: "هو ما غيّرت عروضه عما تستحقّه؛ حتى توافق الضرب في الوزن والقافية."⁽²⁾

والتصريح ظاهرة قديمة في الشعر العربي، بدأت في العصر الجاهلي، واستمر الشعراء في العصور اللاحقة يصرّعون قصائدهم، وأولع بها الشعراء الأندلسيون؛ رغبة منهم في تحقيق الإيقاع النغمي الجميل، الذي يتناسب وجمال الطبيعة الساحرة في بلادهم.

وكان الشعراء الفقهاء ممن استخدموا التصريح بكثرة، وفي مختلف الأغراض الشعرية، في البيت، والنتفة، والقطعة، والقصيدة؛ لأن مقدمات القصائد أول ما يقرع السمع؛ لهذا جاءت منسجمة الشطرين من حيث الوزن.

{البسيط}

قال الفقيه أبو بكر بن الملح:⁽³⁾

أو يرجعُ القولَ مَغْنَاهُ فيُغْنِينَا

هل يسمعُ الرّبُّ شَكْوَانَا فيُشْكِينَا

حيث التصريح بين فيشكينا، ويغنيينا، وقد أعطى التصريح جرساً موسيقياً بسبب التناغم بين كلمتي (فيشكينا) و(يغنيينا)، والانسجام في قافية الشطرين التي كانت النون المطلقة التي أعطت الشاعر متنفساً للتعبير عن ألمه وحرقته لفراق المحبوبة.

{الطويل}

وقال الفقيه ابن الجد:⁽⁴⁾

فَحَسَنَّاؤُكَ الْغَرَاءُ أَبْهَى وَأَمْتَعُ

لئن رَأَى مَرَأَى لِلْحِسَانِ وَمَسْمَعُ

(1) القزويني، الإيضاح، ص 551 .

(2) عمر خليفة، في العروض والقافية، ص 22 .

(3) الصفدي، الوافي بالوفيات، 61/7 .

(4) الأصفهاني، خريدة القصر، 901/2 .

حيث التصريع بين مسمع وأمتع، وأعطى التصريع جرساً موسيقياً تمثل في الانسجام بين كلمتي (مسمع)، و (أمتع)، وتكرار القافية وهي حرف العين، الذي هو حرف حلقي مهموس، يسمح للشاعر التعبير عن عاطفة الإعجاب بالمحبوبة.

وقال الفقيه أبو العلاء بن زهر: (1)

{الكامل}

يا صارماً حسنُ العدا بمضائه وتعبُّدُ الأحرارِ حسنُ وفائه

فالتصريع بين مضائه ووفائه، حيث كرر الشاعر حرف الهاء في الشطرين، ليعطي نفسه متنفساً عميقاً، فالهاء حرف حلقي مهموس، وسبقه همزة المد التي تطيل الصوت؛ للتعبير عن إعجابه بشجاعة الممدوح.

وقال الفقيه أبو حفص الهوزني: (2)

{الوافر}

تَبَارَكَ مَنْ تَقَرَّدَ بِالْبَقَاءِ وَأَسْأَلَكَ خَلْقَهُ سُبُلَ الْفَنَاءِ

فالتصريع بين البقاء والفناء، فتكرار همزة المد في الشطرين أعطى رنة موسيقية خاصة، انسجمت مع المعنى، حيث إن هناك تضاداً بين البقاء والفناء، فالله له البقاء، والخلق لهم الفناء، فجاء الانسجام بين القافيتين معبراً عن الفارق الكبير في المعنى.

وقال الفقيه أبو عبد الله جعفر بن مكي (3): (4)

{الكامل}

انْظُرْ إِلَى الْأَطْوَادِ (5) كَيْفَ تَزُولُ وَلِحَالَةِ الْعِلْيَاءِ كَيْفَ تَحُولُ

(1) المقري، نفح الطيب، 433/3 . .

(2) ابن بسام، الذخيرة، 93/3 .

(3) جعفر بن محمد بن مكي بن أبي طالب بن محمد بن مختار القيسي: من أهل قرطبة، يكنى، أبا عبد الله. (450-535هـ)، روى عن أبيه محمد بن مكي، ولزم أبا مروان عبد الملك بن سراج الحافظ، واختص به وانتفع بصحبته، وأجاز له أبو علي الغساني ما رواه. وأخذ عن أبي القاسم خلف بن رزق الإمام. وكان عالماً بالأدب واللغات ذاكرة لهما، متفنناً لما قيده منهما ضابطاً لجمعهما، عني بذلك العناية التامة، وجمع من ذلك كتباً كثيرة. وهو من بيت علم ونباهة وفضل وجلالة. قال ابن بشكوال: سألته عن مولده فقال لي: ولدت بعد الخمسين والأربعمئة ببسبر. وتوفي سنة خمس وثلاثين وخمسمئة، ودفن بالربض. ترجمته في ابن بشكوال، الصلة، 129/1؛ ابن سعيد، المغرب، 108/1؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، 115/11؛ السيوطي، بغية الوعاة، 487/1؛ ابن بسام، م، ن، 814/2.

(4) ابن بسام، م، ن، 814/2؛ ابن سعيد، م، ن، 108/1 .

(5) الأطواد: الجبال، الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة، مادة طود .

حيث التصريح بين كلمتي تزول وتحول، فتكرار حرف اللام أعطى جرساً موسيقياً، وجذب انتباه السامع إلى الفكرة العامة من البيت ألا وهي التغير والزوال.

ومن الملاحظ أن الشعراء الفقهاء قد جاءت معظم قصائدهم ومقطوعاتهم مصرّعة، لأن التصريح دليل على مقدرة الشاعر الشعرية، وهو من محاسن الشعر.

خامساً- حسن التقسيم:

التقسيم: استيفاء جميع أقسام الشيء بالذكر، وقد ينقسم المعنى إلى: اثنين لا ثالث لهما، أو ثلاثة لا رابع لها، أو أربعة لا خامس لها، وهكذا.⁽¹⁾

وللتقسيم فائدة كبيرة ألا وهي حصر جوانب الموضوع، وترتيبها في ذهن السامع، وله فائدة موسيقية؛ لأن الوزن قائم على التقطيع الذي يعني تجزئة البيت وفق نسق معين في أشكال مختلفة. واستخدم الفقهاء التقسيم في أشعارهم، وذلك على النحو الآتي:

1 - ما يقسم إلى اثنين لا ثالث لهما، كما في قول الإلبيري:⁽²⁾ {الوافر}

وَيَحْمِلُنِي إِلَى الْأَجْدَاثِ صَحْبِي إِلَى ضَيْقٍ هُنَاكَ أَوْ انْفِسَاحِ

حيث أشار إلى أن حاله في القبر لا يعدو أحد حالين لا ثالث لهما: الضيق، أو الانفساح، وهذا يدل على استيفاء عناصر الموضوع، وعدم وجود وضع ثالث غيرهما.

2 - ما يقسم إلى ثلاثة لا رابع لها، كما في قول ابن حزم:⁽³⁾ {الطويل}

حَنِينٌ لِمَا وَلَّى وَشُغْلٌ بِمَا أَتَى وَغَمٌّ لِمَا يُرْجَى فَعَيْشُكَ لَا يَهْنَأُ

حيث بين حال الإنسان في حياته في ثلاثة أمور لا رابع لها: حنين إلى ما مضى، وشغل بما عنده، وغم لما يرجوه، وهذه سبب شقائه وبعده عن الهناء.

وقال أبو بكر يعقوب بن طلحة:⁽⁴⁾ {الطويل}

على كل طرفٍ يسبقُ الطَّرْفَ شَدُّهُ تَراهِ إِلَى الْعِلْيَاءِ مِثْلِي يَعْتَلِي
فَطَوْرًا عَلَى بَرْقٍ وَطَوْرًا عَلَى ضُحَى وَطَوْرًا عَلَى لَيْلٍ بِصُبْحٍ مُحَجَّلٍ

حيث شبه الخيل بثلاثة أمور لا رابع لها: مرّة بالبرق في سرعته، ومرّة بالضحى في بياضه، ومرّة بالليل في سواده، ومرّة بالصباح في تحجيله.

(1) ينظر: القزويني، الإيضاح، ص 510؛ عبد العزيز عتيق، علم البديع، ص 105.

(2) الإلبيري، الديوان، ص 44.

(3) ابن حزم، الديوان، 98.

(4) ابن سعيد، المغرب، 1/ 198.

3 - ما يقسم إلى أربعة لا خامس لها، كما في قول أبي محمد بن عطية المحاربي: ⁽¹⁾ {البسيط}

بِأَرْبَعٍ فَاقَتْ الْأَمْصَارَ قُرْطُبَةً وَهُنَّ قَنْطَرَةُ الْوَادِي وَجَامِعُهَا
هَاتَانِ ثَنْتَانِ، وَالزَّهْرَاءُ ثَالِثَةٌ وَالْعِلْمُ أَكْبَرُ شَيْءٍ وَهُوَ رَابِعُهَا

فقد عدّ عناصر تفوق قرطبة على غيرها من المدن وهي أربعة أشياء لا خامس لها: قنطرة الوادي، وجامع قرطبة، والزهراء، والعلم.

وقال ابن حزم: ⁽²⁾ {المتقارب}

زِمَامُ أَصُولِ جَمِيعِ الْفَضَائِلِ لِي عَدْلٌ وَفَهْمٌ وَجُودٌ وَبَاسٌ

فابن حزم جعل أصول الفضائل في أربعة أمور لا خامس لها، وهي: العدل، والفهم، والجود، والبأس.

سادساً - الوزن:

نظم الشعراء الفقهاء على نهج الشعراء السابقين، وقد تفاوتت البحور الشعرية في شعرهم من حيث الكثرة والقلّة، فكانت متذبذبة لم تظهر على وتيرة واحدة يألّفها شاعر، ويهملها شاعر آخر، بل هي تكثر عند شاعر وتقل عند آخر، وقد كانت نسب البحور الشعرية على النحو الآتي، علماً أن عدد الأبيات الشعرية التي شملتها الدراسة بلغ (3020) بيتاً:

البحر	الرئيس	مجزوء البحر	صور أخرى	المجموع	النسبة
الطويل	938			938	31%
الكامل	425	43	أخذ الكامل 3	468	16%

(1) المقري، نفح الطيب، 1/153، 616 .

(2) ابن حزم، الديوان، ص 102 .

البسيط	428	39	مُخَلَّع البسيط 3	480	15.5%
السريع	265	9		274	9.5%
الوافر	231	6		237	8.5%
المتقارب	248			248	8%
الخفيف	114	25		139	4.5%
الرملي	60	39		99	3%
المنسرح	97			97	3.5%
المحدث	23			23	1%
المديد	11			11	0.5%
الرجز		2		2	0%

يتضح من الجدول أن الشعراء الفقهاء قد أكثروا من النظم على البحر الطويل، لأنه يتكون من ثماني تفعيلات؛ ما يتناسب مع عظمة المواقف وأهميتها، فهو يصلح للموضوعات التي تكون دائماً مليئة بالطاقات الشعورية والانفعالات الوجدانية، التي تحتاج إلى بحر طويل ينفث فيه الشاعر ما يجيش في صدره من عواطف وانفعالات، والطويل له جرس موسيقي تطرب له الأذن، وموسيقاه هادئة خفيفة تتلاءم وتتسجم مع مواقف التحسر والتأسف والتشكي والتألم، وهذه مواقف تحتاج إلى تأمل وتعمق لا يصلح لها غير البحر الطويل، وذلك لما تحويه موسيقاه من طول وكثرة في المقاطع

وخفاء في الجرس، وهذا ما نظم عليه الشعراء الفقهاء شعرهم، فقد نظموا عليه في أغراض المدح، والحكمة، والغزل، والوصف، والرثاء، والهجاء، والفخر.⁽¹⁾

وهو يوفر نموذجاً منتظماً للإيقاع من جهة، ويسمح بدرجة عالية من الحرية في اختيار المفردات اللغوية، ولا يفرض صيغاً لغوية محددة؛ ما يتيح مجالاً خصباً لخلق إيقاعات يكون لها فاعلية موسيقية عميقة.⁽²⁾

ويليه الكامل وهو من البحور موفورة الحظ في كل العصور التي يطرقها الشعراء، ويكثر من النظم عليها، ويحدث جرساً موسيقياً تطرب له الأذن، حيث إنه يقوم على تكرار تفعيلة مُتَفَاعِلُنْ أو إحدى صورها الفرعية ست مرات في البيت الواحد؛ ما يحدث إيقاعاً خاصاً من تكرار مقطع (عَلُنْ) ست مرات، وقد نظم الشعراء الفقهاء عليه في أغراض المدح، والحكمة، والغزل، والوصف، والزهد، والرثاء، والهجاء، والفخر.

يليه البسيط الذي يقوم على تفعيلتين هما مستعلن، وفاعلن، تتكرر كل واحدة منهما أربع مرات في البيت الشعري، ما يتيح المجال لغناء البيت بسلاسة، وقد نظم الشعراء عليه في مختلف الأغراض، وكان ذلك جلياً في غرض المدح، حيث نظموا عليه 98 بيتاً، وفي الغزل، ونظموا عليه 71 بيتاً، ولعل ذلك بسبب أن البسيط بحر غنائي، ما جعلهم يستخدمونه في شبابهم.

إن البحور الطويلة تعطي الشاعر مجالاً للتفيس عن آلامه وأحزانه، فبيث شكواه بنفس طويل، فهي تستوعب المعاني كافة، وتصلح لكل الأغراض.⁽³⁾

والشاعر يختار من أوزان الشعر ما يناسب عاطفته من جهة وصوته من جهة أخرى، فالبحور الخفيفة كالخفيف والسريع والوافر ومُخَلَّع البسيط تناسب الشوق والحنين، لأنه ينبع من عاطفة صادقة، ونفس منفعة تنسجم مع البحور القصيرة.

وكما يتبين من الجدول فقد نظم الشعراء الفقهاء على اثني عشر بحراً عروضياً، واستخدموا البحور المجزوءة، ونظموا على بحور خفيفة، مثل: السريع، والمتقارب، والمنسرح، وقصر البحر

(1) ينظر: عبد الله الطيب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ص 83 .

(2) ينظر: كمال أبو ديب، في البنية الإيقاعية، ص 376 .

(3) ينظر: سليمان البستاني، مقدمة شرح إلبادة هوميروس، ص 91-92 .

سواء لخفته أم لتجزئته يمكن منشديه أن يتحكموا بأنفاسهم، فيزيّنوا وجودوا الإلقاء، على عكس البحور الطويلة التي تقطع أنفاسهم، ويضطرون أن يقسموا البيت إلى أقسام.

وفيما يلي تفصيل نظمهم على البحور حسب الأغراض:

1 - المدح: بلغ مجموع أبيات الوصف 540 بيتاً، جاء منها على البحر الطويل 245 بيتاً بنسبة 45%، وعلى البحر البسيط 98 بيتاً بنسبة 18%، وعلى السريع 55 بيتاً بنسبة 10%، وعلى الخفيف 46 بيتاً بنسبة 8%، وعلى الرمل 35 بيتاً بنسبة 6%، وعلى الكامل 34 بيتاً بنسبة 6%، وعلى المنسرح 13 بيتاً بنسبة 2%، وعلى المتقارب 12 بيتاً بنسبة 2%، وعلى الوافر 4 أبيات بنسبة 1%، وعلى المحدث 3 أبيات بنسبة 0.5%، والمديد 3 أبيات بنسبة 0.5%.

يتبين من الجدول أن معظم المدح جاء على البحر الطويل، فالبسيط، فالسريع؛ وذلك لأن المدح يحتاج إلى نفس طويل، وهذه الأبحر تعطي الشاعر هذا المتنفس، وتستوعب المعاني كافة، وتصلح لكل الأغراض، والمدح ليس من الموضوعات التي تتفعل لها النفوس، وتضطرب لها القلوب، وأجدد به أن يكون في قصائد طويلة، وبحور كثيرة المقاطع.⁽¹⁾

2 - الحكمة: بلغ مجموع الأبيات التي قيلت في الحكمة 475 بيتاً، جاء منها على البحر الوافر 148 بيتاً بنسبة 31%، يليه البحر الكامل، وجاء عليه 135 بيتاً بنسبة 28%، ثم الطويل 65 بيتاً بنسبة 14%، فالرمل وجاء عليه 34 بيتاً بنسبة 7%، فالخفيف وجاء عليه 29 بيتاً بنسبة 6%، وعلى البسيط جاء 27 بيتاً بنسبة 5%، يليه السريع وجاء عليه 18 بيتاً بنسبة 3%، ثم المتقارب وجاء عليه 13 بيتاً بنسبة 2%، فالمحدث وجاء عليه 7 أبيات، بنسبة 1%، وأخيراً جاء على المنسرح بيتان فقط بنسبة 0.5%.

والشاعر لا يقول الحكمة إلا في مراحل حياته الأخيرة، إذ إنه يكون في حالة من اليأس والجزع؛ لذا فإنه يتخير وزناً طويلاً كثير المقاطع، يصب فيه من أشجانه ما ينفس عنه حزنه وجزعه.⁽²⁾

3 - الغزل: بلغ مجموع أبيات الغزل 423 بيتاً، جاء منها على البحر الطويل 144 بيتاً بنسبة 34%، وعلى البحر البسيط 71 بيتاً بنسبة 17%، وعلى الكامل 60 بيتاً بنسبة 14%، وعلى المنسرح 56 بيتاً بنسبة 13%، وعلى السريع 20 بيتاً بنسبة 5%، وعلى الوافر 18 بيتاً بنسبة 4%،

(1) ينظر: إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص 178.

(2) ينظر: إبراهيم أنيس، م.ن، ص 177-178.

وعلى الخفيف 17 بيتاً بنسبة 4%، وعلى المحدث 5 أبيات بنسبة 1%، وعلى الرمل 4 أبيات بنسبة 1%.

يتبين مما سبق أن معظم الغزل جاء على البحر الطويل، فالبسيط، فالكامل؛ وهذه الأبحر من الأبحر الطويلة التي تعطي الشاعر مجالاً للتنفيس عن شوقه وآلامه وأحزانه، فيبث شكواه بنفس طويل، وذلك لأن الغزل يحتاج إلى نفس طويل، وهذه الأبحر تعطي الشاعر هذا المتنفس، خاصة وأن غزلهم قد نُظم في فترة الشباب.

4 - الوصف: بلغ مجموع أبيات الوصف 375 بيتاً، جاء منها على البحر الطويل 125 بيتاً بنسبة 33%، وعلى الكامل 68 بيتاً بنسبة 18%، وعلى البحر البسيط 52 بيتاً بنسبة 14%، وعلى المتقارب 41 بيتاً بنسبة 11%، وعلى السريع 24 بيتاً بنسبة 6%، وعلى الخفيف 22 بيتاً بنسبة 6%، وعلى الوافر 22 بيتاً بنسبة 6%، وعلى المنسرح 14 بيتاً بنسبة 4%، وعلى الرمل 5 أبيات بنسبة 1%، وعلى المحدث 4 أبيات بنسبة 1%.

يتضح أيضاً أن معظم الوصف جاء على وزن البحر الطويل، فالكامل، فالبسيط؛ وذلك لأن الوصف ارتبط بالبيئة الأندلسية الجميلة، ويحتاج إلى موسيقى طويلة، تعبر عن حالة الإعجاب والافتتان بالجمال، خاصة وأن معظم شعر الوصف قيل في مرحلة الشباب.

5 - الزهد: بلغ مجموع أبيات الزهد 300 بيت، جاء منها على المتقارب 103 أبيات بنسبة 34%، وعلى البحر الطويل 82 بيتاً بنسبة 28%، وعلى السريع 58 بيتاً بنسبة 19%، وعلى البسيط 24 بيتاً بنسبة 8%، وعلى الوافر 17 بيتاً بنسبة 6%، وعلى الرمل 7 أبيات بنسبة 2%، وعلى الكامل 7 أبيات بنسبة 2%، وعلى المحدث 3 أبيات بنسبة 1%.

ونلاحظ أن الزهد قد كثر نظمه على المتقارب؛ لأن المتقارب قائم على تكرار تفعيلة فعولن أربع مرات في الشطر الواحد، مما يمكن الشاعر من الانسجام مع الموقف، لأنه بحر خفيف فيه رنة ونغمة مطربة، وهو أصلح للشاعر في مراحل حياته الأخيرة.⁽¹⁾

6 - الرثاء: بلغ مجموع الأبيات التي قيلت في الرثاء 267 بيتاً، جاء منها على البحر الطويل 100 بيت بنسبة 37%، وجاء على البحر الكامل 99 بيتاً بنسبة 36%، وعلى البسيط جاء

(1) ينظر: علي الجندي، الشعراء وإنشاد الشعر، ص 106.

46 بيتاً بنسبة 17%، يليه السريع وجاء عليه 13 بيتاً، بنسبة 4%، ثم المتقارب وجاء عليه 9 أبيات بنسبة 3%، وأخيراً جاء على المنسرح بيتان فقط بنسبة 1%.

وما يلاحظ أن الرثاء جاء على أربعة أبحر هي: الطويل، والكامل، والبسيط، والسريع؛ ولعل السبب في ذلك أن تلك المراثي الطويلة نظمت بعد أن هدأت ثورة الفزع، واستكانت النفوس باليأس والهم المستمر⁽¹⁾، كما أن صدق العاطفة في الرثاء يشحن الشاعر بالمعاني الحزينة التي تحتاج إلى نفس طويل، فيصحبها الشاعر في قوالب الطويل والكامل والبسيط والسريع. وهذه الأبحر تتدفق فيها الأوزان بسلاسة وعذوبة، فيحسن فيها تمثيل العواطف الفياضة.⁽²⁾

7 - **الهجاء**: بلغ مجموع أبيات الهجاء 235 بيتاً، جاء منها على البحر السريع 67 بيتاً بنسبة 28%، وعلى المتقارب 46 بيتاً بنسبة 19%، وعلى البسيط 40 بيتاً بنسبة 17%، وعلى الطويل 27 بيتاً بنسبة 11%، وعلى الكامل 15 بيتاً بنسبة 6%، وعلى الخفيف 14 بيتاً بنسبة 6%، وعلى الوافر 11 بيتاً بنسبة 5%، وعلى الرمل 10 أبيات بنسبة 4%، وعلى المديد 8 أبيات بنسبة 3%.

ويلاحظ أن الهجاء جاء على البحر السريع، فالمتقارب؛ وذلك لأن الهجاء كان قليلاً في أشعارهم، حيث ابتعد الفقهاء عن الهجاء بعامة، والهجاء المقذع بخاصة.

8 - **الفخر**: بلغ مجموع أبيات الفخر 175 بيتاً، جاء منها على البحر الطويل 70 بيتاً بنسبة 40%، وعلى البحر البسيط 47 بيت بنسبة 27%، وعلى المنسرح 20 بيتاً بنسبة 11%، وعلى الخفيف 13 بيتاً بنسبة 7%، وعلى الكامل 8 أبيات بنسبة 4%، وعلى الوافر 7 أبيات بنسبة 4%، وعلى المتقارب 5 أبيات بنسبة 3%، وعلى الرمل بيتان بنسبة 1%، وعلى السريع بيتان بنسبة 1%، وعلى المحدث بيتان بنسبة 1%.

نلاحظ أن الفخر جاء على الطويل والبسيط، وهما بحران يستوعبان معظم الأغراض، ويتناسبان مع الدافع لغرض الفخر، الذي يضخم فيه صاحبه من ضمير الأنا، ويطيل نفسه، كما أن فخرهم كان من النوع الهادئ الرزين الذي يتطلب التأني والتؤدة، ولذلك جاءنا في قصائد طويلة وأوزان كثيرة المقاطع.⁽³⁾

(1) ينظر: إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص 178.

(2) ينظر: علي الجندي، الشعر وإنشاد الشعر، ص 106.

(3) إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص 178.

سابعاً - القافية:

القافية هي: عدة أصوات تتكرر في أواخر الأسطر أو الأبيات من القصيدة، وتكررها هذا يكون جزءاً هاماً من الموسيقى الشعرية، فهي بمثابة الفواصل الموسيقية التي يتوقع السامع تردها، ويستمتع بمثل هذا التردد الذي يطرق الأذان في فترات زمنية منتظمة.⁽¹⁾

مع البحور تتواكب القوافي وروبيها؛ لأنها تقدم الإيقاع الختامي للبيت، ومن طبيعة الإنسان أنه يتذكر آخر شيء طرق أذنه أكثر من غيره، فإن أحسن وقع الخاتمة في أذنه ازداد لمحاسن البيت تقديراً؛ لذا تعد القافية عنصراً ضرورياً في إيقاع الشعر العربي، وركناً مهماً في موسيقية الشعر؛ نظراً لما تحدثه من رنين، وما تثيره في النفس من أنغام وأصداء، وما تدفع إليه السامع من ترديد لها.⁽²⁾

إن القافية لا تقل أهمية عن الوزن، فهي لازمة إيقاعية تتجسد في تكرار أصوات معينة، تنسجم مع الحالة النفسية، فلا تتحدد رؤيا الشاعر بالكلمة والوزن فقط، وإنما تتطلب إلى جانب هذين العنصرين القافية كذلك،⁽³⁾ ولأهمية القافية في النسيج الشعري سمت العرب القصيدة قافية، قالت الخنساء:⁽⁴⁾

{المتقارب}

وقافيةٍ مثلِ حدِّ السَّنا نِ تبقى ويذهبُ مَنْ قالها

وقد قسم العلماء القافية إلى قسمين: مطلقة: وهي التي يكون فيها حرف الروي متحركاً، ومقيدة: وهي التي يكون فيها حرف الروي ساكناً.⁽⁵⁾

وقد بنى الشعراء الفقهاء قصائدهم وأشعارهم على جميع حروف اللغة العربية، لكنها تفاوتت من حرف لآخر، حيث استخدموا أحرفاً بكثرة، واستخدموا أحرفاً على قلة، وقللوا من استخدام بعض الأحرف، وذلك كما في الجدول المرفق:

(1) ينظر: إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص 246 .

(2) ينظر: نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، ص 192 .

(3) ينظر: محمد أحمد وآخرون، البنية الإيقاعية، ص 19 .

(4) الخنساء، الديوان، ص 101.

(5) ينظر: إبراهيم أنيس، م، س، ص 260.

النسبة	المجموع	الحرف
%2.5	75	ء
%9.5	285	ب
%7	216	ت
% .5	13	ث
%1	22	ج
%1.5	44	ح
%0	1	خ
%8	249	د
%0	3	ذ
%12.5	387	ر
0	3	ز
%4	122	س
0	1	ش
0	2	ص
% .9	27	ض
% .5	18	ط
%1.8	57	ع
% .8	24	ف
%2.2	69	ق
%3.1	99	ك
%8	243	ل
% 11	328	م
%11.2	348	ن

هـ	381	12.2%
و	37	1%
ي	4	0%

نستنتج من الجدول السابق أن الشعراء الفقهاء قد نظموا على معظم حروف اللغة العربية، وقد كان ترتيب حرف الروي حسب كثرة وروده كما يلي:

حرف الراء 387 بيتاً، فحرف الهاء 381 بيتاً، فحرف النون 348 حرفاً، فحرف الميم 328 بيتاً، فحرف الباء 285 بيتاً، فحرف الدال 249 بيتاً، فحرف اللام 243 بيتاً، وما نلاحظه أن الشعراء الفقهاء قد أكثروا من استخدام أحرف الراء والهاء والنون والميم والباء والدال واللام؛ وذلك لأنها من الحروف الأكثر دوراناً على ألسنة الناس؛ لسهولة مخرجها، ولأنها تجيء في أواخر كلمات اللغة العربية بكثرة، ولتناسبها مع معظم الأغراض الشعرية.⁽¹⁾

وسار الشعراء الفقهاء على نهج الشعراء السابقين في أنهم ابتعدوا عن قوافٍ صعبة، مثل: (ث، خ، ذ، ز، ش، ص، ض، ط، ظ، غ، و، ي). فهي إما أحرف مفخمة، أو بين أسنانية صعبة في النطق، فإذا نظم الشاعر عليها ضيق على نفسه، بعكس أحرف النون واللام والهاء والراء.⁽²⁾

وقد أحسن الشعراء الفقهاء في اختيار القوافي التي تتناسب مع موضوعاتهم وأحاسيسهم، فحرف الراء مثلاً يصلح لشعر الوصف، لذا اختار الإلييري قافية الراء في وصف النار، قال:⁽³⁾

{السريع}

وَيْلٌ لِأَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ	مَاذَا يُقَاسُونَ مِنَ النَّارِ
تَتَقَدُّ مِنْ غَيْظٍ فَتَغْلِي بِهِمْ	كَمْ رَجُلٍ يَغْلِي عَلَى النَّارِ
فَيَسْتَغِيثُونَ لِكَيْ يُعْتَبُوا	أَلَا لَعْنًا مِنْ عَثْرَةِ النَّارِ
وَكُلُّهُمْ مُعْتَرِفٌ نَادِمٌ	لَوْ تَقَبَّلُ التَّوْبَةُ فِي النَّارِ
فَتَارَةً يَطْفُو عَلَى جَمْرِهَا	وَتَارَةً يَرْسُبُ فِي النَّارِ

(1) ينظر: إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص 248 .

(2) ينظر: علي الجندي، الشعر وإنشاد الشعر، ص 120 .

(3) الإلييري، الديوان، ص 90 .

وَكَلَّمَا رَامَ فِرَاراً بِهَا فَرَّ مِنَ النَّارِ إِلَى النَّارِ
يَهْوِي بِهَا الْأَشَقَى عَلَى رَأْسِهِ فَالْوَيْلُ لِلْأَشَقَى مِنَ النَّارِ

كذلك وفق الشاعر في اختيار قافية مطلقة تكونت من إشباع حرف الراء بالكسرة، ما أنتج حرف الياء الطويلة، الذي ساعد الشاعر على التعبير عما يجيش في نفسه من اضطراب وقلق وخوف من النار.

المبحث الثالث: الصورة الفنية:

نتيجة لجمال الطبيعة الساحر، وانتشار المظاهر الحضارية في الأندلس، برع الأندلسيون في التصوير والخيال، وأكثروا من التجسيد، فافتتوا في التشبيهات والاستعارات والكنيات، ومزجوا بعضها ببعض الفنون البديعية من جناس وطباق ومقابلة، وساروا في ذلك على خطا سابقهم، إلا أنهم جددوا فيها وأضافوا إليها صورا جديدة من بيئتهم الجديدة.

وانطبق هذا على الفقهاء، حيث وظفوا التشبيهات والاستعارات والكنيات، وجأؤوا بصور جميلة رائعة، على النحو الآتي:

أولاً- التشبيه:

التشبيه: "الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى".⁽¹⁾

وللتشبيه فائدة وأهمية في الكلام، قال القزويني: "فاعلم أنه مما اتفق العقلاء على شرف قدره، وفخامة أمره في فن البلاغة، وأن تعقيب المعاني به يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها مدحا كانت، أو ذمّا، أو افتخاراً، أو غير ذلك".⁽²⁾

وأغراض التشبيه كثيرة منها بيان إمكان وجوده، وذلك إذا كان المشبه من الأمور الغريبة التي يستبعد حصولها، وبيان حال المشبه إذا كان غير معروف الصفة قبل التشبيه، وبيان مقدار حال المشبه إذا كان المشبه معروف الصفة قبل التشبيه معرفة إجمالية، والمجهول مقدارها من القوة والضعف أو الزيادة والنقصان، وتزيين المشبه؛ وذلك بتحسينه وتجميله وإظهاره في صورة ترغبها النفس، وذلك عند إرادة المدح، وتقبيح المشبه وتشويهه، لإلحاقه بمشبه به قبيح ومكروه، وذلك عند إرادة الذم والتنفير، وتقرير حال المشبه؛ إذا كان لا يمكن فصل الصفة عن المشبه والمشبه به.⁽³⁾

ويقسم التشبيه إلى ثلاثة أقسام:

(1) القزويني، الإيضاح، ص 328 .

(2) القزويني، م. ن، ص 328-329 .

(3) ينظر: بسيوني عبد الفتاح فيود، علم البيان، ص 113-119 .

- 1 -التشبيه المفرد: وهو ما طرفاه مفردان.
- 2 -التشبيه التمثيلي: وهو التشبيه الذي يكون وجه الشبه فيه منتزعاً من مركب متعدد.
- 3 -التشبيه الضمني: وهو التشبيه الذي يُلح فيه وجه الشبه من السياق، ويعرف من قرائن الكلام.⁽¹⁾

وقد كانت تشبيهات الشعراء الفقهاء تابعة للحالة النفسية لهم، حيث " يتنوع أسلوب التأثير النفسي للتشبيه من مكان إلى آخر؛ حسب الاهتمامات والتعريفات التي يؤمن بها شعب دون آخر، وأصحاب مهنة معينة عن مهنة أخرى، ولهذا فإن الشاهد التشبيهي إذا كان من بيئة المتفن والمتلقي كان له سحر التأثير، وإذا اختلف في بيئة أحدهما فتر التأثير، وخفّ التوصيل"⁽²⁾، وقد وظف الفقهاء التشبيه في أشعارهم، ونوعوا في أنواعه، فوظفوا التشبيه المفرد، والتمثيلي، والضمني، وذلك على النحو الآتي:

- 1 -التشبيه المفرد: وظف ابن حزم الأندلسي التشبيه المفرد فقال:⁽³⁾ {الطويل}

كَأَنَّ الْهَوَى ضَيْفٌ أَلَمَ بِمُهْجَتِي فَلَحْمِي طَعَامٌ وَالنَّجِيعُ شَرَابٌ
إِذَا حَزَنَتُهُ فَالْأَرْضُ جَمْعَاءُ وَالْوَرَى هَبَاءٌ وَسُكَّانُ الْبِلَادِ ذُبَابٌ

حيث شبه ابن حزم الهوى بالضيف، ولحمه بالطعام، ودمه بالشراب، وسكان البلاد بالذباب. وقال أيضاً:⁽⁴⁾ {المنسرح}

فَقَدْ رَأَيْنَا فِعْلَ الزَّيْمَانِ بِأَهْلِهِ لِيهِ كَفَعِلِ الشُّوَاطِظِ فِي حَطْبِهِ

فالشاعر شبه فعل الزمان بأهله بفعل النار في الحطب، ووجه الشبه محذوف تقديره التدمير والتخريب.

- وصور قوس قزح تصويراً رائعاً، فقال:⁽⁵⁾ {البسيط}

(1) ينظر: القزويني، الإيضاح، 328-372.

(2) ينظر: محمد بركات أبو علي، البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، ص 103 .

(3) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 244

(4) ابن حزم، م. ن، ص 302.

(5) ابن حزم، رسائل ابن حزم، 302/1.

ولاحَ في الأفق قَوْسُ اللهِ مُكْتَسِباً من كلِّ لونٍ كأذنابِ الطَّواويسِ

حيث شبه قوس قزح الملون بجميع الألوان بأذناب الطواويس الجميلة، ووجه الشبه بينهما كثرة الألوان الجميلة وانسجامها.

وقال الإلبيري: (1) {السريع}

تَقْدُ مِنْ غَيْظٍ فَتَغْلِي بِهِمْ كَمَرْجَلٍ يَغْلِي عَلَى النَّارِ

حيث شبه النار (جهنم) وهي تغلي بمن فيها بوعاء يغلي على النار.

وقال أبو محمد عبد الحق بن عطية المحاربي: (2) {البسيط}

كَأَنَّمَا اللَّيْلُ زَنْجِيٌّ بِكَاهِلِهِ جُرْحٌ فَيَنْتَعِبُ أحياناً لَهُ بِدَمٍ

حيث شبه الليل بالزنجي، الذي في كتفه جرح يسيل دماً، ووجه الشبه بينهما هو السواد. وفي ذلك تصوير للحالة النفسية التي كان يحسها، حيث رأى الليل طويلاً.

وقال: (3) {الرمل}

إِنَّمَا الْإِنْسَانُ بَحْرٌ مَالَهُ سَاحِلٌ فَاحْذَرُهُ إِيَّاكَ الْغُرْرُ

حيث شبه الإنسان بالبحر الذي ليس له ساحل، وفي ذلك دعوة واضحة إلى الحذر منه، ووجه الشبه بين الإنسان والبحر هو أن كلا منهما يخدع، والشاعر أراد أن يرسم لنا صورة منفرة من الإنسان. وقال أبو بكر بن الملح: (4) {الخفيف}

أَنْتَ كَالشَّمْسِ لَمْ تَغِبْ (5) وَلَكِنْ حَبَبَتْ لَيْلَهَا حَذَارَ الْمَلَالِ

(1) الإلبيري، الديوان، ص90.

(2) المقرئ، نفح الطيب، 528/2 .

(3) المقرئ، م، ن، 524/2 .

(4) الأصفهاني، خريدة القصر، 925/2.

(5) تغب: تظهر يوماً وتختفي يوماً، ابن منظور، لسان العرب، مادة غب.

حيث شبه ممدوحه بالشمس، ووجه الشبه أن كلا منهما لا يغيب عن الناس، فالممدوح دائم الزيارة للناس، ومثله الشمس. لكنه غاب ليلة حتى لا يمله الناس، وفي ذلك تعظيم للممدوح، إذ شبهه بالشمس مصدر النور والحرارة والحياة.

ومن التشبيه المركب قول ابن حزم: (1)

{الطويل}

كَأَنَّ الْحَيَا وَالْمُزْنَ وَالرَّوْضَ عَاطِراً دَمَوْعٌ وَأَجْفَانٌ وَخَدٌّ مُورَدٌ

حيث شبه ثلاثة أشياء بثلاثة أخرى، فقد شبه الحياء بالأجفان، والمزن (المطر) بالدموع، والروض العاطر بالخد المورد. حيث رسم صوراً مركبة مقلوبة؛ إذ الأصل أن يشبه الدموع بالمطر، والخد المورد بالروض العاطر وهكذا، لكنه يرى أن هذه الصفات قوية في محبوبته لدرجة جعلته يقلب التشبيه.

2 التشبيه التمثيلي:

وظف الشعراء التشبيه التمثيلي، كما في قول ابن حزم: (2)

{المنسرح}

بَيْنَا تَرَى الْمَرْءَ سَامِياً مَلَكاً صَارَ إِلَى السُّفْلِ مِنْ ذُرَا رُتْبَةً
كَالزَّرْعِ لِلرَّجْلِ فَوْقَهُ عَمَلٌ إِنَّ يَنْمُ حُسْنُ النَّمُوِّ فِي قُضْبَةٍ

حيث شبه الإنسان بعد أن يكون ملكاً سامياً، وتنحط مكانته فيهان، بالزرع الذي تدوسه أقدامك بعد أن كان مورقاً يانعا، ووجه الشبه الإهانة بعد الكرامة. وهي صورة منتزعة من متعدد. وقال أيضاً: (3)

{البسيط}

عَيْنَايَ فِيهِ وَجَسْمِي عَنْهُ مُرْتَحِلٌ مِثْلُ ارْتِقَابِ الْغَرِيقِ الْبَرِّ فِي اللَّجَجِ

(1) ابن حزم، رسائل ابن حزم، 1/109.

(2) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 302.

(3) ابن حزم، م. ن، ص 105.

حيث شبه تركيز عينيه على ممدوحه، بينما جسمه يبتعد عنه، بالغريق الذي يرتقب الوصول إلى البر لكن الأمواج العاتية تبعده إلى عمق البحر، ووجه الشبه هو شيء تنظر إليه بعينك وتبتعد عنه بجسدك.

وقال أيضاً: (1)

لَعَلَّكَ بَعْدَ عَتَبِكَ أَنْ تَجُودَا بِمَا مِنْهُ عَتَبْتُ وَأَنْ تَزِيدَا
فَكَمْ يَوْمٍ رَأَيْنَا فِيهِ صَحَوًّا وَأَسْمَعْنَا بِآخِرِهِ الرُّعُودَا
وَعَادَ الصَّحْوُ بَعْدَ كَمَا عَلِمْنَا وَأَنْتَ كَذَلِكَ نَرْجُو أَنْ تَعُودَا

حيث شبه الشاعر المحبوبة في جودها بعد عتبها بيوم صحو تبعه فيه الرعد، ثم عاد صحوها كما كان، ووجه الشبه شيء ينتقل من حسن إلى سيئ، ثم يعود حسناً كما كان.

وقال ابن العسال في طفيلي: (2)

أَفَدِيكَ مِنْ مُتَوَجِّدٍ غُضْبَانٍ حَتَّى يَلُوحَ لَهُ ضَابَابُ دُخَانٍ
يَقْتَادُهُ شَمُّ الْقَتَارِ بِأَنْفِهِ مِثْلَ اقْتِيَادِ النَّجْمِ لِلْحِيرَانِ

حيث شبه الطفيلي الذي تقتاده رائحة الطعام بالحيران الذي تقتاده النجوم، ووجه الشبه هو وجود شيء يدل على شيء آخر.

وقال أبو بكر ابن العربي يصف كتاباً عليه نشارة: (3)

لَا تَشْنُهُ بِمَا تَذَرُ عَلَيْهِ فَكَفَاهُ هُبُوبُ هَذَا الْهَوَاءِ
فَكَأَنَّ الَّذِي تَذَرُ عَلَيْهِ جَدْرِيٌّ بِوَجْنَةٍ حَسَنَاءِ

حيث شبه الكتاب والنشارة عليه بوجه فتاة جميلة عليه حبيبات الجدري، ووجه الشبه وجود شيء أبيض جميل عليه حبيبات غير جميلة.

3 التشبيه الضمني: وظف الفقهاء التشبيه الضمني في أشعارهم، قال ابن حزم: (4)

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 197.

(2) ابن الكتاني، التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، 244/1.

(3) المقرئ، نفح الطيب، 27/2.

(4) ابن حزم، الديوان، ص 92.

{الخفيف}

لا تَلْمُنِي لِأَنَّ سَابِقَةَ لَحْظٍ فَاتَ إِدْرَاكُهَا ذَوِي الْأَبَابِ
يسبقُ الكلبُ وثبةَ الليثِ في العَدِ وَيَعْلُو النُّخَالَ فَوْقَ اللَّبَابِ

حيث شبه الشاعر نظرة سريعة بدرت منه، بالكلب الذي يسبق الأسد في وثبته، وبالنخال الذي يعلو فوق اللباب، ولم يأت التشبيه صريحاً في صورة من صور التشبيه، بل جاء ضمناً مفهوماً من معنى الكلام، وقد وقع فيه المشبه به تعليلاً للمشبه.

{الخفيف}

وقال أيضاً: (1)

لا تَلْمُهَا عَلَى النَّفَارِ وَمَنْعِ الْـ وَصَلِ مَا هَذَا لَهَا بِنَكِيرِ
هل يكونُ الهلالُ غيرَ بعيدٍ أو يكونُ الغزالُ غيرَ نفورِ

حيث شبه الشاعر نفور محبوبته منه، بابتعاد الهلال عن الناس، وبنفور الغزال، وشبه ذلك من دون أداة تشبيه، لكن التشبيه يلمح لمحا من خلال البيتين.

{الكامل}

وقال أبو محمد بن غانم: (2)

قد كان مجلسُك المباركُ موسِماً فَأَقَامَ أَوْحَشَ مِنْ غَدَاةِ فِرَاقِ
غُيِّبَتْ عَنْهُ مَغِيبَ بَدْرِ كَامِلِ وَاللَّيْلُ أَدهَمُ ضَارِبٍ بِرُواقِ
وَمِنَ الْعَجَائِبِ وَالْكَسُوفِ مُرْتَبٌ قَمَرٌ تَوَارَى فِي زَمَانٍ مَحَاقِ

حيث شبه ممدوحه عندما يغيب عن المجلس، بالقمر الذي يختفي أثناء الكسوف. لكن التشبيه يلمح من خلال القرينة ألا وهي (غيبت عنه).

{البسيط}

وقال أبو الحسين بن سراج: (3)

بُثَّ الصَّنَائِعَ لَا تَحْفَلُ بِمَوْعِهَا مِنْ آمَلٍ شَكَرَ الْإِحْسَانَ أَوْ كَفَّرَا

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 251 .

(2) ابن بسام، الذخيرة، 867/2 .

(3) القاضي عياض، ترتيب المدارك، 142/8 .

فَالْغَيْثُ لَيْسَ يُبَالِي أَيْنَ مَا انْسَكَبَتْ مِنْهُ الْغَمَائِمُ تُرْبًا كَانَ أَوْ حَجَرًا

حيث يطلب من الممدوح أن يعمل الخير، ولا يقلق بنتيجته سواء أكانت شكراً أم كفراً، وشبهه في ذلك بالغيث الذي لا يبالي أين يسقط على التراب أم على الصخور.

ثانياً - الاستعارة:

الاستعارة: "تشبيه حذف أحد طرفيه، المشبه أو المشبه به، وعلاقتهما المشابهة دائماً".⁽¹⁾

والاستعارة تنقل اللفظ من معناه الأصلي الذي وُضع له إلى معنى آخر مجازي، بينه وبين المعنى الأصلي تشابه؛ للتأثير في نفس السامع.

والاستعارة تعطي المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة، وتجسد الانفعالات والمشاعر في صور محسوسة، تكاد تلمسها الأيدي، وتبصرها العيون، وتصغي إليها الآذان.⁽²⁾

والاستعارة تقسم إلى ثلاثة أنواع:

1 + الاستعارة التصريحية: وهي ما صرّح فيها بلفظ المشبه به.
2 + الاستعارة المكنية: وهي ما حذف فيها المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه؛ ليدل عليه.

3 + الاستعارة التمثيلية: وهي تركيب استعمل في غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة، مع قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلي، أو هي مثل يضرب في موقف يشبه الحالة التي ورد فيها، مع المحافظة على لفظ المثل.⁽³⁾

وقد وفق الفقهاء في توظيف الاستعارة بأنواعها؛ وذلك لأنهم أرادوا تشخيص الممدوحين والمرثيين ووصف الطبيعة وصفاً حسياً؛ لذلك جسدوا وشخصوا، ومن الاستعارات التي وظفوها في شعرهم:

(1) القزويني، الإيضاح، ص 407.

(2) ينظر: فضل عباس، البلاغة فنونها وأفنانها: علم البيان والبدیع، ص 231.

(3) ينظر: القزويني، م.س، ص 410-412.

1 الاستعارة التصريحية: استخدم الفقهاء الاستعارة التصريحية، وممن أكثر من استعمالها الإلبيري، حيث قال: (1)

{الوافر}

أَرَاكَ تُحِبُّ عَرَساً ذَاتَ غَدَرٍ أَبَتَ طَلَاقَهَا الْأَكْيَاسُ بَتّاً

حيث شبه الحياة بالعروس بجامع الغدر، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به وهو العروس للمشبه وهو الحياة، على سبيل الاستعارة التصريحية، والقرينة أراك تحب.

وقال أيضاً: (2)

{الكامل}

لَا كُنْتُ مِنْ أُمِّ لَنَا أَكَّالَةٍ بَعْدَ الْوِلَادَةِ مَا أَقَلَّ حَيَاكِ

شبه هنا الأرض بالأم التي تأكل أولادها بعد الولادة، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به، وهو أم للمشبه، وهو الأرض، على سبيل الاستعارة التصريحية، والقرينة أكالة.

وقال في وصف مؤمن: (3)

{الكامل}

وَلَقَدْ عَجِبْتُ لِمُؤْمِنٍ فِي شِدْقِهِ جَرَسٌ كَنَاقُوسٍ بَبِيعَةٍ كَافِرٍ

وهو هنا شبه لسانه بالجرس، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به وهو جرس، للمشبه وهو اللسان، على سبيل الاستعارة التصريحية، والقرينة شدقه.

وقال: (4)

{السريع}

يَنْثُرُ مِنْ فِيهِ لَهُمْ جَوْهَرًا مِنْ عِلْمِهِ لَيْسَ لَهُ مِنْ ثَمَنٍ

شبه هنا كلامه بالجواهر، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به وهو الجوهر، للمشبه وهو الكلام، على سبيل الاستعارة التصريحية، والقرينة ينثر من فيه.

(1) الإلبيري، الديوان، ص 19 .

(2) الإلبيري، م.ن، ص 35 .

(3) الإلبيري، م.ن ، ص 80 .

(4) الإلبيري، م.ن ، ص 101 .

وصور الإلبيري ابن النغيلة اليهودي صورة رائعة، فقال: (1)

{المتقارب}

فَكَمْ مُسْلِمٍ فَاضِلٍ قَانِتٍ لَأَرْذَلِ قِرْدٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ
وَكَيْفَ تُحِبُّ فِرَاحَ الزَّيْنَا وَهُمْ بَغَضُوكَ إِلَى الْعَالَمِينَ

ففي البيت الأول شبه ابن النغيلة اليهودي بالقرد، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به وهو القرد للمشبه وهو ابن النغيلة، على سبيل الاستعارة التصريحية، والقرينة من المشركين. وفي البيت الثاني شبه اليهود بالفراخ، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به وهو الفراخ للمشبه وهو اليهود، على سبيل الاستعارة التصريحية، والقرينة وكيف تحب.

{الوافر}

وقال ابن حزم الأندلسي: (2)

وَأَنِّي مِتُّ قَبْلَ وُرُودِ خَطْبٍ أَتَى فَأَثَارَ فِي الْأَكْبَادِ جَمْرًا

حيث شبه الألم بالجمر، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به وهو الجمر للمشبه وهو الألم، على سبيل الاستعارة التصريحية، والقرينة فأثار في الأكباد.

{مجزوء الكامل}

وقال أبو بكر الطرطوشي: (3)

فَبَلَّغْتُهُ وَرَشَفْتُ مَا فِي فِيهِ مِنْ خَمْرٍ وَشَهْدٍ

حيث شبه ريق محبوبته بالخمير والعسل، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به وهو الخمر والشهد للمشبه وهو ريق محبوبته، على سبيل الاستعارة التصريحية، والقرينة قبلته ورشفت ما في فيه.

{الطويل}

وقال ابن لبّال: (4)

وَأَرْبَى عَلَى نُورِ الْغَزَالَةِ نُورُهُ كَمَا يَفْضُلُ الْحُرُّ الْكَرِيمُ عَلَى الْعَبْدِ

(1) الإلبيري، الديوان، ص 97 .

(2) ابن حزم، رسائل ابن حزم، 220/1 .

(3) المقرئ، نفح الطيب، 89/2 .

(4) ابن دحية، المطرب، ص 97

وهو هنا شبه الشمس بالغزالة، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به وهو الغزالة للمشبه وهو الشمس، على سبيل الاستعارة التصريحية، والقرينة نور.

2 الاستعارة المكنية: أكثر الفقهاء منها، وممن وظفها الإلبيري في قوله: (1) {الوافر}

تَفَّتْ فُؤَادَكَ الْأَيَّامُ فَتًّا وَتَحَتَّ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتًا

حيث شبه الأيام بالحفار، وشبه الساعات بالنحات، وحذف المشبه به في كليهما، ورمز إليه بشيء من لوازمه، ألا وهو تفتت، وتحتت على سبيل الاستعارة المكنية. لم تعد الأيام مجرد ساعات ودقائق، بل أصبحت آلة تفتت القلب فتًا، ومثلها الساعات، لقد كسر الإلبيري في هاتين الاستعارتين الحواجز المادية، وجسر بين ركنيهما بلحمة معنوية تفتت وتحتت.

وقال: (2) {البسيط}

مَا لِي تُلَاحِظُنِي عَيْنُ الْخُطُوبِ وَقَدْ أَسْنَدْتُ مِنْكَ إِلَى رُكْنٍ كَثْهَلَانِ

حيث شبه الخطوب (المصائب) بالإنسان، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، ألا وهو عين، على سبيل الاستعارة المكنية. ونحن نحس مدى التوافق بين المشبه والمشبه به في نفس الشاعر، فينعكس بذلك على أحاسيسه ومشاعره التي تفيض تدمراً وسخطا على المصائب.

وقال أبو محمد غانم بن وليد: (3) {الكامل}

ضَحِكَ الزَّمَانُ بِحُسْنِهِ وَبَهَائِهِ كَالصَّبِّ يَضْحَكُ بَعْدَ طَوْلِ بُكَائِهِ

حيث شبه الزمان بالإنسان، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه (ضحك)، فالزمان لا يضحك، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية.

وقال أيضاً: (4) {الكامل}

هَوْنٌ عَلَيْكَ فَقَدْ مَضَى مَنْ يَعْقِلُ وَالْبَسُّ مِنَ الْأَخْلَاقِ مَا هُوَ أَفْضَلُ

(1) الإلبيري، الديوان، ص 19 .

(2) الإلبيري، م.ن، ص 106 .

(3) ابن بسام، الذخيرة، 858/2 .

(4) ابن بسام، م.ن، 869/2 .

حيث شبه الأخلاق بالثياب التي تلبس، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه البس، على سبيل الاستعارة المكنية.

وقال أبو بكر ابن العربي: (1)

{ مجزوء الوافر }

أَمَّا وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَمَا يُتْلَى بِهِ نَصًّا
لَقَدْ رَقَّصَتْ بَنَاتُ الشَّو قَ بَيْنَ جَوَانِحِي رَقْصًا

حيث شبه الشوق بالإنسان، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه بنات، على سبيل الاستعارة المكنية، فالشوق ليس له بنات.

3 الاستعارة التمثيلية: لم تكثر الاستعارة التمثيلية عند الفقهاء، وممن استخدمها الإلبيري في قوله: (2)

{ الخفيف }

ذَنْبٌ أَبْتَرَّ لَعْمَرُكَ خَيْرٌ مِنْ طَوِيلٍ يُجَرُّ فِي الْأَقْدَاءِ

حيث شبه الشاعر الإنسان المتواضع بصاحب الذنب الأبتَر، والذي يتكبر على الناس بمن يجر وراءه ذنباً طويلاً في الأوساخ.

ثالثاً - الكناية:

الكناية: "لفظ أطلق وأريد به لازم معناه، مع جواز إرادة المعنى الأصلي". (3)

فالمتكلم يترك اللفظ الموضوع للمعنى الذي يريد التحدث عنه، ويلجأ إلى لفظ آخر موضوع لمعنى آخر تابع للمعنى الذي يريده فيعبر به عنه.

واستخدام اللفظ في غير معناه الذي وضع له لا يتم إلا عند وجود علاقة تربط بين المعنيين: المعنى الكنائي الذي استخدم فيه اللفظ، والمعنى الأصلي الذي كني به، والعلاقة في الكناية هي علاقة الردف والتبعية. (1)

(1) المقري، نفح الطيب، 338/5 .

(2) الإلبيري، الديوان، ص 86 .

(3) ينظر: بسيوني عبد الفتاح فيود، علم البيان: دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص 243.

وتقسم الكناية باعتبار المعنى المكنى عنه، وهو المعنى المراد، إلى ثلاثة أنواع:

- 1 كناية عن صفة: وذلك بأن يذكر في الكلام صفة أو عدة صفات بينها وبين صفة أخرى تلازم وارتباط، بحيث ينتقل الذهن بإدراك الصفة أو الصفات المذكورة إلى الصفة المكنى عنها المرادة.
 - 2 كناية عن موصوف: وذلك بأن يذكر في الكلام صفة أو عدة صفات لها ظاهر بموصوف معين، ويقصد بذكرها الدلالة على هذا الموصوف.
 - 3 كناية عن نسبة: وذلك بأن يريد المتكلم إثبات صفة لموصوف معين، أو نفيها عنه، فيترك إثبات هذه الصفة لموصوفها، ويثبتها لشيء آخر شديد الصلة ووثيق الارتباط به، فيكون ثبوتها لما يتصل به دليلاً على ثبوتها له.⁽²⁾
- ويحتاج الفقهاء إلى كنايات تخدمهم في الحديث عن أدق دقائق الأنثى، من حيث الزواج، والنكاح، والحيض، وغير ذلك مما لا يحبذون التصريح به، وبسبب الحشمة والتقوى يلجؤون إلى الكناية، ويضطرون إلى الرمز، والتلميح، والإشارات، والتورية، ولا يستطيع أن يتقن ذلك إلا من امتلك قدرة على فهم المعاني، ومسالك الخيال، ومهارة اللسان.⁽³⁾

ووظف الفقهاء الكناية في أشعارهم، وسأتناولها مرتبة حسب الأنواع السابقة.

- 1 الكناية عن صفة: أكثر الفقهاء من توظيف الكناية عن صفة؛ وذلك لأنهم أرادوا مدح ممدوحهم أو رثاءهم أو وصفهم بصفات دون إظهار هذه الصفات بحيث تكون جليلة واضحة، فقد كنوا عن صفة الكبر والهرم بعدة كنايات قال الإلبيري:⁽⁴⁾ {الخفيف}
- وَلَيْتَ عَادَ لَيْلُ رَأْسِي صُبْحاً وَوَشَى بِي شَيْبِي إِلَى الْحَسَنِاءِ

حيث كنى عن الكبر وغزو الشيب رأسه بقوله: عاد ليل رأسي صباحاً، حيث صور شعر رأسه الأسود بالليل، والشعر الأبيض بالصبح. ففي الأسود رمز الشباب والقوة، وفي الأبيض رمز الكبر والضعف، وقد أفادت الكناية هنا المبالغة في المعنى.

وقال:⁽⁵⁾ {الوافر}

أرى الأعصارَ تعصيراً ماءً عودي وقَدْماً كُنْتُ رِيَّانَ الْقَضِيبِ

(1) ينظر: بسيوني عبد الفتاح فيود، علم البيان: دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص 244-246.

(2) ينظر: بسيوني عبد الفتاح فيود، م، ص 246-250.

(3) ينظر: محمد بركات أبو علي، البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، ص 136.

(4) الإلبيري، الديوان، ص 86 .

(5) الإلبيري، م، ص 31 .

فالشاعر كنى عن صغره بقوله: ريان القضيبي، وكنى عن تقدمه في السن بقوله: تعصر ماء عودي، وفي ذلك جمال لأن الكناية أعطت صورة فنية جميلة، فشبه الشاب بالعود الطري الريان، وشبه الشيخ الكبير بالعود الجاف، وقد أفادت الكناية هنا التعبير عن المعنى غير المستحسن بألفاظ لا تعافها الأذواق ولا تمجها الآذان.

وكنوا عن علو المكانة والمنزلة والرفعة، قال الإلبيري: (1)

{الخفيف}

بَعْلِيَّ بْنَ تَوْبَةَ فَازَ قِدْحِي وَسَمَتَ هِمَّتِي عَلَى الْجَوَازِ

الشاعر كنى عن علو مكانته بقوله: سمت همتي على الجوزاء، فالشاعر يمدح علي بن توبة، ويرى فيه أنه ناصره؛ لذلك بلغ مكانة عالية عنده، وقد أفادت الكناية المبالغة في المعنى، لأن الجوزاء نجم في السماء. وقال: (2)

{الوافر}

وَإِنْ جَلَسَ الْغَنِيُّ عَلَى الْحَشَايَا لَأَنْتَ عَلَى الْكَوَائِبِ قَدْ جَلَسْتَ

فقد كنى الشاعر هنا عن الرفاهية بقوله: لأنت على الكواكب قد جلستا، وهو هنا يريد أن يرفع من شأن نفسه، فهو يفتخر بعلمه، فإذا كان الغني قد جلس على الفرش المحشوة، فإنه بعلمه قد جلس على الكواكب كناية عن مكانته العالية التي حصلها بالعلم، وقد أفادت الكناية المبالغة في المعنى. وقال ابن حزم: (3)

{الطويل}

تُذِلُّ لِي الْأَمْلاكُ حُرًّا نَفْسِيهَا وَأَرْكَبُ ظَهَرَ النَّسْرِ وَالنَّسْرُ طَائِرُ

الشاعر هنا كنى عن شجاعته وقوته بقوله: أركب ظهر النسر وهو طائر، والنسر طير جارح اتخذت منه بعض الدول رمزاً لها، حيث يرمز إلى القوة والشجاعة والسرعة، فلا يمكن أن يؤدي أي خطاب عادي هذا المعنى، وقد أفادت الكناية المبالغة في المعنى.

{الطويل}

وكنوا عن صفة الندم، قال ابن حزم: (4)

(1) الإلبيري، الديوان ، ص 87 .

(2) الإلبيري، م.ن، ص 23 .

(3) المقري، نفح الطيب، 81/2 .

(4) ابن حزم، الديوان، ص 33 .

لَمَّا كَانَ مِنْكُمْ عِنْدَ ذَلِكَ غَيْرَ مَا عَهْدُنَا لَكُمْ ذُلًّا وَعَظُّ الْأَبَاهِمِ

الشاعر هنا كنى عن صفة الندم بقوله: عض الأباهم، والشاعر قرن ذلك بقوله: عهدنا لكم، وعض الأباهم كناية موروثه، فالشاعر يهجو هجاء تقليدياً، وقد أفادت الكناية التعمية والتغطية وإخفاء ما يود الشاعر إخفائه حرصاً على سمعة المكنى عنهم، ورغبة في عدم ترده على الألسنة.

وكنوا عن صفة الخشوع والخضوع، قال الإلبيري: (1) {السريع}

وَعَفَّرَ الْوَجْهَ لَهُ سَاجِداً فَعَزَّ وَجْهَهُ ذَلًّا لِلَّهِ

وقال: (2) {الخفيف}

فَعَسَى مَنْ لَهُ أَعْفَرُ وَجْهِي سَيْرَى فَاقْتَنِي إِلَيْهِ فَيَرْحَمَ

الشاعر كنى عن صفة التذلل والخضوع والاستسلام في البيتين بتعفير الوجه، وما من شك في أن ذلك يدل على الخضوع بشكل كلي، فالوجه هو مصدر الجمال عند الإنسان، وتعفيره دليل على ترك الدنيا وملذاتها، كل ذلك رسمه الشاعر في صورة فنية رائعة، يحس سامعها مدى خوف، والحالة النفسية التي هو فيها، فهو يدعو إلى الزهد، وقد أفادت الكناية تفخيم المعنى في نفوس السامعين، فكلمة عفر لها هول في نفوس الناس.

وكنوا عن صفة الحزن، قال الإلبيري: (3) {الطويل}

شَقَقْنَا عَلَى مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ جُيُوبَنَا وَكَانَ قَلِيلاً أَنْ تُشَقَّ التَّرَائِبُ

الشاعر هنا استخدم كناية، فشق الثياب دليل على الحزن، وقد دلت هذه الكناية على مدى حزنه على أهل البيرة التي بكأها بعد خرابها، استطاع من خلالها أن يصور مدى حزنه عليهم، ولو أتى بكلام آخر ما كانت الصورة واضحة إلى هذا الحد، وأفادت الكناية هنا بالمبالغة.

(1) الإلبيري، الديوان، ص 65 .

(2) الإلبيري، م.ن، ص 51 .

(3) الإلبيري، م.ن، ص 75 .

وكنى الإلبيري عن تفوقه في مجال الشعر، فقال: (1) {الخفيف}

فَأَنَا مُفَحَّمٌ عَلَى أَنَّ خَيْلِي لَا تُجَارَى فِي حَلَبَةِ الشُّعْرَاءِ

كنى هنا الشاعر عن تفوقه على غيره من الشعراء بقوله: أن خيله لا تجارى في حلبة الشعراء، والشاعر هنا أراد أن يثبت للقاضي ابن توبة أنه شاعر قدير، لا يصل إلى منزلته أي شاعر آخر، وأفادت الكناية هنا تجسيد المعنى وإبرازه في صورة محسوسة تزخر بالحركة والحياة، ويتضح ذلك من خلال كلمات تجارى وحلبة الشعراء.

وكنى الإلبيري عن صفة الاستهتار والانحلال بقوله: (2) {السريع}

أَقْبَحُ مَنْ تَرَمَّقُهُ مُقْلَةٌ مُبْصِرَةٌ شَيْخٌ خَالِيعُ الرِّسَنِ

حيث كنى عن الشيخ المستهتر بقوله: شيخ خليع الرسن، وما أجمل هذه الصورة! شبه الدين بالرسن، وشبه الشيخ بالدابة التي تلبس الرسن، لكنه أتى بها في كناية، على صورة جميلة لا يريد أن يصرح بأن الشيخ حمار أو حصان، وأفادت الكناية هنا تفخيم المعنى في نفوس السامعين، فالشيخ يلبس رسناً، فجاء الشاعر بوصف ينبه الفقهاء، ويزجر وينبه ويحذر من يتخذ الدين وسيلة لتحقيق أهداف خاصة.

2 الكناية عن موصوف: وظف الفقهاء الكناية عن موصوف، قال الإلبيري: (3) {الوافر}

وَكَمْ ذِيبٌ نَجَاوِرُهُ وَلَكِنْ رَأَيْتُ الذِّيبَ أَسْلَمَ مِنْ فَقِيهِهِ

حيث كنى عن الإنسان المخادع بقوله الذئب، والشاعر هنا أراد أن يحقر الفقهاء، فعلى الرغم مما يتصف به الذئب من مكر وخداع، فإنه أسلم من فقيه. وفي ذلك تنفير من الفقهاء المخادعين، وأفادت الكناية التغطية وإخفاء صفات للفقهاء يود الشاعر إخفاءها.

(1) الإلبيري، الديوان، ص 89 .

(2) الإلبيري، م. ن، ص 104 .

(3) الإلبيري، م. ن، ص 72 .

وكنى عن الجنة بقوله: (1)

{الكامل}

مَقْصُورَةٌ فِي قُبَّةٍ مِنْ لَوْلُؤٍ ذُخِرَتْ ثَوَاباً لِلْمُصَابِ الصَّابِرِ

وهو هنا كنى عن الجنة بقوله قبة من لؤلؤ؛ حيث إن الحور العين في الجنة. وفي ذلك تشجيع للإنسان ليسعى من أجل تحقيقها، وأفادت الكناية هنا تجسيد المعاني وإبرازها في صور محسوسة تزخر بالحياة والحركة، ويتضح ذلك من خلال الكلمات قبة، ولؤلؤ، وذخرت.

وكنى ابن لبال عن ظهره، فقال: (2)

{البسيط}

لَمَّا تَقَوَّسَ مِنِّي الْجِسْمُ عَنْ كِبَرٍ فَاَبْيَضَّ مَا كَانَ مُسَوِّدًا مِنَ الشَّعَرِ
جَعَلْتُ أَمْشِي كَأَنِّي نَصْفُ دَائِرَةٍ تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ أَوْ قَوْسٌ بَلَا وَتَرٍ

حيث كنى عن ظهره المقوس بقوله نصف دائرة، وقوس بلا وتر. وفي ذلك كله كناية عن الكبر والهرم، وأفادت الكناية تفخيم المعنى في نفوس السامعين، فصور نفسه أنه نصف دائرة، أو قوس بلا وتر.

وكنى ابن لبال عن الرأس، فقال: (3)

{المنسرح}

أَرْسَلَ مِنْ صُدْغِهِ لِعَارِضِهِ ذُؤَابَةً تَحْتَ لَمَّةِ الشَّعَرِ

حيث كنى عن الرأس بقوله من صدغه لعارضه. فالرأس هو الذي تتقدمه غرة من الشعر. وقد أراد الشاعر أن يتغزل بفتى جميل وبخاصة رأسه، وأفادت الكناية هنا تجسيد المعنى في صورة محسوسة تزخر بالحياة والحركة.

3 كناية عن نسبة: وظف الفقهاء الكناية عن نسبة في أشعارهم، قال الإلبيري: (4)

{الطويل}

وَأَيْنَ بِحَارِ الْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَالْندَى وَأَيْنَ الْأَكْفُ الْهَامِيَاتُ السَّوَائِبُ

(1) الإلبيري، الديوان ، ص 78 .

(2) ابن الأبار، تحفة القادِم، 100/1 .

(3) ابن الأبار، م، ن، 101/1 .

(4) الإلبيري، م، س، ص 75 .

حيث نسب الجود إلى الأكف لا إلى أهل البيرة، وقد أراد من ذلك بيان مدى كرمهم.
وقال أبو محمد غانم بن وليد: (1)

قُلْ لِمَنْ أَكْدَتْ مَطْلِبُهُ رَاحَتَاهُ الْجَاهُ وَالْمَالُ

حيث نسب الجاه والمال إلى راحتي الممدوح لا إلى الممدوح نفسه.

(1) المقرئ، نفح الطيب، 615/3 .

المبحث الرابع: الاقتباس والتضمين

وظف الفقهاء ثقافتهم واطلاعهم على التراث في أشعارهم، وبخاصة التراث الديني، وكانوا يهدفون من وراء ذلك إلى إقناع من يخاطبون، وأرادوا من ذلك عقد مقارنة بين حال من سبقوهم وحال من يخاطبون، كما أرادوا من ذلك أخذ العبرة والعظة من مصير من تمثلوا بهم، وبخاصة الأنبياء، على أمل أن يكون مصيرهم مثل مصير الأنبياء من الخلاص من الظلم، والتحرر، والصبر.

اهتم الأندلسيون بعامة والفقهاء بخاصة بالقرآن الكريم وعلومه، فقد اهتموا بدراسة القرآن الكريم، وكان الفقهاء ممن لهم عناية خاصة بالقرآن والحديث، بل كان من شروط الفقيه أن يكون على قدر كبير من الثقافة الدينية؛ وذلك لأن الدين الإسلامي مصدر التشريع عندهم، والمذهب المالكي هو المذهب الرسمي لهم، وهم يمثلون القدوة للآخرين.

ومن خلال دراستي لشعر الفقهاء في هذه الحقبة وجدتها تغصّ بالمعاني الإسلامية، ولا سيما القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وهو ما يسمى الاقتباس، ومعناه: "أن يُضمّن الكلام شيئاً من القرآن والحديث".⁽¹⁾

وكان تأثرهم في أربعة مستويات، وهي:

أولاً- التأثير بالمعاني القرآنية: أكثر الفقهاء من التأثر بالمعاني القرآنية؛ وذلك لأن الفقهاء كانوا ممن يميلون إلى الزهد والاستقامة؛ لذلك برزت المعاني والألفاظ القرآنية في أفعالهم وأقوالهم، ويمكن أن نتبين مواضع هذا التأثير من خلال نماذج كثيرة، قال الإلبيري:⁽²⁾ {السريع}

كَأَنَّمَا رَيْنَ عَلَى قَلْبِهِ فَصَارَ مَحْجُوباً عَنِ اللَّهِ

الشاعر متأثر في قوله: "كأنما رين على قلبه" بقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا

يَكْسِبُونَ﴾⁽¹⁾ أي ظلّ على قلبه فصار محجوباً عن الله يقتترف المعاصي، فهو كالصدأ على القلوب.

(1) القزويني، الإيضاح، ص 575 .

(2) الإلبيري، الديوان، ص 68 .

وقال: (2)

{الكامل}

إِنَّ الْمَعَاصِيَ لَا تُقِيمُ بِمَنْزِلٍ إِلَّا لِتَجْعَلَ مِنْهُ قَاعاً صَفْصَفاً

حيث تأثر الشاعر في قوله: "قاعاً صفصفاً" بقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ

يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ۖ (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً ۖ (١٠٦)﴾ (3)، فالشاعر يريد أن يضخم ويعظم الذنوب، فهي لا تنزل بمنزل إلا وتهدمه على أساسه.

وقال: (4)

{الكامل}

مَنْ لَا يُرَاقِبُ رَبَّهُ وَيَخَافُهُ تَبَّتْ يَدَاهُ وَمَالُهُ مِنْ وَالٍ

والشاعر هنا متأثر في قوله: "تبت يده" بقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ

ۖ (١)﴾ (5)، حيث يدعو الشاعر بالخسران لمن لا يخشى الله ويخافه، ويبين أنه لا نصير له.

وقال ابن حزم: (6)

{الطويل}

هَنِيئاً لِكُلِّ مَا لَدَيْهِ فَإِنَّا عَطِيَّةٌ مَنْ تُبْلَى لَدِيهِ السَّرَائِرُ

والشاعر هنا متأثر في قوله: "تبلى السرائر" بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۖ (٩)﴾ (7)،

حيث يطلب الشاعر من الإنسان أن يهنأ بما أنعم الله عليه من نعم، فنحن جميعاً هبة من الله.

وقال: (8)

{المنسرح}

(1) المطففين، 14/83 .

(2) الإلبيري، الديوان، ص 45 .

(3) طه، 20/ 105-106 .

(4) الإلبيري، م.س، ص 42 .

(5) المسد، 1/ 111 .

(6) ابن حزم، الديوان، ص 92 .

(7) الطارق، 9/86 .

(8) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 302 .

شُكْرًا لِرَبِّ لَطِيفٍ قُدْرَتِهِ فِينَا كَحَبْلِ الْوَرِيدِ فِي كَتَبِهِ

الشاعر متأثر في قوله: "كحبل الوريد" بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (١٦)، حيث أراد الشاعر أن يبين قدرة الله تعالى فينا، فهي قريبة مثل الوريد الذي هو عرق في الرقبة، كناية عن قرب الله لنا، ومراقبته جميع أفعالنا.

وقال: (2) {السريع}

بُشْرَى أَتَتْ وَالْيَأْسُ مُسْتَحْكَمٌ وَالْقَلْبُ فِي سَبْعِ طَبَاقٍ شِدَادٌ

الشاعر هنا متأثر في قوله: "سبع طباق" بقوله تعالى: ﴿الْمَرْتَرُوا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طَبَاقًا﴾ (١٥)، حيث أراد أن يصور الحالة النفسية التي يعيشها، فقد أتته البشري بعدما كان اليأس مسيطراً عليه، وقلبه قد اشتدت به الأمور، كأنه في السماء السابعة.

وقال أبو الحسين بن سراج: (4) {الوافر}

مَعَانٍ تَعْبِقُ الْآفَاقُ عَنْهَا يَشِيبُ لَهَا حَسُودُكَ وَهُوَ طِفْلٌ

والشاعر هنا متأثر في قوله: "يشيب لها حسودك وهو طفل" بقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ (١٧)، فالشاعر أراد أن يعبر عن عظم المعاني وأهميتها وخطورتها، فهي لهولها يشيب لها الحسود وهو طفل.

وقال أبو بكر بن الملح: (6) {البسيط}

(1) ق، 16/50.

(2) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 220.

(3) نوح، 15/71.

(4) الأصفهاني، خريدة القصر، 930/2.

(5) المزمّل، 17/73.

(6) ابن بسام، الذخيرة، 363/1.

كواكبُ بسماءِ النَّفْعِ قد جَعَلَتْ لَنَا رُجُوماً وما كُنَّا شَياطِينا

فالشاعر هنا متأثر بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً

لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝﴾⁽¹⁾، حيث شبه محبوباته بالكواكب وسط السماء، لكنه ينفي أن يكون شيطاناً.

(1) الملك، 5/67.

ثانياً- القصص القرآني:

وظّف الفقهاء قصص القرآن الكريم في أشعارهم، وقد ذكروا من القصص قصة كل من: آدم، ونوح، وصالح، وإبراهيم، ويوسف، وموسى، والسمري، وداود، وعيسى، وأبرهة الأشرم، ومحمد، صلى الله عليه وسلم، وقد كان ذكرهم لها عابراً، إذ أشاروا إلى القصص دون تفصيل، وذلك لأنهم كانوا يوجهون كلامهم إلى عامة الناس، معتقدين أنهم مدركون لهذه القصص، وقد رتبناها حسب التسلسل التاريخي، فبدأت بأقدمها نوح، وانتهيت بمحمد، صلى الله عليه وسلم، على النحو الآتي:

أ- قصة نوح، قال ابن حزم: (1)

{الطويل}

وَنَجَّى مِنَ الطَّوْفَانِ نوحاً وَقَدْ هَدَتْ بِهِ أُمَّةً أَبَدَى الْفُسُوقَ شَرَارُهَا

وهو متأثر بقصة سيدنا نوح عليه السلام، الذي دعا قومه تسعمئة وخمسين سنة، إلا أنهم لم يؤمنوا به، وعذبه، فدعا الله ألا يبقي منهم أحداً، فأمره الله أن يصنع سفينة، وحمل فيها من كل زوجين اثنين، ولم يحمل زوجته الكافرة وابنه الكافر، فجاء الطوفان وأغرق الكفار (2)، قال تعالى:

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا نَبْتَسِ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٣٦) وَأَصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ

(3) ﴿٣٧﴾

ب- قصة ناقة صالح، قال ابن حزم: (4)

{الطويل}

وَأَبْرَزَ مِنْ صُومِ الْحَبَارَةِ نَاقَةً وَأَسْمَعَهُمْ فِي الْحَيْنِ مِنْهَا خَوَارَهَا

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 306.

(2) الخطيب البغدادي، تاريخ الأنبياء، ص 43.

(3) هود، 36/11-37.

(4) ابن حزم، م.س، ص 306.

وهذا مأخوذ من قصة صالح وقومه، حيث طلب قوم صالح منه آية تدل على صدق نبوته، والآية التي طلبوها أن يخرج لهم بقرة من صخرة، فإن أخرج صدقوه، وإن لم يخرج فليكنف عن دعوتهم للإيمان، فدعا صالح ربه، فانفجرت الصخرة وخرج منها ناقة، لكنهم عقروها، فحق عليهم العذاب، وأخذتهم الصيحة. ⁽¹⁾ قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أُنْتَانَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ^(٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ^(٧٨) ⁽²⁾.

وعن قصة ثمود، قال أبو حفص الهوزني: ⁽³⁾

أَعْيَذُكُمْ أَنْ تَدَهْنُوا فَيَمْسَسَكُمْ عِقَابٌ كَمَا ذَاقَ الْعَذَابَ ثَمُودُ

الشاعر هنا متأثر بقصة قوم ثمود الذين عقروا الناقة فعذبهم ربهم، ⁽⁴⁾ قال تعالى: ﴿وَإِلَى

ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِمْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ

بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا

يَسُوءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ^(٧٣) ⁽⁵⁾، حيث يعيذ قومه أن يدهنوا ويرأوا؛ فيقعوا في العذاب كما وقع قوم ثمود.

ج- قصة إبراهيم، قال ابن حزم: ⁽⁶⁾

وَسَلَّمَ مِنْ نَارِ الْأُتُونِ خَلِيلُهُ فَلَمْ يُؤْذِهِ إِحْرَاقُهَا وَاعْتِرَاقُهَا

وقال أبو محمد بن عطية المحاربي: ⁽¹⁾

{البسيط}

(1) الخطيب البغدادي، تاريخ الأنبياء، ص 60.

(2) الأعراف، 77/7-78.

(3) المقرئ، نفح الطيب، 220/3.

(4) الخطيب البغدادي، م، س، ص 65.

(5) الأعراف، 73/7.

(6) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 306.

مَضَى وَأَبْقَى بِقَلْبِي مِنْهُ نَارَ أَسَى كوني سَلاماً وَبَرْداً فِيهِ يَا نَارُ

وهو متأثر بقصة سيدنا إبراهيم عليه السلام، حيث ألقاه نمرود وقومه في النار، ما أدى إلى بكاء الملائكة، والسموات، والأرض، والجبال عليه، وقالوا: يا رب، ليس على وجه الأرض أحد يعبدك إلا واحد، وهو يحرق بالنار لأجلك،⁽²⁾ فقال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ

إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ (3)

د - قصة سيدنا يوسف، قال ابن حزم:⁽⁴⁾ {الطويل}

ولكن لي في يوسف خير أسوة وليس على من بالنبي اتّسَى ذنبٌ

الشاعر هنا متأثر بقصة سيدنا يوسف، حيث كان عليه السلام مقدماً عند أبيه، مما جعل إخوته يكيدون له، واتفقوا على أن يلقوه في بئر خربة حتى يخلو لهم أبوهم، ووضعوا على قميصه دماً، لكن أباهم علم بمكيدتهم. وهو يريد أن يبين أن زملاءه في الشعر يكيدون له مثلما كاد أخوة يوسف لأخيه.⁽⁵⁾

هـ - قصة سيدنا موسى، قال ابن حزم:⁽⁶⁾ {الوافر}

ولكن للعيان لطيف معنى لَهُ سَأَلَ الْمُعَايَنَةَ الْكَلِيمُ

حيث تأثر الشاعر بقصة سيدنا موسى علي السلام الذي يسمى كليم الله؛ لأنه كلم الله، حيث خاطب ربه عندما ذهب إلى الواد المقدس،⁽⁷⁾ ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَنْتَهَى نُودِيَ يَمُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا

(1) المقرئ، نفح الطيب، 527/2 .

(2) الخطيب البغدادي، تاريخ الأنبياء، ص 66.

(3) الأنبياء، 69/21.

(4) ابن حزم، الديوان، ص 74.

(5) الخطيب البغدادي، م.س، ص 105.

(6) ابن حزم، م.س، ص 99.

(7) الخطيب البغدادي، م.س، ص 153.

رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ (1)، فقال له ربه: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٤) (2)، ثم سأله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمُوسَىٰ﴾ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ (3)، فالشاعر أراد أن يؤكد أهمية الرؤية بالعين (المعاينة)، فأتى بقصة معاينة الكليم لله.

وقال: (4) {الطويل}

وَشَقَّ لِمُوسَى الْبَحْرَ دُونَ تَكْلُفٍ وَبَانَ مِنَ الْأَمْوَاجِ فِيهِ انْحِسَارُهَا

وقال أبو الوليد الوقشي: (5) {السريع}

لَا أَرْكَبُ الْبَحْرَ وَلَوْ أَنَّي ضَرَبْتُ فِيهِ بِالْعَصَا فَاَنْفَلَقُ

الشاعران تأثرا بقصة منجاة موسى عليه السلام من فرعون وقومه، حيث أوحى الله تعالى لموسى عليه السلام أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق، فمر موسى وقومه، وعندما جاء فرعون وقومه أغرقهم الله بإطباق البحر عليهم. قال تعالى: ، ففي البيت الأول أراد الشاعر أن يبين قدرة الله تعالى الذي شق البحر ونجى موسى، وأهلك فرعون وقومه، وفي البيت الثاني يبين الشاعر أنه لا يحب ركوب البحر حتى لو كان بإمكانه أن يشق البحر بعصاه.

و- قصة السامري، قال ابن حزم: (6) {الطويل}

كَذَلِكَ فَعَلَ السَّامِرِيُّ وَقَدْ بَدَا لَعَيْنِيهِ مِنْ جَبْرِيلَ إِثْرَ مُمَجَّدُ

(1) طه، 12-10/20.

(2) الأعراف، 144/11.

(3) طه، 18-17/20.

(4) ابن حزم، طوق الحمامة، ص306.

(5) المقرئ، نفح الطيب، 377/3 .

(6) ابن حزم، م.س، ص233.

فَصَيَّرَ جَوْفَ الْعَجَلِ مِنْ ذَلِكَ الثَّرَى فَقَامَ لَهُ مِنْهُ خُورٌ مُمَدَّدٌ

وهذا متأثر بقصة السامري الذي صنع لبني إسرائيل عجلًا من الذهب، يخور خوار البقر،⁽¹⁾

قال تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾⁽²⁾.

ز - قصة داود، قال ابن حزم:⁽³⁾ {الطويل}

وَمَكَنَ دَاوُدَ بِأَيْدٍ وَإِنَانَهُ فَتَغَسَّرَهَا مُلْقَى لَهُ وَبِدَارُهَا

وهو متأثر بقصة سيدنا داود عليه السلام مع ابنه سليمان، الذي آتاه الله قوة وفضلاً، وعندما

مات داود، حضر أناس كثيرون جنازته، وكان ذلك في يوم شديد الحر، فأمر سليمان الطير أن

تظلهم بأجنحتها، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أَوْبَى مَعَهُ وَالطَّيْرُ ^طوَأَلْنَا

لَهُ الْحَدِيدَ ﴾⁽⁴⁾

ح - قصة عيسى، قال ابن حزم:⁽⁵⁾ {الطويل}

وَلَكَنَّاهُ عَبْدٌ نَبِيٌّ مُكْرَمٌ مِنَ النَّاسِ مَخْلُوقٌ وَلَا قَوْلُ زَاعِمٍ

والشاعر هنا متأثر بقصة سيدنا عيسى عليه السلام، حيث إن النصارى يقولون إنه ابن الله،

لكن القرآن حدد أن سيدنا عيسى عليه السلام عبد لله، مخلوق كغيره من الناس⁽⁶⁾، قال تعالى:

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾⁽⁷⁾؛ ما دحض ادعاءاتهم وافتراءاتهم عليه.

ط - قصة أبرهة الأشرم، قال ابن حزم:⁽⁸⁾ {الطويل}

(1) الخطيب البغدادي، تاريخ الأنبياء، ص 160.

(2) طه، 85/20.

(3) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 306.

(4) سبأ، 10/34.

(5) ابن حزم، الديوان، ص 35.

(6) الخطيب البغدادي، م.س، ص 317.

(7) مريم، 30/19.

(8) ابن حزم، الديوان، ص 33.

بِهَا وَقَعَ الْأَحْبُوشُ هَلَكَى وَفِيلُهُمْ بحصباء طيرٍ في ذُرَا الْجَوِّ حَائِمٍ

الشاعر متأثر بقصة أبرهة الأشرم، الذي جاء على رأس جيش يركبون الفيلة لهدم الكعبة⁽¹⁾،

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۚ (٢)﴾

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ

مَّا كُؤِلَ (٥) ﴿ (٢) ؛ لهذا سمي هذا العام عام الفيل، وهو العام الذي ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم.

ي - قصة محمد صلى الله عليه وسلم، قال ابن حزم: (٣) {المتقارب}

مُحَمَّدٌ الْمَصْطَفَى بِالْكِتَابِ بِهِ أَنْبِيَاءٌ لَهُ قَدْ خَتَمَ

والشاعر هنا متأثر بقصة سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، في القرآن حيث إن الرسول

اصطفاه الله ونزل عليه القرآن، وبه ختم الأنبياء، فلا أنبياء بعده، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ

أَبًا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠)﴾ (٤)

﴿ (٤)

ثالثاً - التأثر بالحديث الشريف:

مثلما تأثر الفقهاء بالقرآن وقصصه، تأثروا بالحديث النبوي الشريف، ولا غرابة في ذلك،

فهو المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم، واهتمام الفقهاء بالحديث ينبع من حاجتهم للتدليل

(1) الخطيب البغدادي، تاريخ الأنبياء، ص415.

(2) الفيل، 5-1/105.

(3) ابن حزم، الديوان، ص40.

(4) الأحزاب، 40/33.

على الأحكام الشرعية، ولتفسير القضايا الفقهية في القرآن الكريم، لكن تأثرهم به كان أقل بكثير من تأثرهم بالقرآن الكريم، ولم أجد إلا مثلاً، فقد قال ابن حزم: (1)

{الكامل}

إِنْ كَانَتْ الْأَبْدَانُ نَائِيَةً فَنَفْسُ أَهْلِ الْخُبِّ تَأْتِلُ
يَا رَبُّ مُؤْتَلِفِينَ قَدْ جَمَعْتَ قَلْبَهُمَا الْأَقْلَامُ وَالصُّحُفُ

الشاعر هنا متأثر بالحديث النبوي: "الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تنكر منها اختلف" (2)، فهو يشير إلى أنه رغم تباعد الأجساد، فإن المحبة والتآلف تجمع بينهما، ويشير إلى أن الأقلام والصحف قد جمعتهم، دلالة على الاشتراك في العلم.

رابعاً- التضمين:

"وهو أن يضمّن الشعر شيئاً من شعر الغير". (3)

استلهم الشعراء الفقهاء كثيراً من الأشعار القديمة؛ وهذا يدل على سعة ثقافتهم واطلاعهم على أشعار السابقين من الشعراء، كما اتخذوا الشعر في الشرق نموذجاً لهم في الصناعة والخيال، فقد وظف ابن حزم الأندلسي معلقة طرفة بن العبد، إذ كان يأتي بشطر منه، ويأخذ الشطر الآخر من معلقة طرفة، قال: (4)

تَذَكَّرْتُ وَدّاً لِلْحَبِيبِ كَأَنَّهُ "خَوْلَةَ أَطْلَالٍ بِبُرْقَةٍ تَهْمَدُ"
وَعَهْدِي بَعْدَهُ كَانَ لِي مِنْهُ ثَابِتٌ "يَلُوحُ كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ"
إِلَى أَنْ أَطَالَ النَّاسُ عَذْلِي وَأَكْثَرُوا "يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسَى وَتَجَلَّدِ"
كَأَنَّ فُنُونَ السُّخْطِ مِمَّنْ أَحْبَبُهُ "خَالِيَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدِ"
كَأَنَّ انْقِلَابَ الْهَجْرِ وَالْوَصْلِ مَرَكِبٌ "يَجُورُ بِهَا الْمَلَاخُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي"
فَوْقَتْ رِضًا يَتْلُوهُ وَقْتُ تَسَخُّطِ "كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ الْمُفَايِلُ بِالْيَدِ"
وَيَبْسُمُ نَحْوِي وَهُوَ غَضْبَانُ مُعْرِضٌ "مُظَاهِرٌ سِمَطِي لَوْلُؤٍ وَزَبْرَجَدِ"

(1) ابن حزم، الديوان، ص 95.

(2) مسلم، الصحيح، رقم الحديث: 2638، 2031/4.

(3) القزويني، الإيضاح، ص 580.

(4) ابن حزم، رسائل ابن حزم، 195/1.

وفيما يأتي الأبيات كما وردت في معلقة طرفة بن العبد: (1)

{الطويل}

لَخَوْلَةٍ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةٍ تَهْمَدُ	تَلَوْحُ كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ
وَقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ	يَقُولُونَ لَا تَهْلِكُ أَسَىٌّ وَتَجَلَّدُ
كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غُدْوَةً	خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدِ
عَدُولِيَّةٌ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِنٍ	يَجُورُ بِهَا الْمَلَأُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي
يَشُقُّ حَبَابَ الْمَاءِ حِزْوْمُهَا بِهَا	كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ الْمُفَايِلُ بِالْيَدِ
وَفِي الْحَيِّ أَحْوَى يَنْفُضُ الْمَرْدَ شَادِنٌ	مُظَاهِرُ سِمَطِي لَوْلُوٍّ وَزَبْرَجِدِ

وضمن ابن حزم أيضاً بيتاً للأشتر النخعي، هجا فيه رجلاً يغصب حقوق الناس، مما أدى إلى هلاكه، قال: (2)

{الطويل}

وِغَاصِبُ حَقٍّ أَوْبَقْتُهُ الْمَقَادِرُ "يُذَكِّرُنِي حَامِيمَ وَالرَّمْحُ شَاجِرُ"

نلاحظ أنه ضمنه من بيت الأشتر النخعي الذي قاله عندما قُتل محمد بن طلحة بن عبد الله يوم وقعة الجمل: (3)

{الطويل}

يُذَكِّرُنِي حَامِيمَ وَالرَّمْحُ شَاجِرُ فَهَلَا تَلَا حَامِيمَ قَبْلَ التَّذَكُّرِ

وقال ابن لبّال متغزلاً بمحبوبته التي صور أسنانها بالبرد، وخدودها بالورد، وأصابها بالدرر: (4)

{المنسرح}

يَفْتَرُّ عَنْ فَضَّةٍ وَعَنْ بَرْدٍ وَعَنْ أَقْحَاحٍ نَدٍ وَعَنْ دُرَرٍ

{البسيط}

وفيه تضمين بيت الواواء الدمشقي: (5)

(1) طرفة، الديوان، 19-20.

(2) ابن حزم، الديوان، ص92.

(3) الصفدي، الوافي بالوفيات، 3/145 .

(4) ابن الأبار، تحفة القادِم، 1/101 .

(5) ابن شاعر، فوات الوفيات، 3/240 .

وَأَمْطَرَتْ لَوْلَا مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ
وَرُدًّا وَعَضَّتْ عَلَى الْعُنَابِ بِالْبَرْدِ

وضمن أبو عبد الله بن حمدين⁽¹⁾ عندما كان يفخر بأخلاقه الحسنة، وبين أنه قد ورثها عن آبائه،
وسيورثها لأبنائه:⁽²⁾ {الوافر}

"وَرِثْنَاهُنَّ عَنْ آبَاءٍ صِدْقٍ وَنُورِثُهَا إِذَا مِتَّانَا بَيْنَنَا"

وهذا التضمين من بيت عمرو بن كلثوم:⁽³⁾ {الوافر}

وَرِثْنَاهُنَّ عَنْ آبَاءٍ صِدْقٍ وَنُورِثُهَا إِذَا مِتَّانَا بَيْنَنَا

وضمن الإلبيري عندما وصف خراب البيرة فقال:⁽⁴⁾ {الطويل}

لَسَاءَلْتُ عَنْهُمْ رَسْمَهَا فَأَجَابَنِي "أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ ذَاهِبٌ"

وهو هنا ضمنه شطراً من بيت لبيد بن أبي ربيعة، الذي يقول فيه:⁽⁵⁾ {الطويل}

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مُحَالَةَ زَائِلٌ

(1) محمد بن علي بن عبد العزيز بن حمدين التغلبي، يكنى: أبا عبد الله. (439 – 508هـ)، فقيه قاضٍ شاعر، ولد سنة تسع وثلاثين وأربعمئة، روى عن أبيه، وتفقه عنده، وعن أبي عبد الله محمد بن عتاب، وحاتم بن محمد، وأجاز له أبو عمر بن عبد البر، وأبو العباس العذري ما روياه. وكان حافظاً ذكياً فطناً أديباً شاعراً لغوياً. قاضي جماعة القضاء بقرطبة في شعبان سنة تسعين وأربع مئة. ولم يزل يتولى القضاء بقرطبة إلى أن مات سنة ثمان وخمسمئة. ترجمته في ابن بسام، الذخيرة، 26/1، 452/3؛ ابن بشكوال، الصلة، 222/1؛ الضبي، بغية الملتبس، 414/1.

(2) الأصفهاني، خريدة القصر، 928/2.

(3) عمرو بن كلثوم، الديوان، ص86؛ أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، 294/1.

(4) الإلبيري، الديوان، 75.

(5) لبيد، الديوان، 256.

الخاتمة

بعد دراسة شعر الفقهاء في عصري ملوك الطوائف والمرابطين، دراسة موضوعية وفنية، يمكن للباحث أن يستعرض أهم النتائج التي توصل إليها على النحو الآتي:

- 1- كان عصر ملوك الطوائف عصر انحطاط سياسي، إلا أنه كان عصر رقي فني وأدبي متميز.
- 2- كان الفقهاء ممن حظي بنصيب وافر من العلوم والمعارف بعامة، والعلوم الدينية بخاصة؛ لذا كانوا يعدّون من العلماء.
- 3- أثبتت الدراسة أن شعر الفقهاء شعرٌ قوي رصين.
- 4- أظهرت الدراسة وفرة الأشعار التي قالها الفقهاء، لذا جاء ترتيبها في الدراسة الموضوعية حسب كثرة الأشعار التي قيلت فيها، فجاء شعر الحكمة في المرتبة الأولى يليه المدح فالهجاء فالفخر فالرثاء فالوصف فالغزل فموضوعات أخرى، ولاحظ الباحث قلة الأشعار التي قيلت في الغزل، ولعل ذلك يعود إلى أن الفقهاء كانوا قدوة المجتمع، فلا يعقل أن يتمتعوا بهذه الهالة من القدسية، ويصرفوا أعمارهم في التغزل، يضاف إلى ذلك أن التعبير عن الغزل فيه نوع من الحياء مما يجعل الشاعر لا يصرح بمشاعره علناً.
- 5- أظهرت الدراسة العلاقة القوية بين الموضوع واللغة، إذ طابق الشعراء بين اللفظ والمعنى، وانتقوا الألفاظ انتقاءً، فاستخدم الشعراء المفردات والتراكيب السهلة، فجاءت معظمها مألوفاً من قاموس العصر، وقد أثرت الحضارة في كثير من مفرداتها.
- 6- جاءت الصورة الشعرية في شعر الفقهاء جميلة رائعة؛ لأنها اشتقت من البيئة الأندلسية الجميلة، التي زخرت بالجمالين البشري والبيئي، مما حدا بالشعراء إلى توظيف الخيال للتعبير عن مظاهر الجمال فيها، وتمثلت الصور الفنية في التشبيه المفرد، والتشبيه التمثيلي، والتشبيه الضمني، وتزخرت بالاستعارات والكنایات فعبرت عن أحاسيسهم وعواطفهم تعبيراً صادقاً.
- 7- امتاز شعر الفقهاء بوجود المعاني الإسلامية، ولوحظ وجود تأثير كبير بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وهذا دليل على سعة علومهم، وتعمقهم في الدين الإسلامي، وعظم الوازع الديني لديهم، وكان الشعراء يستلهمون من تلك المعاني القيم والعظة والعبرة، كما ردد الشعراء الفقهاء في هذين العصرين الأفكار والمعاني التي دارت معظمها في أشعار القدماء كالحكم، والقيم المدحية المختلفة.

- 8 +عتنى الشعراء الفقهاء في عصري ملوك الطوائف والمرابطين بالمحسنات البديعية وبخاصة الطباق والمقابلة والجناس والتصرّيع، فاهتموا بالبديع وعدوه حلية ضرورية لا يكون الشعر ذا جمال إلا بها، ومن الرواد في هذا المجال: ابن حزم، والإلبيري، وابن لبال.
- 9 +ستخدم الشعراء الفقهاء الجمل الإنشائية الطلبية بكثرة: كالاستفهام، والأمر، والنهي، والنداء، والتمني، وخرجت إلى معانٍ متعدّدة؛ ما أضفى على المعنى والأسلوب قوة وبياناً.
- 10 - استخدم الشعراء الفقهاء معظم الأوزان العروضية، وتفاوت المستوى العددي لها تفاوتاً ملحوظاً، فقد احتلّ البحر الطويل المرتبة الأولى، يليه البحر الكامل فالبسيط ثم الوافر ثم بقية البحور الشعرية، ولم تخرج أوزانهم الشعرية عن الأوزان التي نظم فيها الشعراء القدامى.
- 11 - كشفت الدراسة عن كثير من الشعراء الفقهاء لم ترد لهم دواوين شعرية، وأبرزت شعرهم في هذا الغرض من خلال استخراج هذه الأشعار من بطون الكتب القديمة كالذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام، وخريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني، والمطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية الكلبي، وتحفة القادم والحلة السيرة لابن الأبرار، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي، والوافي بالوفيات لصالح الدين الصّفي، والإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب وأزهار الرياض في أخبار القاضي عياض للمقرّي التلمساني.

التوصيات

في هذا المضمار يمكنني أن أوصي بدراسة الموضوع نفسه في العصور الأندلسية المختلفة؛ إذ هي امتداد لما ورد في هذا البحث، كما يمكن دراسة جوانب أخرى من شعر الفقهاء - لم تدرس.

راجياً أن تكون هذه الدراسة قد أضافت شيئاً جديداً إلى ميدان الدراسات التي تهتم بالأدب العربي في الأندلس.

وأخيراً لا أدعي أنني بلغت الكمال، فهذا جهد بشري، يعتريه النقص والخلل، وحسب المرء أن يخلص ويعمل ما في وسعه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً- المصادر

القرآن الكريم

1. ابن الأبار، محمد بن عبد الله (ت658هـ)،
أ - تحفة القادم، تحقيق إحسان عباس، ط1، بيروت: دار الغرب
الإسلامي، 1986م.
ب - الحلة السيرة، تحقيق حسين مؤنس، ط2، القاهرة: دار المعارف،
1985م.
2. ابن بسام الشنتريني، علي بن بسام (ت 542هـ)، الذخيرة في محاسن أهل
الجزيرة، تحقيق سالم البدري، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1998م.
3. ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك (ت 578هـ)، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس
وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، تحقيق عزت العطار، ط2، القاهرة:
مكتبة الخانجي، 1941م.
4. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (ت597هـ)، المدهش، تحقيق مروان
قباني، ط2، بيروت: دار الكتب العلمية، 1405هـ-1985م.
5. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (ت456هـ)،
أ - الديوان ، جمع وتحقيق صبحي رشاد عبد الكريم، ط1، طنطا: دار
الصحابة للتراث، د.ت.
ب - الرسائل ، تحقيق إحسان عباس، ط2، بيروت: المؤسسة العربية
للدراسات والنشر، 1987م.
ج طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق إحسان عباس، بيروت:
المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1987م.
6. ابن الخطيب، محمد بن عبد الله (ت776هـ)، الإحاطة في أخبار غرناطة،

شرحه وضبطه وقدم له يوسف علي طويل، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2003م.

7. ابن خفاجة، إبراهيم بن أبي الفتح (ت533هـ)، الديوان، تحقيق عبد الله سنده، ط1، بيروت: دار المعرفة، 1427هـ/2006م.

8. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت808هـ)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، ط2، بيروت: دار الفكر، 1408هـ/1988م.

9. ابن خلكان، أحمد بن محمد (ت681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، د.ت.

10. ابن دحية، عمر بن حسن (ت633هـ)، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري وآخرين، القاهرة: المطبعة الأميرية، 1954م.

11. ابن رشيق القيرواني، الحسن بن رشيق (ت463هـ) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط5، بيروت: دار الجيل، 1401 هـ - 1981 م.

12. ابن الرومي، الديوان، شرح أحمد حسن بسج، ط3، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1423هـ/2002م.

13. ابن سعيد الأندلسي، علي بن موسى (ت685هـ)، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، ط2، القاهرة: دار المعارف، 1964م.

14. ابن شاعر، محمد بن شاعر (ت764هـ)، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، ط1، بيروت: دار صادر، ج1: 1973، ج(2، 3، 4): 1974.

15. ابن ظافر الأزدي، علي بن ظافر (ت613هـ)، بدائع البدائنه، طبعة مصر، مصر، 1861م.

16. ابن الكتاني، محمد بن الحسن (ت420هـ) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق إحسان عباس، ط2 طبعة [مزيدة ونقحة] بيروت، القاهرة: دار الشروق، 1981م.
17. ابن منظور، محمد بن مكرم، (ت711هـ)، لسان العرب، ط3، بيروت: دار صادر، 2004م.
18. الأزهري، محمد بن أحمد (ت370هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، ط1، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2001م.
19. الأصفهاني، أحمد بن محمد (ت 597هـ):
 أ - خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء العراق ، تحقيق محمد بهجة الأثري، العراق: مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1375هـ/1955م. جزءان.
 ب خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء العراق ج2، تحقيق محمد بهجة الأثري، العراق: وزارة الإعلام، سلسلة كتب التراث، د.ت.
 ج خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء المغرب والأندلس ج3، تحقيق آذرتاش آذرتوش، نقحه وزاد عليه محمد المرزوقي وآخرون، العراق، 1971م.
 د - خريدة القصر وجريدة العصر ج4، تحقيق محمد العروسي المطوي وآخرين، تونس: الدار التونسية للنشر، 1986م.
20. الألبيري، إبراهيم بن مسعود (ت460هـ) الديوان، تحقيق محمد رضوان الداية، ط2، دمشق: دار قتيبة، 1401هـ - 1981م.
21. امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، (ت 545 م)، الديوان، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي، ط2، بيروت: دار المعرفة ، 1425 هـ / 2004 م.
22. البخاري، محمد بن إسماعيل (ت256هـ)، صحيح البخاري، الجامع المسند

الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته وأيامه،
تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1، القاهرة: دار طوق النجاة،
1422هـ .

23. البغدادي، عبد القادر بن عمر، (ت1093هـ)، خزانة الأدب ولب لباب لسان
العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط4، القاهرة: مكتبة
الخانجي، 1418 هـ - 1997م

24. الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت393هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح
العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط4، بيروت: دار العلم للملايين،
1407هـ/1987م.

25. الحميدي، محمد بن أبي نصر (ت488هـ)، جذوة المقتبس في تاريخ علماء
الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط1، القاهرة، بيروت: دار الكتاب المصري،
دار الكتاب اللبناني، 1410هـ - 1989م.

26. الحميري، محمد بن عبد المنعم، (ت900هـ)، الروض المعطار في خبر
الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط2، بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة ، 1980 م

27. الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت463هـ)، تاريخ الأنبياء، دراسة وتحقيق
آسيا كليبان علي البارح، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1425هـ-2004م.

28. الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد، (ت1069هـ)، ريحانة الألبا وزهرة
الحياة الدنيا، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ط1، مطبعة عيسى البابي الحلبي
وشركاه ، 1386 هـ - 1967 م .

29. الخنساء، تماضر بنت عمرو، (ت50هـ)، الديوان ، شرح معانيه ومفرداته
حمدو طماس، ط2، بيروت: دار المعرفة، 1425هـ/2004م.

30. الزبيدي، محمد بن محمد (ت1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس،

تحقيق مجموعة من المحققين، د.ط، د.م، دار الهداية، د.ت .

31. الزركلي، خير الدين بن محمود (ت1396هـ)، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط13، بيروت: دار العلم للملايين، 1998م. 8 أجزاء.
32. الزمخشري، محمود بن عمر (538هـ)، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1419هـ/1998م.
33. السلفي، أحمد بن محمد (ت576هـ)، أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي، تحقيق إحسان عباس، ط1، بيروت: دار الثقافة، 1963م.
34. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت911هـ)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2004م. جزءان.
35. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764هـ)، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي فيصل، ط2، د.م. 1991م.
36. الضبي، أحمد بن يحيى (ت599هـ)، بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق روحية عبد الرحمن السويفي، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1417هـ / 1997م.
37. طرفة بن العبد، الديوان، اعتنى به حمدو طماس، ط1، بيروت: دار المعرفة، 1424هـ/2003م.
38. العباسي، عبد الرحيم بن عبد الرحمن، (ت963هـ)، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، د.ط، بيروت: عالم الكتب، د.ت.
39. عمرو بن كلثوم، الديوان، جمعه وحققه وشرحه إميل بديع يعقوب، ط2، بيروت: دار الكتاب العربي، 1416هـ/1996م.

40. الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت 170هـ)، العين، تحقيق مهدي مخزومي وإبراهيم السامرائي، د.ط، د.م: دار مكتبة الهلال، د.ت.
41. القاضي عياض، عياض بن موسى (ت 544هـ)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق ابن تاووت الطنجي، ط1، مطبعة فضالة، 1983م.
42. القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب (ت 170هـ)، جمهرة أشعار العرب، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجادي، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
43. القزويني، الخطيب القزويني (ت 739هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق وتنقيح محمد عبد المنعم خفاجي، ط6، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1985م/1405هـ.
44. لبيد بن أبي ربيعة العامري، شرح ديوان لبيد، تحقيق إحسان عباس، الكويت: سلسلة تصدرها وزارة الإرشاد والأنباء، 1962م.
45. المراكشي، عبد الواحد بن علي، (ت 647هـ)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تحقيق: صلاح الدين الهواري، ط1، بيروت: المكتبة العصرية، 1426هـ - 2006م.
46. مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط1، دار إحياء الكتب العلمية - عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1374هـ.
47. المقرئ، أحمد بن محمد (ت 1041هـ)،
- أ - أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، د.ط، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1939م.

ب -نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، ط2، بيروت: دار صادر، 1997م.

48. النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت733هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب،

ط1، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، 1423 هـ .

49. اليافعي، عفيف الدين عبد الله بن أسعد (ت768هـ) مرآة الجنان وعبرة

اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه: خليل المنصور، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1417 هـ - 1997م.

50. ياقوت الحموي، شهاب الدين بن عبد الله (ت626هـ)، معجم الأدباء: إرشاد

الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1414 هـ - 1993م.

51. اليعمرى، إبراهيم بن علي بن محمد ، (ت799هـ)، الديباج المذهب في

معرفة أعيان علماء المذهب، بيروت: دار الكتب العلمية ، د.ت.

52. اليوسى، الحسن بن مسعود بن محمد (ت1102هـ)، زهر الأكم في الأمثال

والحكم، تحقيق: محمد حجي، ومحمد الأخضر، ط1، الدار البيضاء: الشركة الجديدة - دار الثقافة، 1401 هـ - 1981 م.

ثانياً- المراجع

1. أبو ديب، كمال، في البنية الإيقاعية للشعر العربي: نحو بديل جذري لعروض الخليل

ومقدمة في علم الإيقاع المقارن، ط2، بيروت: دار العلم للملايين، 1981م.

2. أبو علي، محمد بركات، البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، ط1،

عمان: دار وائل للنشر والتوزيع، 2003م.

3. أحمد، محمد، وآخرون، البنية الإيقاعية في شعر عز الدين مناصرة، ط1، القدس: منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين بالتعاون مع وزارة الثقافة، 1998م.
4. أنيس، إبراهيم، موسيقى الشعر، ط5، د.م، 1972م.
5. البجراوي، سيد، في البحث عن لؤلؤة المستحيل، د.ط، بيروت: دار الفكر الجديد، 1988م.
6. البستاني، سليمان، إلياذة هوميروس: معربة نظماً وعليها شرح تاريخي أدبي، د.ط، بيروت، دار إحياء التراث، د.ت.
7. بشتاوي، عادل سعيد، الأمة الأندلسية الشهيدة، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2000م.
8. الجندي، علي، الشعراء وإنشاد الشعر، د.ط، القاهرة: دار المعارف، 1969م.
9. حتي، فيليب، العرب تاريخ موجز، ط3، بيروت: دار العلم للملايين، 1965م.
10. الحجي، عبد الرحمن علي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ط2، دمشق: دار القلم، 2008م.
11. الحسيني، قاسم، الأدب الأندلسي القضايا والظواهر، ط1، د.م: مطبعة الحسنية، 2007م.
12. خليفة، عمر، في العروض والقافية دراسة حول الشعر العمودي وشعر التفعيلة، ط1، بنغازي: منشورات جامعة قار يونس، 2003م.
13. الداية، محمد رضوان، في الأدب الأندلسي، ط1، دمشق: دار الفكر، 2000م.
14. الركابي، جودت، في الأدب الأندلسي، (د.ط)، القاهرة: دار المعارف، 1980م.
15. السيد، مجدي فتحي، تاريخ الإسلام والمسلمين في بلاد الأندلس الدرة المفقودة، ط1، طنطا: دار الصحابة، 2001م.
16. السيد، محمود، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، (د.ط)، الإسكندرية: مؤسسة شباب

الجامعة، 2004م.

17. الشكعة، مصطفى، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ط4، بيروت: دار العلم للملايين، 1979م.

18. شلبي، سعد إسماعيل، دراسات أدبية في الشعر الأندلسي، (د.ط)، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، 1983م.

19. ضيف، أحمد، بلاغة العرب في الأندلس، ط2، تونس: دار المعارف للطباعة والنشر، 1998م.

20. الطيب، عبد الله، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ط2، بيروت: دار الفكر، 1970م.

21. عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين، ط7، بيروت: دار الثقافة، 1962م.

22. عبد الجواد، إبراهيم، العروض بين الأصالة والحداثة، ط1، رام الله، دار الشروق للنشر والتوزيع، 2002م.

23. عتيق، عبد العزيز،

أ - الأدب العربي في الأندلس، ط2، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1976م.

ب علم المعاني، د.ط، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1985م.

ج علم البديع، ط1، القاهرة، دار الآفاق العربية، 1998م.

24. العلي، فيصل، الميسر الكافي في العروض والقوافي، د.ط، عمان: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1994م.

25. فيود، بسيوني عبد الفتاح، علم البيان: دراسة تحليلية لمسائل البيان، ط2، القاهرة، الأحياء: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، دار المعالم الثقافية للنشر والتوزيع، 1998م.

26. كنون، عبد الله، أدب الفقهاء، د.ط. بيروت: دار الكتاب اللبناني، د. ت.
27. الكيالي، سامي، في الربوع الأندلسية، د.ط.، حلب: مكتبة الشرق، 1963م.
28. محمود، حسن أحمد، قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، ط2، مصر: دار الفكر العربي، 1996م.
29. الملائكة، نازك، قضايا الشعر المعاصر، ط8، بيروت: دار العلم للملايين، 1992م.
30. الملاح، ياسر، من الفجر إلى الغروب، قصة الأدب العربي في الأندلس، ط1، القدس: مطبعة الإسرائ، 1993م.
31. ناعسة، حسني، شعر الفقهاء: نشأته وتطوره حتى نهاية العصر العباسي الأول، ط1، حلب: المكتبة العربية، 1979م.
32. هيك، أحمد، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ط7، مصر: دار المعارف، 1979م.

ثالثاً- الرسائل الجامعية:

1. أسعد، محمد جاسر جبالي، الاستعطاف في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف، (رسالة ماجستير)، نابلس: جامعة النجاح الوطنية، 2003م.
2. علي، يوسف عباس، شعر الفقهاء والمحدثين في العصر العباسي الثاني 232هـ - 400هـ، جامعة الإسكندرية، (رسالة ماجستير) الإسكندرية، جامعة الإسكندرية، 1979م.
3. عوض الله، رحاب صبري حسن، دور الفقهاء في الحياة العامة في عصر الطوائف 422هـ - 484هـ، (رسالة ماجستير)، عمان: الجامعة الأردنية، 2003م.

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
أ	الإقرار
ب	شكر وعرفان
ج	الملخص بالعربية
هـ	الملخص بالإنجليزية
ز	المقدمة
1	التمهيد
2	أولاً-الحياة السياسية
9	ثانياً- الحياة الاجتماعية
12	ثالثاً- الحياة الأدبية
20	الفصل الأول - شعر الفقهاء دراسة موضوعية
22	المبحث الأول: الحكمة والزهد
43	المبحث الثاني: المدح
54	المبحث الثالث: الهجاء
59	المبحث الرابع: الفخر

63	المبحث الخامس: الرثاء
73	المبحث السادس: وصف الطبيعة
84	المبحث السابع: الغزل
96	المبحث الثامن: موضوعات أخرى
99	الفصل الثاني- شعر الفقهاء دراسة فنيّة
100	المبحث الأول: اللغة والأسلوب:
100	تمهيد
101	أولاً- السهولة والبعد عن التكلف
102	ثانياً- الطباق
103	ثالثاً- المقابلة
104	رابعاً- الترادف
105	خامساً- أسلوب الإنشاء
105	أ - الأمر
108	ب النهي
109	ج الاستفهام
113	د -التمني
115	هـ- النداء

119 المبحث الثاني: البناء الموسيقي: الموسيقى الداخلية والخارجية.

119 أولاً- الجنس

122 ثانياً- التكرار

125 ثالثاً- التدوير

127 رابعاً- التصريع

130 خامساً- حسن التقسيم

131 سادساً- الوزن

137 سابعاً- القافية

141 • المبحث الثالث: الصورة الفنية:

141 أولاً- التشبيه

147 ثانياً- الاستعارة

151 ثالثاً- الكناية

158 • المبحث الرابع: الاقتباس والتضمين:

158 أولاً- التأثر بالمعاني القرآنية

162 ثانياً- القصص القرآني

167 ثالثاً- التأثر بالحديث الشريف

168 رابعاً- التضمين

171	الخاتمة
173	التوصيات
174	ثبت المصادر والمراجع
174	أولاً - المصادر
180	ثانياً - المراجع
183	ثالثاً - الرسائل الجامعية
184	فهرس المحتويات